جـان نوڤـيل





دَوْلةُ الڤاتيكان

رجَالها أنظمَتُها رسَالتهَا



نقله عن الفرنسية

مخايل الرجّي

جـَان نوڤيل

دَوْلةُ الڤاتيكانْ

رجَالها أنظمَتهُا رسَالتهَا

نقله عن الفرنسية

مخـَايل الرجّي

دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت ـ لبنان ، آذار ١٩٦٠

المقـــدمة

ليس هذا الكتاب مقالة في اللاهوت ، ولا تاريخاً للكنيسة ، ولا وصفاً لحاضرة الفاتيكان ، ولا سيرة احد البابوات . انما هو رواية شاهد رأى كيف تدار عجلة الادارة العليا في الكنيسة الكثوليكية ، فخطرت له عدة سؤالات : كيف يحكم البابا والكرادلة والمجامع والدواوين نصف المليار من الكثوليكيين ؟ - كيف يزاول رأس الكنيسة ، من قصره في الفاتيكان ، سلطته المطلقة على المؤمنين المشتتين في جميع اقطار العالم ؟ - ما هو البابا ، ما هو الاسقف ، ما هي المجامع والدواوين ؟ - كيف تسير اعمال وزارة الدولة البابوية ؟ - ما هي طريقة امراء الكنيسة في معيشتهم ؟ كيف يقضي البابا وقته سواء في الحفلات الطقسية الفخمة او في حياته الخاصة ؟ - كيف يُنتخب البابا وما هي الحفلات الشائقة التي تقام في تتويجه وفي مأتمه ؟ اين صار إصلاح الرهبانيات ؟ - هل من معضلة علمانية كثوليكية ؟ - وقضايا اخرى كثيرة .

ليس هدف الشاهد الردّ على هذه الاسئلة باجوبة نظرية . فقد شاهد كيف يعيش سكان الفاتيكان ، الكبار منهم والصغار ، فحاول تحديد دور كلٍّ منهم ، واستخلاص المبادىء التي عليها تركّز الكنيسة اعمالها . ومن وراء ما نراه في الكنيسة من نواحٍ منظورة ، المّ المؤلف بكلمة عن العقيدة الكثوليكية في ما يلامس « نفس الكنيسة »، وأبان كيف ان الجميع يمكنهم ان يكونوا من نفس الكنيسة ، اذا ما جدّوا في طلب الحقيقة بخلوص النية وعمق الدرس ، سواء كانوا كثوليكيين او ارثوذكسيين ، بروتسطنتيين او يهوداً، او « بدون مذهب ».

وغني عن البيان ، من بعدما تقدم ، ان موضوع الكتاب ليس الدفاع عن الكنيسة ، ولا بالحري الجدل في شؤونها ، بل محاولة اخبارية بحتة .

★

وُلد المؤلف في بلدة نوفسل Neuvecelle ، من مقاطعة صافودا العليا في فرنسا ؛ ومن بلدته استعار اسمه في هذا الكتاب . وقضى صباه بين بحيرة ليمان Léman والبحر القزويني ونهر التبر Tibre . وكان تلميذاً في سويسرا ، وطالباً في مقاطعتي البروفنس والالزاس في فرنسا ؛ وحاز شهادة التدريس العليا Agrégation من جامعة

باريس ؛ ودرّس في مقاطعة البُوس Beauce في فرنسا ، قبل ان اصبح المراسل الروماني لجريدة « القتال » Combat الباريسية .

ومنذ بضع سنوات ، عُيّن المراسل الخاص الدائم في رومية لجريدة مسائية كبيرة في باريس ، ولمحطة الاذاعة والتلفزة الفرنسية . ولما كان دأبه تدوين الحوادث والاخبار المختلفة يوماً فيوماً ، استطرد الى بحث مجرى الاحوال من وقت الى آخر ، والى تحقيقات واخباريّات ، تعمقاً في درس معضلة او قضية ، او في رسم لوحة عن موضوع او حالة ما .

وهكذا تسنّى له ان يجاوز حدود حاضرة الفاتيكان . وكان ، كل مرة ، يزداد شعوراً بهذه الدنيا الفاتيكانية ، المثيرة الاحساس من وجوه جمة ، والكثيرة المفاتن في الغالب ، دنيا يكتشفها روّادها الذين الفوا مغانيها . فراقه ان يؤدي شهادة بجياة الدواوين الرومانية وسير اعمالها .

القسم الاول

قداسة البابا

الفصل الاول

اصغر دولة في العالم

١ - الدولة الفاتيكانية .

حديث العالم عن الستار الحديدي ، وحديثنا في هذا الكتاب عن الباب النحاسي الاصفر . فهذا الباب يحرسه جنود سويسريون، سلاحهم الرمح (او : الحربة) Hallebarde، وبه المدخل الى اصغر دولة في العالم ، يملك عليها شيخ يتشح بثوب ابيض ؛ دولة ليست اكبر من ولاية او محافظة صغيرة ، تستظل بكنيسة كبيرة ، ولا تشغل من المساحة اوسع مما يشغله حي في عاصمة كبيرة كباريس مثلاً .

هذه الدولة تقوم ابنيتها على مقبرة قديمة . فما ان تحفر في الارض قليلاً حتى تصطدم بدياميس عميقة واروقة طويلة ، كان الوثنيون ، وبعدهم المسيحيون الاولون ، يدفنون فيها موتاهم ؛ والى جانب المقبرة ، في طبقات الارض السفلى ، ملعبٌ روماني، كان نيرون يدفع فيه الى العذاب والموت شهداء الدين المسيحي الجديد ، وفي مقدمتهم اول رؤساء هذه الدولة : القديس مار بطرس ، فمات منكساً على صليب منذ تسعة عشر قرناً .

لحاضرة الڤاتيكان مخافر حدود ثلاثة ، يُعبر بها الى داخلها : الباب النحاسي الاصفر ، وقوس الاجراس ، وباب القديسة حنّة . وليس على الحدود موظفو جمارك . إلا انه يقوم مقامهم حاجز مزدوج : الجنود السويسريون والدرك البابوي ؛ فاولئك يحيّون بالحربة الاساقفة ومن يبدو لهم انه من سلك السفراء ، وهؤلاء يسيرون بالداخل الى مكتب جوازات السفر ، فيودع فيه بطاقة هويته ويصرح باسم من يقصد مواجهته . وبعد تحقيق هاتفي وجيز ، تدفع اليه وثيقة خاصة ويذهب ، مشياً على قدميه في الغالب ، في السبيل الذي يُنهج له ، ولا يغيب عن انظار الدركيين القائمين في الممرات والمنعطفات ، فيظل قيد مراقبتهم طوال مسافة سيره .

تحيط مدينة رومية بحاضرة الڤاتيكان من جهاتها الاربع . ولا يقتضي اكثر من ثلاثة ارباع الساعة لمن شاء ان يدور حولها من الخارج . وانها لنزهة ممتعة حذاء الاسوار القديمة . ومن روّادها ازواج من شبيبة لاهية عابثة ، يحيقون بدولة البابا حلقاتٍ من فتيان وفتيات يتبادلون احاديث الهوى العذري .

على ان من الصعب رسم حدود هذه الدولة بكل ضبط ، لان من ممتلكاتها ما هو خارج اراضيها في مدينة رومية وضواحيها ، وللبابا عليه سلطة تامة مطلقة ، وتربو مساحاته على مساحة حاضرة الڤاتيكان نفسها . على ان التبعة الڤاتيكانية

يفقدها اصحابها اذا لم يقطنوا ضمن حـــدود الدولة ، باستثناء الكرادلة والسفراء البابويين ، فانهم يحفظونها ولو سكنوا خارج الحاضرة .

٢ – البلاط الرسولي وكنيسة مار بطرس .

ان البلاط الرسولي ، وهو الفاتيكان بالذات ، مؤلف مما يقرب من ١٠,٠٠٠ قاعة ورواق ومنزل وغرفة ومستودع . وقد عدّوا فيه ١٢,٥٢٣ نافذة ، و ٩٩٧ سلماً ، ٣٠ منها خفيّة و ١٥ لولبيّة . وما عدا الجناح الخاص بالبابا وقاعات الحفلات ، عددٌ لا يحصى من المساكن العالقة ، كأعشاش العصافير ، في الحيطان وعلى السطوح وفي الابراج ، كما في سراديب هذه الابنية المتشابكة ، التي بدأ تشييدها منذ ستمائة سنة ولما ينتهِ . وسكان هذه المنازل كرادلة وكهنة ورهبان وراهبات ، فضلًا عن جماعة المستخدمين العلمانيين وعائلاتهم .

والى جانب البلاط الرسولي ، ترتفع اكبر كنيسة في العالم ، هي الكنيسة الملكية او الباسيلية Basilique ، المشيّدة على اسم القديس مار بطرس ، على مساحة تستأثر بقسم كبير من ارض الدولة الفاتيكانية . إلا ان بعض الزوار لا يرتاحون في الغالب الى ما يرون فيها من تحف غنية جداً ، ولا الى انفتاحها المفرط لنور النهار ، لانهم الفوا ما في الكتدرائيات الغوطية من ظـــلالٍ معتمة أدعى الى الخشوع الروحاني ،

فخالوه من مقتضيات المعابد على الاطلاق . بيد ان كنيسة مار بطرس من الجمال وتناسق الخطوط في الذروة .

طول الكنيسة ٢١١ متراً وعرضها ١٤٠ متراً ؛ ومن فوق مذبحها الكبير مظلة تدعى « الاعتراف » او « اعتراف مار بطرس »، تضاهي قصر اللوفر الباريسي في ارتفاعها . وفي رومية كنيسة صغيرة ظريفة ، هي سان كارلينو ، قد تحشر برمتها في ركن من الاركان الاربعة التي يرتكز عليها وسط الكنيسة .

في داخل الكنيسة ٧٧٧ عموداً و ٤٤ مذبحاً و ٣٩٥ تمثالاً . ولهذه التماثيل حجم جسيم : فالتاج الذي على رأس تمثال القديس اغوسطينوس يوازي قامة رجل عادي ، فكم يكون التمثال بالنسبة اليه . وعلى العكس تمثال مار بطرس ، فان حجمه طبيعي ؛ وهو التمثال الذي يبري المؤمنون بقبلاتهم قدميه النحاسيتين .

يقوم بخدمة الكنيسة العظيمة وتعهُّدها نقابة او جمعية عمّال تأسست في القرن السادس عشر ، يدعى اعضاؤها « سَمْبيِتْريني » اي « مار بطرسيين » ، وعددهم نحو سبعين ، يلبسون بزة خاصة ، وفي الغالب يتوارثون اعمالهم ابناً عن اب واباً عن جدّ ، يتمرنون عليها ويتدربون بها شيئاً فشيئاً منذ صباهم . وليست تقتصر هذه الاعمال على داخل الكنيسة ، بل تشمل بالاخص خارجها وحتى قبتها الشاهقة .

فهي بالحقيقة اشبه شيء باعمـــال بهلوانية ، يحرصون على الاحتفاظ بسرها المهني التقني . وبفضل هذا التدريب يستطيعون تسلّق قمة العواميد لتزيـــين الكنيسة استعداداً للحفلات الشائقة ، والتجول ، منكّسي الرأس ، على حواجز القبة من الداخل ليقفلوا نافذة ، او لينفضوا الغبار عن الكلمات المذهبة ، وكل حرفٍ منها كقامة الرجل علواً ، ويستعينون في اعمالهم بحبال يحتزمون بها او يتعلقون بها بعد ان يكونوا قد شدّوها الى رؤوس العواميد ، او الى تماثيل الملائكة الرخامية .

ولكن ما يزيد دهشة العالم اجمع واعجـــابه انما هو انارتهم مقدّم الكنيسة اي صدرها الخارجي . فيقضون نحو شهر لوضع خمسة آلاف مصباح والف مشعل في اماكنها . وهذه المشاعل كناية عن صحون معدنية واسعة ، عليهم ان يملأوها مقدار نحو ستة قنـــاطير من الشحم . ويستخدم « المار بطرسيون » عدة كيلومترات من حبال غليظة ليتسلقوا مقدّم الكنيسة على طوله ، حتى القبة والمصباح العظيم والكرة الكبيرة والصليب الذي يعلو البناء . وكثيراً ما يُضطرون الى ان يقفزوا في الفضاء ، وهم متعلقون بالحبال ، ليصلوا الى نقاطٍ معينة ، يضعون مشاعل فيها .

اما التنوير فيتمّ على مرحلتين : عند العشية تنار المشاعل الموضوعة على دوائر المقدم والقبة لتبيـــان دقتها ولطفها . ثم يتسلق رئيسهم بذاتـــه الصليب الذي يعلو الكنيسة ،

وتتبعه فرقته ، مؤذناً ببدء التنوير ؛ فيترجح آنئذ رقصا في الفضاء رجالٌ سود صغار ، تكاد تبصرهم العين في غيبوبة الشفق . وما هي الا بضع ثوانٍ فتدبّ النار بوقت واحد في كل المشاعل ، فينتشي صدر الكنيسة وقبتهـا حياة ، ويتحدّر اللهيب متموّجاً مضطرمـاً على العواميد ، ويتثنى ويتلوى كالحيات على الزوايا ، ويطرح ظـلاله على التماثيل الرخامية الكبيرة القائمة في اعلى المقدم .

ومن سنوات عديدة ، اخذت الكنيسة تنار بالكهرباء ، لاسباب اقتصادية من جهة ، وتوفراً على سلامة العمال من جهة اخرى . فالمبالغ التي كانت تُدفع الى الشركات لتـأمين حياة العمال « المار بطرسيين » ، كانت قد اصبحت جد فاحشة .

٣ ـ الكنيسة والدولة .

في حاضرة الفاتيكان نحو من ثلاثين ساحـة وشارعـاً وسبعين بناية ، وكنيستان (ما خلا مار بطرس) ، ورعية ، وجبل ترتفع فوقه صواري الاذاعة الفاتيكانية ، ومحطة سكة حديدية ، واربعة مكاتب للبريد ، ومحكمة وسجنان ، واربعة مراكز حربية ، واربـع نشرات دورية : الجريدة الرسمية باللاتينية :« اعمال الكرسي الرسولي » Acta Apostolicae Sedis ، تظهر عند الاقتضاء ؛ ـ الجريدة شبه الرسمية اليومية : « الراصد الرومـاني » Osservatore Romano ؛ ـ وجريدة اسبوعية :

« راصد الاحــــد » Osservatore della Domenica ؛ – ومجلة شهرية : « الكنيــة » Ecclesia ، وهذه جميعها بالطليانية .

يبلغ سكان حاضرة الفاتيكان نحواً من ١,٠٣١ شخصاً ، منهم ٧٥٠ رجلًا و ٢٨١ امرأة . عدد العائلات ١٥٣ ، والاطفال ٥٧ . وينتسب السكان باصلهم الى خمس عشرة جنسية . اللغة الرسمية هي الايطـــالية (ولغة الكرسي الرسولي هي اللاتينية) . دين الدولة هو المذهب الكثوليكي ، وعلمهـــا بلونين : ابيض واصفر ، ونشيدها من وضع الموسيقي الفرنسي غونو Gounaud (١٨١٨ – ١٨٩٣) . للسيارات الفاتيكانية صفائح علامتها SCV (خدمة حـــاضرة الفاتيكان ؟) . معظم السكان من العسكريين ، والبقية اغلبهم من الاكليريكيين . هذا وحاضرة الفـاتيكان هي غير الكرسي الرسولي . فهذه العبارة الاخيرة تدلّ على السلطة التي تدير الكنيسة وتسوسها.

ليست السيادة الزمنية من مقتضيات الكنيسة ، ولم يكن لها شيء منها في القرون المسيحية الاولى ، ومن سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩٢٩ ؛ وفي هذه السنة تنازلت الكنيسة نهائياً عن حقها بالاستيلاء على مدينة رومية برمتها ، مكتفية بحي الفاتيكان ، حيث كوّنت دولة زمنية أسمتها « حاضرة الفاتيكان » . على ان اعمال الكرسي الرسولي مستقلة تماماً عن حاضرة الفاتيكان . مثال ذلك ان حاضرة الفاتيكان عضو في بعض منظمات دولية ، كالاتحاد البريدي العام ؛ ولا شأن في

ذلك للكرسي الرسولي .

اما البابا فهو رئيس الكنيسة الكثوليكية ، وسيّد اي ملك حاضرة الفاتيكان منذ سنة ١٩٢٩ . على ان هذا اللقب لا يرد بين القابه إلا في الدرجة السادسة ، بعد اسقف رومية ، وبطريرك الغرب ، الخ ...

ان حاضرة الفاتيكان تسير ، بنوع ما ، على مبدإ فصل الكنيسة عن الدولة . فيقوم باعباء حكومتها موظفون فوّض اليهم سيّد الدولة سلطاته . على ان الدولة خلقت لاجل الكرسي الرسولي ، فتوليه ما يعوزه من ارض ولو ضئيلة ترمز الى استقلاله وسيادته . وعليه فلا سياسة خاصة بحاضرة الفاتيكان ، ولا تطور ذاتي ، ولا ثورة مستطاعة . فوجودها منبثق من ارادة البابا . والبابا ليس فقط ملكاً يتمتع بالسلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ انه كذلك صاحب الدولة ، وهي ملكه ، ولكنه يفوّض معظم سلطاته الزمنية الى لجنة كردينالية .

وفي الوقت الحاضر (سنة ١٩٥٤) ، قوام هذه اللجنة الكاردينالان كنالي Canali وبيتزرْدو Pizzardo ، والامير كارلو باتشلّي ابن أخي البابا ، والكونت بيترو انريكو جالياتزي Galeazzi . فهؤلاء يمارسون السلطة التنفيذية ، ويراقبون سير الدولة في ادق التفاصيل ، فلا تفوتهم شاردة ولا واردة مما يعود الى الشؤون المالية والاقتصادية والادارية والاميرية والعسكرية ؛ الى حد

انهم لا يجهلون شيئاً ، حتى ولادة طفل احد عمّال الافران ، او توقيف دركي تسلق السور وقفز خارجه ، او اضافة سارية جديدة الى سواري محطة الاذاعة .

ان الكردينال كنالي يقوم باعمـــال باهظة وسامية في الدواوين الكنسية ، فهو رئيس محكمة التوبة ، والمقدّم الاعلى لجمعية فرسان القبر المقدس ، الخ ... وهو الى ذلك اداريّ ثاقب النظر ، لا يستنكف غالباً عن ان يعنى بذاته بمراقبة توزيع الاعاشة في مخـازن الدولة من خبز وسكر ولحم وزيت وخمر .

والرجل الذي يحتلّ المقام الاول ، الى جانبه ، بين الموظفين غير الرسميين ، ليس اكليريكياً ؛ انه الكونت جاليـاتزي ، مهندس « دائرة املاك مار بطرس » ؛ وهو اداري كبير ، يتمتع بمنزلة خاصة حميمة لدى الحبر الاعظم .

ولهذا الكونت اخ ، هو طبيب البابا الخاص . على ان مهنته ، وفي هذا شيء من الغرابـــة ، طبيب عيون . فذات يوم ، كان الكردينال باتشلّي مارّاً في شارع سيستينا برومية ، فرفع نظره ، فرأى عيناً ضخمة تحدّق اليه من اعلى احدى البنايات كأنها تدعوه . ولم تك العين سوى لوحة دعاية للبروفسور جـالياتزي ، طبيب العيون الشهير . وكان الكردينال بحاجة الى تبديل نظارتيه ، فاسرع الخطى الى حيث العين الفاتنة ، واصبح منذئذٍ احد زبائن جاليـاتزي بدون

انقطاع .

ولم تمضِ ايام حتى اعتمر التاج المثلث الطبقات Tiare . ويوم انتخابه بالذات ، عند عودته من المعبد السيستي ، بعد القرعة الاخيرة النهائية ، عثرت رجله فوقع وجرحت ذراعه ، ولكنه لم يبال بالامر . وبعد ساعات قلائل ، نودي به حبراً اعظم ، باسم بيّوس ، الذي اختـــاره لنفسه ، فكان الثاني عشر بين الباباوات الذين دعوا بهذا الاسم . وفي غمرة انفعالاته العميقة في هذا النهار الطافح بالعظـــائم ، لم يفطن لجرحه ، إلا مساءً . ولما كان لا يعرف طبيباً غير جاليانزي ، ارسل فاستدعاه . ومنذئذٍ ، كلما اعتلّ بيوس الثاني عشر ، كان يدعى طبيب العيون لمعالجته . ولم يمض بضعة اشهر حتى لقب جاليانزي بطبيب البابا . وكان اخوه ، كما رأينا ، مهندس حاضرة الفاتيكان . وقد أهّلت الطبيب صفـــاته ومكّنته وظيفته من التقرب المستديم من الحبر الاعظم ، فنال حظوة عظمى لديه ، وأوتي من ذلك نفوذاً فريداً ، فكان صاحب الرأي السديد ، والامر المطاع ، والشفاعة المرجوّة . وشاء الكونت جاليانزي ان يجاري عصره فقام باسفار عديدة ، وخاصة الى الولايات المتحـــدة الاميركية حيث ربطته صداقة متينة بذاك الذي اصبح الكردينال سبلمن ، وكان الطبيب من جملة الذين اشاروا بترقيته ، فاستمع له .

٤ ـ الحكومة الفاتيكانية وتبعتها .

ان الاشخاص الخاضعين لولاية الحكومة البابوية جدّ سعداء : لا ضرائب مفروضة عليهم ، ولا بدل ايجار يطلب منهم عن محلات سكناهم ، لانهم لا يقيمون في الفاتيكان إلا اضطراراً لسبب وظيفتهم . وهم معفون من الخدمة العسكرية .

ثم ان الدولة تقدم اليهم ، باسعار جد بخسة ، الخبز والحليب والسكر والاقمشة ، في مخازن رسمية مرخص لها وحدها بالبيع . ويجدون ما يحتاجون اليه من العلاجات في صيدلية الدولة ، المعهود بها الى جمعية اخوة القديس يوحنا . ولا رسوم تدفع عن الكلاب . ولا يستوفي الجمرك ، مبدئياً ، من رسوم إلا عن البضائع الواردة من الخارج . وفي الغالب تتفق الدولة والمستوردين الخاضعين لها على مبلغ الرسوم ، بدون تطبيق التعرفة الرسمية .

اما دخل الدولة فمن بيع الطوابع البريدية (٢٨ مجموعة منذ سنة ١٩٢٩) التي تدرّ عليها مليوني لير في الشهر تقريباً (١٠ آلاف ليرة لبنانية تقريباً) . ويصعب جداً تحديد المبالغ التي يدفعها الغواة ثمن طوابع فريدة نادرة . وتربح الدولة شيئاً من بيع الدخان الاميركي والمشروبات الكحولية . ولكن هذا جميعه ليس بشيء بالنسبة الى ما يتوجب على الدولة من نفقات على الموظفين والجند والاشغال العامة، الخ ...

فالدولة الفاتيكانية في حالة عجز محتوم . ولكن لا ميزانية بصورة منظمة ولا تقديرات مسبقة للصرف . فالكرسي الرسولي يسدّ النقص ، بناء على بيانات ترفع اليه . وفي سجل ماليته بابٌ خاص بالدولة الزمنية .

(في حاضرة الفاتيكان ، ثلاث محاكم تنظر في الخلافات الناشئة بين الخاضعين لها : المحكمة البدائية داخل الاسوار ، ومحكمتا الاستئناف والتمييز في القصور البابوية في رومية . على ان الدعاوى جد قليلة لسببين : احدهما ان السكان يحترمون القانون والشرائع ، والآخر ان السلطات الفاتيكانية تؤثر تسليم المجرمين والمخالفين الى المحاكم الايطالية المدنية . وليست المحاكم الفاتيكانية صالحة للنظر في ما يقترف ضد الشرائع الكنسية ، مما يعود القضاء فيه الى المحاكم الدينية . كما ان هذه ، بالمقابلة ، لا تعنى بما كان من شأن القضاء الزمني الخاص بالمحاكم الفاتيكانية .

وبالطبع ، لا بد من مكان لسجن المحكوم عليهم ؛ فهناك حبسان يتألف كلٌ منهما من غرف مستوفية جميع اسباب الراحة ، ومجهزة بكل لوازم النظافة ومعدات الوقاية الصحية . ولكنهما غالباً ما يظلان فارغين . وقد حُوّلا الى مستودعات للمؤن ، في ايام الحرب الاخيرة)

★

من الدلائل الواضحة على سيادة الفاتيكان ، محطة السكة

الحديدية القائمة فيه . فهذه المحطـــة يدخلها بعض قطارات الشحن ، ولكنها انشئت خاصة كشهـــادة ناطقة باستقلال الدولة .

ولهذا يقوم فيها جسر فخم ، وتتصل خطوطها الحديدية، التي لا تزيد على بضعة امتار ، بالخطوط الايطالية . وعند الحاجة يسدل حاجز حديدي يفصل بين خطوط الدولتين . وللمحطة مدير بدون بزة رسمية ولا قبعة خاصة ، وقد أنعم عليه بلقب كافاليرو ، بالرغم من خـــلو المحطة من اي موظف او مستخدم آخر .

هذا ولا يملك البابا قطـــاراً خاصاً به ، ولا اسطولاً بحرياً او جوياً . ولكن دائرة سيارات الشحن والسيارات الشخصية واسعة جداً . ومن السيارات ما صنع لخدمة الحبر الاعظم بصورة خـــاصة ، فوضع فيه عرش محل المقاعد المألوفة . ولكن البابا يفضّل اتخاذ سيارة من الطراز العادي ، عندمـا يخرج من الفاتيكان .

اما الاشغال الصنـــاعية والمهنية فليست بذات شأن في الفاتيكان . على ان فيه مكانـــاً يضج بالمحركات والآلات : فهنـــاك معمل شهير للفسيفساء ، ومشغل لالبسة الجند ، ومطبعتان كبيرتان احداهما تحوي حروفاً من جميع لغات العالم ؛ والعمال فيها رهبان محتوم عليهم كتمان السرّ . وفي الواقع ، لم يُفشَ سرّ قط في تاريخ الكنيسة حتى الآن .

والعمال ، كالموظفين في دوائر الدولة وكالمستخدمين ، يقبضون رواتب ضئيلة . لكنهم يعتاضون بما يوزع عليهم من مؤن ، وعما يلقونه من اسعاف في تعاونية منشأة لخدمتهم ؛ ويرتاحون الى شبه ضمانة تجعلهم يثقون بانهم يقضون حياتهم في ظل مار بطرس ، بدون ان يُصرفوا من العمل ، وبمعزل عن الثورات والازمات التي تتوالى في الدول الاخرى فتبلبلها . وقد بلغت عناية الدولة البابوية بعمالها انها تحسم كل شهر مبلغاً زهيداً من رواتبهم ، ضمانة لنفقة دفنتهم. وعدا ذلك ، كلما توفي بابا ، توزع منحٌ على العمال المستخدمين لاعداد انتخاب البابا الجديد . فيحدث بعض المرات ، اذا شعر العمال بصعوبات في امر معيشتهم ، انهم يودّون : « لو يموت البابا ! »

ليس في الفاتيكان منظمات نقابية . وكان قد عنّ لبعضهم محاولة شيء من ذلك ، على اثر انتهاء الحرب الاخيرة ، وكانت شوارع رومية تعج بسيارات ملأى بشبان يلبسون القبعات الاستراخانية ، ويلوّحون باعلام حمراء ، مرددين بالطليانية نشيد الثورة الدولية . ولكن سرعان ما عادت المياه الى مجاريها ، بعد ان جلا هؤلاء الاغراب عن المدينة الخالدة ، وخفت صدى اناشيدهم . فكانت الغلبة للادارة البابوية الرشيدة بروحها الابوية ، وانسحب من الميدان بعض العمال المتحمسين .

ان حاضرة الفاتيكان لفخورة باطفائيتها ورجال اطفائيتها ، وهم من النخبة ، مركزهم احدى اجمل باحات الفاتيكان ، المعروفة بال « بلفيديره » Belvedere . يستخدمون سيارات الجيب ، ولديهم كل ما تقتضيه اطفائية عصرية مثالية . يطوفون مرتين كل يوم في قصر الفاتيكان ، على مدى اتساعه ، حاملين رزماً ضخمة من المفاتيح ، يدخلون بواسطتها جميع الامكنة .

وللاطفائية انعام خاص بها ، يدل على ما يتمتع به رجالها من تقدير ومحبة . وهو انهم ، متى تقدموا في السن ، يعهد اليهم بخدمة المصاعد الفاتيكانية ، وعددها ثلاثة . واقدمها يصل قاعات الاستقبال بجناح البابا الشخصي القائم فوقها . وهو معد لخدمة الحبر الاعظم دون سواه . انشيء سنة ١٨٥٠ . وكان محرك في البدء بجهاز آلي تسيّره بالايدي فرقة من الخدم الاشداء . وقد استخدم هذا الجهاز لآخر مرة سنة ١٩٠٣ ، اذ صعد فيه ادوار السابع ، ملك انكلترا ، لزيارة البابا لاون الثالث عشر .

وفي عهد بيوس الحادي عشر ، علّقت ، في غرفة المصعد ، صفيحة فضية حفرت عليها صورة القديس كريستُفل ، حارس المسافرين وشفيعهم .

الفصل الثاني

اعظم سلطة على الارض

١ – في البلاط الرسولي ، عند الصباح .

هوذا الحبر الاعظم قد انتهى من الاغتسال ولبس ثيابه . وهوذا النور ينبعث من نوافذ المسكن الخاص به في الطابق الثاني من قصر الڤاتيكان ، ولما تدق السابعة في الساعة الكبيرة. الطقس بارد ، والساحة الفسيحة ، المنبسطة امام كنيسة مار بطرس ، بين ذراعي رواق الاعمدة المحدق بها عن جانبيها ، خالية ، يغمرها الضباب الكثيف .

ترك البابا حجرة الحمّام ، حيث الموسى الكهربائية وسائر ما يلزم للاغتسال والنظافة ، وقد ارتدى ثوباً ابيض وضيعاً ، ثم اخذ بالذهاب والاياب في غرفة نومه ، مستسلماً الى التأمل . في هذه الغرفة سرير من خشب الجوز وكرسي ومركع وطاولة تراكمت عليها الاضبارات . السكوت مخيم تماماً . ولا يسمع ، من وقت الى آخر ، سوى وقع اقدام دركي بابوي .

وفي الردهة حسّون وكناران تتنقل طائرة ، وقد يحط هذا او ذاك واقفاً على كتف البابا . وقد يجرؤ

على ارسال صوت حادّ . ان هذه الطيور تصحب البـابا في الساعة الاولى من النهار . والحسّون مشدوه بمواء الموسى الكهربائية ، فما ان يسمعه حتى يُسرع فيتبع كل حركة يأتيها الحبر الاعظم .

ثم تبدأ حركة في المعبد الصغير الخاص بالبـابا . ويفتح البابا باب غرفته ، فيتقدم احد الحجاب ، بثوب اسود بنفسجي ، ويحني رأسه تحية واحتراماً . وفي المعبد راهبتان راكعتان تتلوان بالتجاوب المسبحة الوردية لاكرام السيدة العذراء مريم . فتنار الشموع امـام صورتها الموقرة . ويلبس الحبر الاعظم الحلة الحبرية ، القميص الطويـلة والبطرشيل والبدلة ، ويدنو من المذبح ، ويسم ذاته بشارة الصليب ، ويأخذ يتلو صلوات القداس ويقوم بطقوسه ، بصوت خافت وحركات مهيبة ، كما يفعل في هذه الساعة عينهـــا ، في آلاف الكنائس ، كهنة لا عدّ لهم .

بعد القداس وصلاة الشكران ، ينتقل البــــابا الى غرفة الطعام ، حيث يأكل وحـده ؛ فالتقليد يحول دون جلوس احد اياً كان الى المائدة البابوية . ويتنـاول فطوره طعاماً يسيراً بسيطاً ، بدون افراط وفقـاً لعــــادة البلدان المتوسطية . الا ان الافران البابوية كانت تعمل طوال الليل ، فاتت احدى الراهبات ، ولبثت وقتاً تقلب الارغفـــة الصغيرة حتى انتقت له منها الرغيف الخفيف المحمّس المذهب .

وينتهي البابا من فطوره ، شأن جميع الكهنة خدمة الرعايا في العالم بأسره ، في مثل هذه الساعة ؛ وعلى شاكلتهم ، يبدأ يفكّر في ما ينتظره من عملٍ وعناء في يومه .

وبعد ان يلقي نظرة خاطفة على بضع جرائد يومية : ايطالية وافرنسية وانكليزية والمانية واسبانية ، ينهض فيشكر ، ويتجه نحو الباب فيحييه الحرس السويسري ، القائمون في الرواق الخارجي الفسيح ، بان يخضعوا له بالجثو على ركبة واحدة . ويفتح باب المصعد خادم يرتدي ثوباً قرمزياً . فينحدر البابا به الى الطابق الثاني ، ويدخل مكتبته الشخصية ، فيأخذ التلفون الذي يصله مباشرة بمكتب وكيل وزارته ، المنسنيور مونتيني . ومن هذا الحين ، تنقضي الحياة الهانئة الوضيعة التي كان البابا ينعم بها في مسكنه الخاص ، منصرفاً الى التأمل والتفكير ، ويباشر السيد ، الذي تمتد ولايته على نحو خمسماية مليون نسمة ، الاضطلاع بمهام وظيفته السامية .

٢ – على الارض وفي السماء .

هذا الصباح ، لا يتسنى للبابا ان يبقى طويلاً وراء مكتب عمله . فعليه ان يقوم في مار بطرس باحتفال كبير ، به يعلن قداسة فتاة قروية ايطالية صغيرة ، قتلها احد الشهوانيين ، فقضت شهيدة الطهارة ، تدعى ماريا جورتّي Goretti . ولو اتسع له الوقت ليدنو من النافذة ، لشاهد ساحة مار بطرس الواسعة

الارجاء تعج وتموج بالناس كأنهم النمل . وكانت فرق من الدرك البابوي وحرس البلاط قد اتخذت مواقعها في اسفل فناء الكنيسة ؛ والطلبة الاكليريكيون يحاولون بشق النفس اختراق صفوف الجموع المتراصة . ومن الكنيسة ، يترامى الى الخارج صدى جلبة الجماهير المتألبة فيها .

هوذا مدير التشريفات يشق الباب ، ويرسلُ اشارة نحو البـــابا ، فينهض طوعاً ، ويعبر بقدم سريعة كعادته ممرات تماشي الفاتيكان الواسعة ، راداً تحية الحرس ببركة من يمينه . وكان اصحاب المقامات الكنسـية العالية بانتظـار قداسته في القاعات المحـــاذية للمعبد السيستي . في وسط سكون عميق ، كان يقطعه من وقت الى آخر تهامس الاحبار ، افرغت على البابا حلته الحبرية الفـاخرة ، فتوارى ثوبه الابيض الوضيع تحت اقمشة ثمينة من الحرير متموجة مطرزة بالقصب وموشاة بالذهب والفضة ، وسترت اليدان الناعمتان اللتان كسرتا رغيف الفطور من زمن قريب بقفازين من حرير ابيض ، لمع فوق احدهما خاتم ثمين .

وكان الموكب البـابوي قد انتظم امام المعبد السيستي ، واعد العرش المحمول Sedia Gestatoria ،وهو كناية عن كرسي مرتفع ، موضوع على نوع من محمل طويل ، مزدان بالذهب ومجلل بالمخمل ، يحمله اثنا عشر رجلاً . فصعد البابا الى هذا العرش المتحرك ، ومشى بـــه الحملة بقمصانهم القرمزية .

وينتهي البابا من فطوره ، شأن جميع الكهنة خدمة الرعايا في العالم بأسره ، في مثل هذه الساعة ؛ وعلى شاكلتهم ، يبدأ يفكّر في ما ينتظره من عملٍ وعناء في يومه .

وبعد ان يلقي نظرة خاطفة على بضع جرائد يومية : ايطالية وافرنسية وانكليزية والمانية واسبانية ، ينهض فيشكر ، ويتجه نحو الباب فيحييه الحرس السويسري ، القائمون في الرواق الخارجي الفسيح ، بان يخضعوا له بالجثو على ركبة واحدة . ويفتح باب المصعد خادم يرتدي ثوباً قرمزياً . فينحدر البابا به الى الطابق الثاني ، ويدخل مكتبه الشخصية ، فيأخذ التلفون الذي يصله مباشرة بمكتب وكيل وزارته ، المنسنيور مونتيني . ومن هذا الحين ، تنقضي الحياة الهانئة الوضيعة التي كان البابا ينعم بها في مسكنه الخاص ، منصرفاً الى التأمل والتفكير ، ويباشر السيد ، الذي تمتد ولايته على نحو خمسماية مليون نسمة ، الاضطلاع بمهام وظيفته السامية .

٢ – على الارض وفي السماء .

هذا الصباح ، لا يتسنى للبابا ان يبقى طويلاً وراء مكتب عمله . فعليه ان يقوم في مار بطرس باحتفال كبير ، به يعلن قداسة فتاة قروية ايطالية صغيرة ، قتلها احد الشهوانيين ، فقضت شهيدة الطهارة ، تدعى ماريا جورتّي Goretti . ولو اتسع له الوقت ليدنو من النافذة ، لشاهد ساحة مار بطرس الواسعة

الارجاء تعجّ وتموج بالناس كأنهم النمل . وكانت فرق من الدرك البابوي وحرس البلاط قد اتخذت مواقعها في اسفل فناء الكنيسة ؛ والطلبة الاكليريكيون يحاولون بشق النفس اختراق صفوف الجموع المتراصة . ومن الكنيسة ، يترامى الى الخارج صدى جلبة الجماهير المتألبة فيها .

هوذا مدير التشريفات يشق الباب ، ويرسلُ اشارة نحو البـــابا ، فينهض طوعاً ، ويعبر بقدم سريعة كعادته ممرات مماشي الفاتيكان الواسعة ، راداً تحية الحرس ببركة من يمينه . وكان اصحاب المقامات الكنسية العالية بانتظار قداسته في القاعات المحــاذية للمعبد السيستي . في وسط سكون عميق ، كان يقطعه من وقت الى آخر تهامس الاحبار ، افرغت على البابا حلته الحبرية الفاخرة ، فتوارى ثوبه الابيض الوضيع تحت اقمشة ثمينة من الحرير متموجة مطرزة بالقصب وموشاة بالذهب والفضة ، وسترت اليدان الناعمتان اللتان كسرتا رغيف الفطور من زمن قريب بقفازين من حرير ابيض ، لمع فوق احدهما خاتم ثمين .

وكان الموكب البـابوي قد انتظم امام المعبد السيستي ، واعد العرش المحمول Sedia Gestatoria ،وهو كناية عن كرسي مرتفع ، موضوع على نوع من محمل طويل ، مزدان بالذهب ومجلل بالمخمل ، يحمله اثنا عشر رجلًا . فصعد البابا الى هذا العرش المتحرك ، ومشى بـــه الحملة بقمصانهم القرمزية .

ساد السكون وتحرّك الموكب . ومن على العرش المتهزز على اكتاف الحملة ، شاهد البابا سلّم الكنيسة الملكي . وكان التاج المثلث الطبقات ، المرصّع بالحجارة الكريمة ، ثقيلاً على رأسه . وما ان دخل الكنيسة من الصحن الداخلي ، حتى دوّت فجأة الابواق الفضية فمزقت الاجواء . فجاوبت الجماهير بتصفيق حاد وهتاف اشبه بصياح المهوّسين . اما الحبر الاعظم فكان ثبت الجنان ، بعيداً عن كل انفعال خارجي ، تحت حلّته الثقيلة ، يطفو على الجماهير كأنهم البحر الزاخر ، تنشده وتهلل له في عظمات من ابهة ونور وتوسّل .

عندما يُقدم البابا على قداسة احد المؤمنين ، يمارس ملء سلطانه الذي يتجاوز به عالم المائتين الى ابعد منه بكثير . فبينا ينادي بالفتاة الطليانية الصغيرة قديسة ، انما يقوم بعمل ينبثق من حقه بالسيادة المطلقة على الكنيسة المجاهدة ، المؤلفة من ارواح غير منظورة . انه هذا الصباح ، في مار بطرس ، لفي الذروة من قدرته ، والاوج من عظمته .

فمن الآن فما بعد ، يحق للمؤمنين ان يرفعوا فوق المذابح صورة القروية الطليانية الطاهرة ، ويشعلوا الشموع ويحرقوا البخور امامها ، ويتوسلوا اليها بزياحات حافلة ان تشفع فيهم عند الله . فالبابا قد اعلن انه سبر غور حياة هذه الخليقة البشرية ، واذاع باحتفال ان القديسة الجديدة قد اختلطت

بصفوف المختارين في الفردوس .

على ان أعلان قديس او قديسة عمل قلما خلا منه سجل اعمال سائر الاحبار الاعظمين . وبيوس الثاني عشر شاء ان يتعداه فمارس سلطانه الروحي بنوع بعيد الدويّ ، نادر في تاريخ البابوية ، « فحدّد » عقيدة ايمانية ، اي نادى على الملأ ، في المدينة الخالدة والعالم اجمع ، بتعليم من قانون الايمان لا يستطيع المؤمن الكثوليكي بعد الآن ان يرفض الاعتراف به وقبوله ، وإلا بَطُلَ ان يكون من اعضاء الكنيسة ، وعدّته من الخوارج عليها اي هرطوقياً .

فسنة ١٩٥٠ ، لما حدّد البابا ، في وسط ساحة مار بطرس ، باحتفال اخّاذ بلغ غاية الابهة ، عقيدة انتقال العذراء مريم الى السماء ، انما كان بذلك يسود ويملك على الضمائر : فقد حدّد باسم الكنيسة ان جسد البتول مريم، عند موتها ،– وليس نفسها فقط – ، وُجد في السماء ، بنوع سرّي وحقيقي كل الحقيقة ، الى جانب ابنها يسوع المسيح ، وان هذا الجسد لم يتسرب اليه فساد الانحلال كاجساد سائر البشر المائتين .

فبعد اعلان هذه العقيدة الايمانية ، لم يعد في وسع احد ان يُنكر حقيقة التعليم الذي تلقنه الكنيسة ابناءها بهذا الصدد ، لان الحبر الاعظم انما هو معصوم من الغلط . فبعد الآن ، ليس هذا الامر ، ولن يكون حتى انتهاء الدهر ، في نطاق الامور الخاضعة لحرية اختيارنا ، ولا قابلاً

لاعادة النظر فيه . ان كنيسة المائتين ، الكنيسة المجاهدة ، والكنيسة المنتصرة ، مُلزمة بالخضوع لهذا الحكم الصادر عن الحبر الاعظم .

ان الشيخ الوضيع قد ساد وملك في السماء وعلى الارض معاً ، بضع دقائق .

فمن هو اذاً البابا ؟

الفصل الثالث

السلطـة البابوية

١ ـ الكنيسة على شكل مصغّر.

ان البابا ، وفقاً لعقيدتنا ، يمثل الله على الارض ، ونائب يسوع المسيح ، ورئيس الكنيسة المنظور . فبـاسم السيد المسيح يمكنـه ، في بعض ظروف حافلة ، ان يبسط ولايته على الاحياء وعلى الاموات ، وان يحدد عقائد ايمـانية للجماعة المسيحية العتيـدة والمقبلة . فالكنيسة جسم سرّي ، اعضاؤه موتى واحياء ومن سيلدون من هؤلاء . وهاكم قوامها على شكل مصغّر .

ان الله تعالى هو خالق الاشياء جميعها ؛ وابنه الوحيد تجسد وصار انساناً ، وهو المسيح ، ليخلص بآلامه وموته الجنس البشري . ويسوع المسيح اس الكنيسة وسيبقى الى الابد رأسها غير المنظور ؛ وقد جمع حوله رسلاً كان بطرس زعيمهم ، وكان الاساقفة خلفاءهم من بعد ؛ وبكلمة منه ، عيّن بطرس رئيساً للكنيسة بقوله له: « انت صخر (بطرس) ، وعلى هذا الصخر أبني بيعتي ....» ... « ارعَ خرافي » .

فبطرس اذاً هو البابا الاول . وكان قد اقام كرسيه في انطاكية ، فنقله بعدئذ الى رومية ، وجعلها عاصمة المملكة الجديدة الجامعة التي هي مملكة النفوس . وصار اسقف رومية . ومنذ استشهاده (حيث تقوم كنيسة مار بطرس الحالية) ، داوم اساقفة رومية ، الذين خلفوه بسلسلة غير منقطعة منذ الفي سنة تقريباً ، على المطالبة بحقهم في ادارة الكنيسة .

على ان رئاسة اسقف رومية كانت موضوع جدل ونزاع . وعلى مدى القرون ، رفض بعض الكنائس الاقرار بهذه الرئاسة ، فانفصل عن رومية : « الارثوذكسيون » في الكنيسة الشرقية ، ومحورهم بيزنطة وبعدئذٍ موسكو ، والانجيليون والبروتستنتيون من اتباع كلفن ولوتير وزينكل . وفي ايامنا ، تحاول الحكومات الشيوعية ، القائمة وراء الستار الحديدي ، احداث صدوع وشقاق في صفوف الكثوليكيين من مواطنيها ، لتفصلهم عن سلطة البابا .

ولكن الكنيسة الرومانية ، بالرغم من كل ذلك ، واصلت السير في سبيلها ، غير آبهة للاضطراب والقلاقل ؛ بل راحت وظلّت ، بدون ان تخفف شيئاً من وطأة نظامها الاداري الشديد الصارم ، تعمل بالحري على تعزيزه وتوطيده بدون انقطاع .

ان بطرس لا يزال على الدوام في رومية . وهو على

الـــدوام رئيس الرسل . واليوم اكثر من كل الايام ، لا مشاحة اصلًا في سلطته على الاساقفة والكهنة والمؤمنين الذين يبسط عليهم ولايته . فالكنيسة اوضحت ، مع الايام وشيئاً فشيئاً ، التعبير عن خصائص سلطتها . وقد عقد المئتان والثلاثة والستون بابا ، الذين تعاقبوا على كرسي بطرس ، الواحد تلو الآخر ، احلافاً ونقضوها مع السلطات الزمنية ، وخاضوا المعارك ضد الاباطرة وكثير من الملوك . ومنذ ثمانين سنة ، قبل احد هؤلاء الباباوات ، بيوس التاسع ، بانهزام الكنيسة على الصعيد الزمني ، فخسر رومية التي اصبحت منذئذٍ عاصمة الدولة الايطالية . ولكنّ هذا البابا نفسه حدّد العقيدة التي تثبت اسمى سلطة روحية للحبر الاعظم ، ألا وهي العصمة من الغلط .

٢ – البابا معصوم من الغلط .

ان البـابا ، في احوال جد نادرة وتحت شروط معينة ، لا يمكنه ان يغلط حين يحدد عقائد تلامس الايمان . فسلطته هي ، اذاً ، قبل كل شيء آخر ، سلطة تعليمية . فهو الذي يصون معتقد الكنيسة ويوضحه . وانه لأمر جوهري ، لان قدرة الكنيسة كامنة في ان معتقدها لا يمسّ . فلا زلة ولا عصيان ولا شيء من مثل ذلك يفوق بثقـــله التمرد على سلطان الكنيسة التعليمي . ولا خطيئة اثقل من خطيئة الهرطقة.

ولهذا فمن يجحد ذلك ، لا يمكنه ، فيما بعد ، ان يكون كثوليكياً . وها هي الشيوعية ، التي تحاول الظهور ككنيسة وتتخذ مسلك كنيسة، لا تخشى شيئاً « كالانحرافات» الفكرية.

ان البابا ، والحق يقال ، لا يحدث على الاطلاق شيئاً جديداً في المعتقد ، ولا يزيد عليه شيئاً . فالمعتقد محتوم مقرر في الوحي الالهي وفي التقليد الكنسي ؛ في الوحي ، من النصوص المقدسة في العهدين القديم والجديد ، في الاناجيل واعمال الرسل والرسائل والرؤيا ؛ وفي التقليد ، من مجمل الاقوال والكتابات التي هي بمثابة شرح لا ينتهي لهذا الوحي ، والتي يُعتبر آباء الكنيسة اخص مؤلفيها . فعندما يتكلم البابا ، كمعلّم معصوم من الغلط ، فانما هو يستفرد ويوضح ويفسر حقيقة محتواة في الوحي البدائي . وبهذا المعنى يقال : ان البابا « يحدّد » هذه الحقيقة « من على المنبر » . Ex Cathedra

في القرون السالفة ، كانت الكنيسة تدعو الاساقفة الى مجامع مسكونية اي عامة ، يبسطون فيها العقائد ويمحصونها ويدافعون عنها ، قبل ان « يحدد » البابا الصيغة النهائية للتعبير عنها . ولكن هذه المجامع اصبحت مع الزمن قليلة جداً . فواصل الباباوات توطيد سلطتهم المركزية ، حتى اصبحوا تدريجياً يعلنون وحدهم ، بدون مجامع ، عقائد الايمان .

على انهم لا يقومون بهذا الامر إلا بعد اجراء دروس مستفيضة بواسطة علماء اللاهوت ، وبعد استشارة الكنيسة باسرها . ففيما خص عقيدة انتقال العذراء ، التي تحدّدت سنة ١٩٥٠ ، كان بيوس التاسع قد كلّف ، قبل ذلك بسنوات مديدة ، عدداً وافراً من العلماء المتخصصين في الشؤون المريمية ، ان يصوغوا عبارة العقيدة على احسن وجه . ولم تكن البادرة من جانب البـــابا ، في هذا الامر كله ، بل من قبل بعض اللاهوتيين الذين التمسوا منه ذلك .

وقبل ان يعلن البابا العقيدة ويذيعها بصورة حافلة ، كان قد ارسل الى جميع اساقفة العالم ، ورؤساء الرهبانيات ، وفطاحل علماء اللاهوت ، لائحة مفصلة بسؤالات دقيقة ، في الموضوع ، يطلب اليهم الجواب عنها . فكان هذا نوعاً من الاستفتاء عبّرت به اكثرية ساحقة عن ايمانها بانتقال العذراء ، والتمست « تحديد » هذه الحقيقة .

فلم يُقدم البابا اذاً على هذا « التحديد » ، إلا بعد اتخاذ كل هذه الاحتياطات ، للاطلاع على ما يمكننا تسميته بالرأي العام المسيحي .

ان تحديد عقيدة انتقال العذراء فتح سبيلًا الى تقولات كثيرة ، واثار احياناً الدهشة وحتى الشك . والحال ان المسيحيين كانوا ، منذ القرون الاولى ، يكرمون بعبادة خاصة انتقال العذراء بالجسد الى السماء . وفي الشرق والغرب ،

قامت معابد عديدة على اسم انتقال مريم . والرسوم التي تمثل هذا الواقع السعيد لا عديد لها . وبالرغم من ذلك ، قد انتظر البابوات اكثر من الف وخمسمائة سنة قبل ان يحددوا انتقال العذراء كعقيدة من الايمان .

قبل بيوس الثاني عشر ، تعاقب على كرسي بطرس اربعة بابوات لم يعلنوا عقائد ايمانية ؛ ذلك ان البابوات لا يلجأون الا نادراً جداً الى انعام العصمة من الغلط . فبيوس التاسع اعلن عقيدتين : الحبل بريم من دون ان تلحق بها وصمة الخطيئة الاصلية سنة ١٨٥٤ ؛ وعصمة البابا من الغلط سنة ١٨٧٠ . وكان هذا البابا قد عقد المجمع الفاتيكاني ، وهو آخر مجمع مسكوني حتى الآن . فحالت احوال سياسية دون مواصلته ، ولا يزال مُوقَفاً الى اليوم .

ان العقائد الايمانية ، التي يجب الاعتراف بها تحت طائلة الوقوع في الهرطقة ، هي في الحقيقة قليلة جداً . ولكنها القاعدة التي يرتكز عليها مرتفعاً بناء تعاليم الكنيسة وعقائدها المتنوع الاجزاء .

٣ – يحق للبابوات ان يغلطوا .

ما من شيء يسر البابا بيوس الثاني عشر كاهداء معجم اليه . فانه من غواة جمع المعاجم . فاحدث الطبعات منها ، في جميع اللغات ، تملأ الرفوف من صدر مكتبته ، فيعود اليها ،

ويعارضها بعضاً ببعض . ويلذه ان يؤاخـــذ السفراء والاساقفـة الذين يتقن لغتهم بما قد يقعون فيه من اخطاء لغوية . وهو شغوف بتتبع النزاع القديم بـين البرتغـــاليين والبرازيليين في شأن المقطع الذي يجب رفع الصوت فيه من كل كلمة .

على ان بيوس الثاني عشر لا يكتفي بالتعمق في معرفة اصول اللغات التي يمارسها . فانه يدرس ما يلامس انشاءها ، ويواظب على مطالعة مؤلفات اقطابها ، ولاسيما الكلاسيكيين . ومن مستشاريه في اللغة الفرنسية ، صديقه القـديم المطران جورج َجرنت Grente ، عضو المجمع الادبي الفرنسي ، الذي رفعه الى مقام الكرادلة .

ان بيوس الثاني عشر يكبّ على العمل ، منصرفـاً الى اعداد الخطب التي يلقيهـــا ، او الرسالات التي يوجهها الى المؤمنين . فعلى مكتبه تتراكم المؤلفـــات العلمية . وحسب عادته يطرق المواضيع في صلبها . وعندما ينتهي من استقبال العلماء الآتين اليه من جميع البلدان ، لا يتوانى عن سؤالهم عما اذا كانوا ، كل في دائرة اختصاصه ، يوافقون على صحة معلوماته العلمية . وقد يستعين البابا احياناً بمستشارين في مـا يكتبه . ولكنه يضع هو بذاته التصاميم ويصوغ العبارة . وغالباً مـــا تستنجد المكتبة الفاتيكانية اصحاب المكتبات في كل الاقطـار ، ان يوافوها بما تقضي به حاجات اسنى

روّادها مقاماً ، واكثرهم على ارتيادها مداومة ، واشدهم في الطلب الحاحاً .

ولا يروق بيوس الثـاني عشر ان يكتب الا بريشة معدنية صغيرة ، مما كان يستعمله الطلبة قبل الحرب العالمية الاولى ، ويصعب الآن الحصول عليه . لهـذا يعتني بريشته بكل حرص . فبعد انتهائه من الكتابة بها ، يمسح الحبر عنها بخرقة صغيرة . وللبـابا خط دقيق واضح . وهو بذاته ينسخ الاوراق ، بعد اصلاح النص بخطـه ، بواسطة الآلة الكاتبة .

وللبابا ذاكرة خارقة ، من نوع الذاكرات التصويرية ، (الفتُغرافية) . فحسبه ان يقرأ بامعـان نصاً ما مرتين ليستظهره بدون صعوبة . وعندما يلقي خطبه ، يستعين بكل كلمة مزيدة على الهامش ، وبكل عبارة عارضة خطها قلمه المعدني ، وبكل ما يخرج عن مألوف ما ترسمه احرف الآلة الكاتبة ، كعلامات ترشد ذاكرته . وقد اسرّ يوماً الى احد المقربين اليه بقوله : عندما اخاطب جمهوراً غفيراً ، لا شيء يستطيع ان يلهيني او يشغلني : لا الضجة ولا الجلبة . فاني ارى بعين الذاكرة كل صفحة من صفحات خطابي . فالخطاب مرسومٌ كصورة شمسية في داخلي ؛ فليس لي الا ان اقرأه .

ويعتبر البابا من مقتضيات واجبه الاولى ان يستقبل جميع

الذين يلتمسون مواجهته ، وان يُدلي برأيه كرئيس الكنيسة في جميع المواضيع ، حتى ما كان منها دنيوياً بحتاً .

ولما وطّد رجال بطانته العزم على نشر خطبه في مجلدات على حدة ، لم يفتْه ان يسأل سامعيه عن الاخطاء التقنية التي تكون قد وقعت فيها ، قبل ان يُوصل النصّ النهائي الى الطبع .

ان بيوس الثاني عشر من الخطباء المكثرين . فقد يصدف ان يلقي في يوم واحد اكثر من خطاب ، وفي احدى اللغات السبع التي يتقنها . فسواء خاطب اطباء الاسنان او القابلات ، وعلماء الفلك او غواة راكبي الدراجات ، فانه يتجاوز النصائح العامة الى التصريح بخاصّات مهن سامعيه وتعداد فوائدها . فيعبر عما يبدو له في مواضيع جد متنوعة : الرياضة ومنافعها واخطارها ، العناية بالاطفال الصغار ، وتحديد النسل ، وعدة تفاصيل من الحياة الزوجية ، وآخر ما وصل اليه العلم عن النور او عن طب الاسنان ، وشركات التأمين ، والوجودية ، والصحافة ، والتلفزة ، والسياحة ، والمداواة بالانسجة الحية ، وامراض المعدة ، والطيران المدني ...

وما كان البابوات يقومون بمثل هذا النشاط ، الذي يبديه بيوس الثاني عشر في درس شؤون الساعة ، حتى القضايا الفكرية الرائجة . ولكنهم كانوا يحددون موقفهم دائماً وبصورة رسمية من المعضلات العظمى التي كانت تشغل البشرية

في ايامهم . وعلى امتناعهم عن التدخـل في الامور الزمنية الصِرف ، فكانوا لا يألون جهــــداً في المطالبة بحقهم في اسـداء النصح الى المؤمنين وفي توجيههم في كل ما يلامس العقيدة او الآداب ؛ وهذا يعني عمليــــاً كل مناحي الحياة .

وخلا ما ذكرنا عن تحديد العقائد الايمانية ، وذلك امر نادرٌ جداً ، فللاحبار الاعظمين طرق اخرى لاعلان تعالـيم الكنيسـة . منها ما يدعى بـ « الرسائل العامة « Encycliques ، وهي من الاهمية بعد التحديدات المذكورة ، وبها يخاطب البابا جميع المؤمنين باللغة اللاتينية ، ما عـــدا ظروفاً خاصة يؤثر ان يتخذ فيهـا لغة الشعب الذي يوجّه اليه الرسالة . من ذلك ان بيوس الحادي عشر كتب بالالمانية رسالته في رذل المذهب النازيّ . ومنهـا البراءات Brefs , Bulles ، وهي رسائل لا تعنى بالامور العـامة كالسابقة . ومنها الخطب الموجّهة ، كما يقـــال ، الى « رومية والعالم اجمع » : Urbi et Orbi . ومنها ما يلقونه ، وفقــاً للتقاليد ، في مناسبة استقبالهم جماهير الزوار الذين يحجون الى رومــة من كل الآفاق والاقطار .

كثيرون هم المؤمنون ، والكثوليكيون منهم ، الذين يستغربون بعض مواقف رئيس الكنيسة ، وقد يقعون في العثار بسببها . سبقنا فاشرنا الى ان البابا ، في مثل هذه المواقف ، ليس

معصوماً من الغلط . فالكثوليكي الذي لا تروقه بعض آراء وافكار يبديها البابا في خطبه او رسائله ، لا يسقط بسبب ذلك في الهرطقة . وقد يحدث ان احدى المحاكم الرومانية تخطّىء البابا (فقد روى الاب جوليان ، رئيس محكمة الروتا، [وقد اصبح كردينالاً سنة ١٩٥٨] ، ان هذه المحكمة اصدرت حكماً بتاريخ ١٥ اذار سنة ١٩٠٩ ، به تثبت ان قراراً شفوياً ، اتخذه البابا بيوس العاشر ، لا فاعلية له البتة ضد حق مكتسب لم يأت المستغيث على ذكره).

من المباح لكل مومن ان يجادل وينازع في بعض توكيدات صادرة عن البابا ، وبالاحرى عن الاساقفة [والبطاركة] ، في شؤون سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وعلمية او فنية ، لانه باستثناء التحديدات الايمانية باسم الكنيسة ، تقع اعمال الباباوات واقوالهم في نطاق الحياة العادية . فلا يمكننا ان نقدرها حق قدرها الا وفقاً للظروف التاريخية . فضمير المؤمن غير مُلزم باعتناقها . فالباباوات انفسهم ، في الامور الواقعة في حيز النسبيات ، غير معصومين من الغلط ؛ بل « يحقُّ لهم ان يغلطوا » .

٤ – سلطة البابا الادارية .

... ولكن علينا توضيح معنى هذه العبارة : « غير مُلزم باعتناقها » ، لان بين اعتناقنا العقائد الايمانية التي

يحدّدها البابا معصوماً فيها من الغلط ، وموقفنا من بعض آراء وافكار يبديها في المظاهر الاخرى من نشاطه ، فرقاً يحتم علينا تمييز الواحد من الآخر . فالعقائد هي العناصر الاساسية في تعليم الكنيسة ، وبها تتعلق الآداب العملية . فان هذه الآداب لا قوام لها بذاتها ، ولكنها تنتج ، بطريقة منطقية ، عن الحقائق الايمانية التي تفرضها على اعمال البشر الذين يعترفون بهذه الحقائق .

فالبابا ، بالنسبة الى الكثوليكيين ، ليس حافظ العقيدة المعصوم من الغلط فحسب ، بل هو كذلك رئيس الكنيسة وصاحب السلطة الادارية . فهو ينعم ، كنائب المسيح ، بسلطة مطلقة ومباشرة . وكل السلطات المتطورة في الكنيسة متأصلة فيه ومتسلسلة منه . فيستطيع دائماً ان ينحّي اصحابها ويحل محلّهم ويحكم بدلهم بملء حقّه . انه الاول بين الرسل . وقد خُوّل سلطان التشريع الاعلى .

فعلى المؤمنين جميعاً ، علمانيين واكليريكيين ، ان يقرّوا بسلطة البابا هذه بدرجاتها المتفاوتة . فالذين يرفضون الطاعة له هم « المنشقّون » المنفصلون عن الكنيسة الخارجون عليها . وذنبهم ، في نظر الكنيسة ، اخفُ جدّا من اثم الهراطقة . فهؤلاء انما ينكرون الاسس التي تقوم عليها الكنيسة ، وهي حرمة عقيدتها التي لا يجب ان تمسّ .

وعليه ، فالبروتسطنتيون ، الذين طعنوا المعتقد الكثوليكي

في الصميم ، هم « هراطقة » ؛ بينما « الارثوذكسيون » من اليونان والروس وما اليهم ، هم منشقون (او كانوا على الاقل ، عند انفصالهم عنها ، منشقين) ، لانهم ، بالرغم من رفض الطاعة للحبر الاعظم ، حفظوا الايمان المستقيم وابقوا على الاسرار المقدسة وظلوا يقبلونها .

وهاكم مثلاً معيناً : اذا عصى كاهن لاتيني امراً صادراً عن البابا او خرق شريعة التبتل ، او تصلب برأيه في شؤون سياسية او اجتماعية ، بالرغم من نهي جازم صادر عن رومية ، فانه يصبح هرطوقياً . ولكن مهما اثارت هذه القضية من ضجة او بلغت من فضيحة ، فانها تبقى ، في نظر الكنيسة ، اخفّ جداً من قضية معلم عادي مجهول ، في احدى المدارس الاكليرصية النائية ، يعبث بتعاليم الكنيسة ويطعن عليها .

ان سلطة البابا الادارية ، بالنسبة الى العلمانيين ، تقوم بجوهرها بتفسير العقيدة بكل كلمة تخرج من فمه . فبعض الباباوات ، مثل بيوس الثاني عشر ، قد اتخذوا ، وفقاً لمزاجهم ، مواقف جريئة ، بدون توانٍ ، من جميع المعضلات التي تصطدم بها البشرية . والبعض الآخر ، مثل بيوس العاشر ، خرجوا نادراً جداً عن الصعيد الروحي . وهذه المواقف الحبرية تتفاوت وتزيد اهميتها بتفاوت توجيهها الى العالم اجمع او الى فئات معينة . فكلمات وجيزة يلقيها البابا

على فرقة من الكشاف البلجيكي ، لا يحتم علينا القبول بها كرسالة عامة ، كما لا يخفى . فهذه تبسط نقطة من التعليم المسيحي بصورة جد حافلة ، فلا يمكن كثوليكياً - علمانياً كان او اكليريكياً - ان يرفضها بسهولة ، بدون ان يتعرض لخطر الوقوع في عداد « المنشقين ».

على ان هذا لا يعني ان عليه ان يعتنق هذا التعليم بضميره ، وان يعتبره جزءاً اجبارياً من قانون الايمان . فيمكنه ان لا يقبل به الا من حيث ارتباطه بسلطة رئيس الكنيسة الادارية . ان الرسائل العامة تستوحى عامة من المعضلات اليومية . فمن الطبيعي ان تشيخ مع هذه المعضلات . من ذلك ان لاون الثالث عشر ، سنة ١٨٩٣ ، نشر رسالة عامة رنانة ، جعلته في الطليعة والمقدمة من المنادين بالتجديد الاجتماعي ، فاثارت آنئذ العثار في صفوف المسيحيين المحافظين المستقيمي الرأي . ولكن الحياة ، منذ ذاك الوقت ، تقدمت والاحوال تبدلت . فصدرت رسائل عامة اخرى تبسطت في مواضيع المعضلات نفسها ، واوضحت حالياً فكرة الكنيسة فيها .

وهاكم مثلاً آخر : ان بيوس الثاني عشر عبّر ، بخطاب شهير ، عن فكرته في شأن تحديد النسل ، فاظهر كل حذر وفطنة ودقة عميقة ، لان تعليم الكنيسة في شأن هذه القضية الادبية العلمية ، لا يزال في دور التوضيح والتطوير .

على ان البابا يستعين ، في مهمته هذه القائمة بنصب معالم الفكرة الكثوليكية ، بدائرة خاصة ، على عاتقها صون العقيدة والآداب ، تدعى المجمع المقدس او السنتقيش Saint Office . وعن هذا المجمع تصدر قرارات توضح بصورة حافلة تعليم الكنيسة او ترذل وتحرم بعض مذاهب ونظريات . فعلى العلمانيين الرضوخ لهذه المقررات بمقتضى ارتباطهم بالسلطة الكنسية . ولكنهم يمكنهم ان يُخضعوها لمحكمة ضميرهم ، ويجوز لهم انتقاد صوابها . اما الكلمة الاخيرة في تفسير المعتقد ، فتعود الى السلطات الكنسية بدرجاتها والى البابا .

الفصل الرابع

شركاء البابا في السلطة

١ – مراتب السلطة الكنسية .

ان بين البابا واهل الكنيسة وثاقاً يشدهم اليه اكثر من اهل العالم . فانهم مثل الجنود الخاضعين لنظام لا يقبل الجدل . وكان هذا الجيش ، الذي لا ينخرط فيه سوى متطوعين ، بسيط جداً . فانه مؤلف من ثلاث درجات : الكهنة ، والاساقفة (ومنهم المطارنة والبطاركة) ، والبابا . وضمن هذا النطاق ، كل واحد من المؤمنين عضو طبيعي في وحدة ادارية اولى هي الرعية ؛ والرعية احدى الوحدات الاساسية التي تتألف منها الابرشية ؛ وهذه بدورها مرتبطة برومية

وهكذا تتخذ الكنيسة المؤمن على عاتقها ، من المهد الى اللحد . فالكاهن يقبله في الكنيسة بايلائه سرّ المعمودية ، ويلقنه التعاليم المسيحية ، ويُشركه في الاسرار المقدسة ، ويؤاسيه ويشدده في امراضه ومحنه ، ويزوّده جسد المسيح عند ساعة موته ، ويبارك قبره . على ان المؤمن يظلُّ ،

حتى بعد الموت ، عضو الكنيسة ، لا الكنيسة « المجاهدة »
على هذه الارض ، بل الكنيسة « المتألمة » في المطهر ،
و « المنتصرة » في الفردوس . ولهذا الجسم السرّي ، بجميع
اعضائه من احياء واموات ، رأس واحدٌ هو يسوع
المسيح ، مؤسس الكنيسة .

ان الكنيسة المجاهدة جماعة منظورة يسوسها البابا ، نائب
المسيح على الارض ؛ فزمام الامور برمتها في يد رومية .
الكاهن مسؤول تجاه اسقفه ، والاسقف تجاه الحبر الاعظم .
واما الرهبان والراهبات من اية جمعية كانوا ، فانهم
مرتبطون برومية بطريقة مختلفة ، ولكن حقيقية ؛ وبعضهم
مستثنون من سلطة الاساقفة ، وليس رؤساؤهم مسؤولين
الا تجاه البابا مباشرة . اما في بلدان الرسالات ، وحيث يكثر
الاضطهاد الديني ، فنظام السلطة الكنسية يختلف عما ذكرنا .
فالمؤمنون هناك يتعلقون بمجمع « نشر الايمان » Propagande ،
او « مجمع الكنيسة الشرقية » (المنوط به على الاخص امر
معظم الكثوليكيين فيما وراء الستار الحديدي) .

على ان التدابير المتأخرة ، التي اتخذتها السلطة الرومانية ،
تحتم بان يكون هيكل الابرشية ، اقله في الغرب ، صورة
مصغّرة عن الدواوين الفاتيكانية . وهذا يولي الكنيسة جمعاء
التئاماً محكم الاجزاء من جهة ، ويحقق المركزية التي تُبذل
الجهود في سبيلها من زمن ليس بالقريب من جهة اخرى .

٢ ـ السلطة الكنسية والحرية .

ومـــا ذكرناه ليس سوى رُبَط تشد الافراد الى الكنيسة الكثوليكية بوصفها جمــاعة منظورة . على ان الكنيسة ، فوق ذلك ، جماعة ، هيئة ، اوسع واعمق ، روحية صرف . وهذا ما تعنيه عبــارة « نفس الكنيسة » (انظر الفصل الاخير من الكتاب). وهذه الجماعة السامية ، لا سبيل الى ولوجها إلا بالانتماء الشخصي وبالعزم الاختياري . فالنظام الكنسي المفروض على كل مؤمن لا ينفي الحرية الشخصية ، بل يقويهــا . فالمبدأ الادبي الاساسي في تعليم الكنيسة هو انه على كل فرد ان يعمل دائماً وفقاً لضميره وبملء حريته . والسلطة الكنسية لا قيمة لها إلا اذا اقترن الخضوع لهـــا بالحرية . فمن جملة العقائد الكثوليكية ان الانسان يتمتع بحرية جوهرية ، ليس تجاه سائر البشر فحسب ، بل تجاه الله نفسه . وبهذا يقوم الفرق بين الكثلكة والبروتسطنتية اللوثرية ، مثلاً ، التي تعلم بان للنعمة الالهية القدرة والغلبة على الحرية .

قد يحدث في الحياة اليومية ان بعض الكهنة ، ولاسيما المنصرفون الى تربية النشء ، لا يتداركون خطر الوقوع في فرض سلطتهم الروحية . فانقياد نفس طريئة او ضعيفة « لمرشد » او لقاضٍ روحي ، امر دقيقٌ جداً ، يجب تعاطيه بكثير من الحــذر والدراية ، وبنفس مروّضــة على الانضباط الداخلي الصارم ، لتستطيع ان تقود بدون ضلال

ولا تعف . فاذا فُقِد ذلك ، خشي « وسم » حياةٍ ، على طول مداها ، بتربيةٍ دينية مفروضة ، عبثت بتلك الحياة وشوّهتها . وفي هذه الحال وامثالها ، اذا رفع احد الامر الى الحبر الاعظم ، بوصفه القاضي الاعلى ، كان البابا نصيره ؛ فانه المحامي عن حرية النفس البشرية ، هذه الحرية الجوهرية التي تغلب على كل عسفٍ من اية جهة اتى ، حتى السلطات الكنسية العليا ؛ فشريعة الضمير ، في عرف اللاهوت الكثوليكي ، هي الاعلى والاسمى .

نجد مثالاً من ذلك في الزواج والكهنوت .

تدافع الكنيسة بكل ضراوة عن وثاق الزواج ، من حيث انه عقد لا يُفك ولا يُفسخ . ولكن اذا ثبت ، لدى محكمة الروتا ، او محاكم اخرى قانونية ، ان احد الزوجين لم يكن يتمتع بالحرية التامة عندما ارتبط بسر الزواج ، بل أُوقع عليه قسر وضغط فحُرِم تقرير عزمه بنفسه ، فرومية لا تتردد في اعلان زواجه باطلًا غير شرعي .

كذلك اذا استطاع كاهن ان يبرهن على انه ضغط عليه لقبول درجة الكهنوت ، بدون ان يكون الله قد دعاه اليها ، فيمكنه استعادة حريته . على انه لا يبرح كاهناً ، لانه قبل بصورة قانونية سراً لا يمحى وسمه[1] . ولكن يرخص

[1] اذا ثبت انه تقدم الى قبول درجة الكهنوت مكرهاً بدون

له في ان يعود الى حالة اهل العالم ، ويعقد زواجاً ، اذا شاء ، بدون ان يصبح بسبب ذلك مفصولاً عن الكنيسة .

٣ – السلطة الاسقفية .

كنت ممسكاً بكلتا يديّ بمؤخرة هذه القطر الكهربائية المكتظة بالركاب والمجددة في السير عبر شوارع رومية . وكان الى جانبي اكليريكي طاعن في السن ، يترجح كلما وصل القطار الى احد المنعطفات الكثيرة في الاسواق الضيقة ، حيث يزدحم معاً الاولاد والكلاب وعجلات باعة البقول والثمار . فحضر الجابي يطلب بدل تذكرة الركوب ، فاصبحنا كلانا في حالة اشد ارتباكاً وخطراً . فاستطاع الكاهن المسنّ ، بكل جهدٍ ، نزع قفازه الاسود المقروض بالعثّ ، فلمع في اصبعه خاتمه يزينه حجر كريم . فاذا صاحبي اسقف يسارع الى الفاتيكان لمقابلة البابا . وكنت اظنه خادم رعية قروية .

ولم يكن رفيقي الاسقف الوحيد في القطار . وقد شاهدت ، ونحن سائرون ، اسقفين آخرين على سماطٍ في مطعم « الفريدو » ، ملك المعكرونة . وفي مطار «شمبينو» قرب

ارادته ، فانه لم يقبل سر الكهنوت ، ولا بالاحرى وسمه ؛ فالرسامة اذاً باطلة . – المترجم .

رومية ، لمحت مراراً اكثر من اسقف بلباس كنسي مدني معاً Clergyman ، وخاتمه يشع في شمس الريف الروماني .

ان رومية تعج بالاساقفة ؛ إلا انهم يفقدون في المدينة الخالدة مسحة الطلاوة والجلال التي يتحلون بها في عواصم ابرشياتهم . وقد ألِف الرومانيون رؤيتهم بل ملّوها ، وهم لا يستنكفون عن ان يزحموهم ويدفعوهم بالاكتاف والاجناب . ويحل الاساقفة ضيوفاً في الغالب ، بسبب ضآلة ثروتهم ، على اصدقاء او معارف من الرهبان في الاديرة ضمن المدينة او في ضواحيها ، او في احدى المدارس . واما القادمون من بلدان غنية ، فيجعلون مسكنهم في نزل مينرفا الذي يخصه التقليد بالاكليريكيين ، ويختار الكردينال اسبلمن ، رئيس اساقفة نيويورك ، النزل الكبير (جراند اوتيل) ، وهو من روّاده الاوفياء ، وفيه يعقد مؤتمراته الصحفية .

ولكن مهما كان الاساقفة فقراء ووضعاء ، احياناً ، فانهم « اخوة البابا » وعلى خطّ مستقيم خلفاء الرسل ، مؤسّسي الكنيسة الاول . نعم ان البابا ، الجالس على كرسي رومية المدينة الخالدة ، خليفة مار بطرس ، يقبض بيده على ازمّة ملء السلطة الكنسية ، غير أن الاساقفة ، من اوجهٍ شتى ، هم اقرانه وانداده ، وسلطتهم في ابرشياتهم ، من بعض مناحيها ، مطلقة . قال الاسقف جرّي Guerry : « باستثناء الولاية التامة والعليا ، التي يمارسها الحبر الاعظم

في جانب الكنيسة جمعاء ، فالكنيسة الخاصة ، اي الابرشية ، تتمتع ، بواسطة اسقفها وفيه ، بسر المسيح كاملاً وبجميع المواهب والخيور الروحية التي تتمتع بها الكنيسة الجامعة » .

وقد اقتضى تنظيم السلطة الكنسية نحو الفي سنة . ومع هذا ، لا تزال قضية علاقات الاساقفة بالبابا ، وهي جد دقيقة ، غير مبتوتة في الواقع نهائياً حتى الآن . لا مجال للشك في ما خصّ التحديدات المعصومة من الغلط ، فانها من حق البابا وحده . ولكن السلطتين ، في ما يعود الى الادارة ، تسيران جنباً الى جنب بكل دراية ، وقد تشتبك الواحدة بالاخرى في بعض الميادين .

ولسائلٍ : لماذا تعمل الحكومات الشيوعية بضراوةٍ على مقاومة الاساقفة ؟ فالجواب : ان بقاء الكنيسة غير مستطاع الا على ايدي الاساقفة . فقوة الكثلكة كامنة بنوع خاص في « التسلسل الرسولي » . فالاسقف الفرنسي ، السيد دوبّون ، والاسقف الصيني السيد وُو بّاك شو ، كلاهما ، على حدّ سواء وعلى خط مستقيم ، من خلفاء الرسل . وهذا « التسلسل » ، في عرف الكنيسة ، لم ينقطع ولم يبطل قط ، بل دام ويدوم بدون انقطاع . فالصيادون الجليليون ، تلاميذ يسوع ، عينوا خلفاءهم بوضع ايديهم عليهم . وقد انتقلت هذه الحركة الطقسية من جيل الى جيل ، فافضت الى الاساقفة الحاليين الذين تعود اليهم

رسامة الكهنة . فلا كهنة بدون اساقفة ، ولا كنيسة بدون اساقفة . ولهذا تلجأ حكومات ما وراء الستار الحديدي الى كل الوسائل لفصل بعض الاساقفة عن كرسي رومية ، فيتسنى لها عندئذٍ رسامة كهنة بصورة شرعية صحيحة في نظر رومية نفسها كما في نظر المؤمنين . غير انهم لقليلون جداً الاساقفة الذين يجحدون امهم الكنيسة . فرومية قلما اخطأت المرمى في انتقاء رؤساء الابرشيات . فحبطت مساعي الحكومات الشيوعية ، في كل مكان على التقريب ، لاحداث كنائس كثوليكية منشقة .

٤ – وزارة الداخلية .

كيف يستطيع البابا ، من مركز رئاسته العليا وقيادته العامة في الفاتيكان ، ضمانة اتصاله بالاساقفة ، وممارسته مراقبتهم عند الاقتضاء ؟ انه يقوم بذلك بواسطة مجمع خاص ، هو كناية عن وزارة الداخلية في الكنيسة ، يدعى المجمع اي مجمع الاساقفة Consistoriale ، ومهمته السهر المتواصل على سير الاحوال في الابرشيات القائمة في البلدان الغربية (ويعود ذلك في الشرق الى مجمع الكنيسة الشرقية) .

ويتمّ هذا المجمع مهمّته على وجهين : فالاساقفة يرفعون اليه ، كل خمس سنوات ، تقريراً اضافياً ، به يجيبون عن

اسئلة معينـــة ؛ ويحضرون الى روميـــة ليقوموا بما يسمى زيارة « الاعتاب الرسولية » . ولا يعفون من هـذه الزيارة للبابـا ولوزير داخليته الا بأذنٍ خاص لا يُعطـَونه الا بصورة استثنائية . وأمّـا التقارير فترفع وفقاً لنهج مواعيد معين وثابت ، بالتناوب عـلى هذا الشكل بين اساقفة العالم اجمع . السنة الاولى : ايطاليــا ، كورسيكا ، سردينيا ، صقلّية ، مالطة ؛ السنة الثانية : اسبانيا ، البرتغال ، فرنسا ، بلجيكا ، هولندا ، انكلترا ، اسكتلندا ، إرلندا ؛ السنة الثـــالثة : سائر البلدان الاوروبية ؛ السنة الرابعة : اميركا الشمالية والجنوبية ؛ السنة الخامسة : افريقيـــا ، آسيا ، استراليا .

وتشـمل الاسئـلة على شؤون عمومية : اسم الاسقف ، وعمره ، وموطنه الاصلي ، وعنوانه وتاريخ تثقيفه ؛ مختصر تاريخ الابرشية ، ومساحتها ، ومناخها ، ولغتها ، وعدد سكانها وعدد الكثوليكيين فيهـــا ، وعدد اتباع الشيع المنشقة عنها ، الخ ...

وعلى شؤون زمنية : الشريعة المدنية في شأن الارزاق الكنسية ؛ — موارد معيشة الاكليرس ؛ — مجلس ادارة الابرشية : من هم اعضاؤه وهل يستنير الاسقف بآرائهم ؛ — هل يعمل بالقوانين الكنسية فيما يعود الى ضبط الدخل والصرف ؛ — التقادم والصواني وحسنـــات القداديس ؛ —

بيان بالاموال المنقولة والثابتة لكل من الاشخاص المعنويين ؛ – الوسائل للحؤول دون ضياعها او نقصانها ، عند تغيير خوري الرعية او ايّ وكيل آخر .

وعلى شؤون دينية وكنسية : ضلالات وخرافات منتشرة في الابرشية ، حتى بين الاكليرس ؛ – حرية العبادة وموقف السلطة المدنية والعناصر المناوئة للاكليرس منها ؛ – الاسقف وموارد معيشته من الدولة او من بنايات الوقف ، وهل هي كافية ؛ – الديون وكيفية ايفائها ؛ – حالة الكرسي الاسقفي والاشخاص الساكنين فيه بالتفصيل ؛ – اقامة الاسقف في الابرشية ؛ – الوعظ ، الرسالة الرعوية ، القيام بحفلات حبرية ، زيارة الابرشية ، ايلاء سرّ التثبيت ؛ – ما هي علاقاته بالسلطات المدنية ؛ – الديوان الاسقفي ومكاتبه ومراكزه وموارده المالية ؛ – لائحة كاملة بالموظفين ؛ – النائب العام وصفاته واعماله ؛ – المدرسة الاكليرصية وحالتها العلمية والادبية ؛ – الطلبة وتهذيبهم وفق الروح الاكليرصية والآداب الاجتماعية ؛ – عدد الكهنة المرسومين في اثناء السنوات الخمس الاخيرة ؛ – خوارنة الرعايا ؛ – الوكلاء الاسقفيون في المناطق ؛ – الكهنة القانونيون في الكتدرائية ؛ – اصحاب المقامات .

وعلى شؤون الاكليرس بالعموم : ضمانة معيشته ؛ – العناية بالشيوخ والمرضى ؛ – دار للمتقاعدين ؛ – سلوك

الاكليرس (بتفصيل بالغ) ؛ - عدد الكهنة المرخص لهم الاهتمام ببنوكة ، وتعاونيات ، ونقابات ، واعمال اجتماعية اخرى ؛ - موقف الكهنة من الكرسي الرسولي ومن الاسقف ؛ - الكهنة وتعاطي الصحافة والنتيجة من ذلك ؛ - التأديبات القانونية ونتيجتها .

وعلى شؤون الرهبان : هل يزور الاسقف الاديرة كل خمس سنوات ؛ - هل من رهبان او راهبات يعيشون خارج الاديرة ؛ - ما هي سمعتهم .

وعلى شؤون الشعب المؤمن : حالة الآداب والاخلاق بالعموم ؛ - الروح العائلية ؛ - الحياة الدينية عميقة ام سطحية ؛ - معمودية الاطفال بدون تأخير ؛ - تناول القربان كل يوم او بتواتر ؛ - نسبة الزواجات المدنية ، والمساكنة الحرة ، والدفنات المدنية ؛ - هل يهرب الناس من الدفنة الكنسية بسبب الرسوم المفروضة ؛ - الناشئة وتربيتها وتهذيبها في العائلة وفي المدرسة ؛ - التعليم المسيحي ؛ - عدد الجمعيات والاخويات وفائدتهما ؛ - الجمعيات السرية والمناوئة للكنيسة وللاكليرس ؛ - واجب الكثوليكيين بالاشتراك في الحياة السياسية ، الخ ، الخ ...

وهكذا يستطيع البابا ، في كل وقت ، ان يعرف ادق التفاصيل عما يجري في جميع ابرشيات العالم الكثوليكي .

على ان هذه التعليمات ، التي ترد على الكرسي الرسولي

من اقطار المعمور كافة ، قد تحتاج احياناً الى تحقيق وتثبيت ، فيأتي الى الابرشيات ، موفدين من رومية ، احبارٌ او كهنة ليقوموا بهذه المهمة ، فضلاً عن السفارات البابوية في البلدان التي تتبادل التمثيل السياسي مع الفاتيكان . فللسفراء مهمة تمثيل الحبر الاعظم لدى الحكومات المدنية ، ولدى السلطات الكنسية المحلية ، واطلاع الكرسي الرسولي على حالة الكنائس الموكول امرها الى هذه السلطات . وحيث لا سفارات ، يقوم بهذه المهمة القصّاد الرسوليون ، ما عدا مُقَـرّها الاول .

ولا ننسَ ان عدداً وافراً من المسافرين يعرّجون على الفاتيكان ، وان الاب الاقدس يستقبل منهم العشرات بشخصه ، بعد ان تكون بطانته قد مهدت لهذه المقابلات بالتقارير الصائبة . فيسألهم البابا ويستمع اليهم اكثر مما يحدّثهم ، متذرعاً بهذه الوسيلة لاستكمال معلوماته ، وخاصة لجس نبض الرأي العام العالمي . وليس محدثو البابا من الاكليرسيين وحدهم ، فبينهم كثيرون من اقطاب اهل العالم ، ومن العاملين في حقل العمل الكثوليكي ، ومن النواب ، ورجال الحكومات ، واحياناً من الخصوم .

٥ – وزارة الرهبانيات .

وفي الفاتيكان وزارة داخلية اخرى تُعنى بالرهبان

والراهبــات الذين يشغلون قسماً كبيراً من ملاكات الكنيسة ، وهي ما يدعى « مجمع الرهبان » . ومهمته محاولة الحدّ من الاخطار التي قد تنجم عن نزعة الرهبانيات الى التفرد في ادارة شؤونها ، بالاستقلال عن سلطة الاساقفة ، وهم غالبهم مستثنون منها ، على نحو ما يعنى « مجمع الاساقفة » بالحدّ من استقلال الاساقفة في ادارة ابرشياتهم .

فعلى « مجمع الرهبان » ان يتزيد دوماً من استخبارات مفصلة عن سير جميع الرهبانيات الرجال والنساء . ولا يخلو الامر من صعوبة ليست باليسيرة ، لان الرهبان البندكتيين والدومنكيين والفرنسيسكيين واليسوعيين والكرمليين وغيرهم من جماعات رهبانية تزداد عدداً يوماً عن يوم ، يتذرعون بتقاليدهم وانعاماتهم العريقة في القدم ، ويصرّون على الاحتفاظ بها ، بما يشبه عصبية قومية او وطنية ، وعلى التشبّث بما يندّون به عن المعتاد المألوف في نظام سائر الاكليريكيين . فمن البديه ان لكل من الرهبانيات الكبيرة قانونها الخاص في ممارسة التقوى ، ومذهبها او طريقتها في الزهد والنسك ، وفلسفتها . وعدا ذلك فتعيين الرؤساء او انتخابهم ، واستقلالهم الذاتي في داخل اديرتهم ورهبانيتهم ، يتم وفقاً لانعامات يحرصون على استمرارها .

اما الانظمة الرهبانية فتختلف باختلاف الرهبانيات . فللبندكتيين اديرة عديدة ، مستقلّ واحدها عن الآخر ،

ولكنها تؤلف تحالفا ما بينها ، وتتبع جميعها قانون القديس بندكتس مؤسسها . ويخضع الدومنكيون لولاية رئيس عام يقيم في رومية ، ويقسمون اقاليم عديدة . واما اليسوعيون ، فالمركزية في جمعيتهم على اشدّها . فرئيسهم العام مركزه رومية ، يبسط منها على كل فرد منهم سلطة توازي سلطة رئيس مطلق السيادة . على ان الرهبان جميعاً ، على اختلاف قوانينهم وانظمتهم الادارية ، يبغون ان تبقى لهم حياتهم الخاصة ، ويحاولون ان يحموا استقلالهم مما قد يناله من السلطة الرومانية المركزية ، فمهمة « مجمع الرهبان » انما تتوخّى مقاومة هذه النزعة الرهبانية . وبمعونته يواصل الباباوات سياستهم المركزية ، ويودّون لو يلجون برقابتهم حتى خلوة الاديرة . وعلى نحو ما يجريه مجمع الاساقفة في استجوابهم عن اسئلة جد مفصلة ، يحتم « مجمع الرهبان » على رؤساء الرهبانيات بالاجابة عن لائحة من اسئلة مماثلة .

اضف الى ذلك انه يطلب اليهم ان يوافوه برسائل « سرية » يودعونها تعليمات متنوعة استكمالاً لما لديه عن الرهبانية واعضائها ، كما يوجب عليهم ان يرفعوا اليه ، كل خمس سنوات ، على شاكلة الاساقفة الى مجمعهم ، تقريراً مسهباً في الموضوع عينه ، وفي حالة الاديرة المالية وعلاقتها بالاساقفة ، وفي الكهنة المعينين لاستماع اعتراف الرهبان او الراهبات

ولارشادهم الروحي .

وتشتمل لائحة الاسئلة الموجهة الى رئيسات الراهبات على ما يلي : « في حال خروج راهبة من الدير ، هل تعاد اليها دوطتها المالية وجهازها فيما اذا كانت قد جلبت معها جهازاً الى الدير ؟ واذا لم يكن لها دوطة ولا جهاز ، وكانت بدون موارد شخصية ، هل تدفع المحبة سلطات الدير الى ان تقدم اليها ما يوصلها الى عائلتها بدون خطر ، وما يضمن لها معاشها بلياقة ، اقله الى مدة من الوقت ؟ »

ولا يفوت المجمع ان يسأل عما اذا كانت الرئيسة او الوكيلة العامة تتصرف باموال سرية ، لا يرد ذكرٌ لكيفية صرفها في سجلات الحساب .

القسم الثاني

اعوان البابا الاقربون

الفصل الاول

البـــابا في دارته الخاصة

١ ـ المساء بعد عناء النهار .

الشيخ الواعي الدقيق ، حارس العقيدة، المعصوم من الغلط، والرئيس المطلق السيادة على نحو نصف مليار (خمسماية مليون) من المؤمنين ، لا وليّ عهد له ، ولا وزير دولة ، ولا نجيّ ولا سمير ، يعيش وحده في قصره الفسيح الارجاء ووسط بلاطه الفخم ، منصرفاً الى الزهد والنسك .

كل مساء يأوي الحبر الاعظم ، وقد قضى نهاره الطويل في العمل ، الى دارته الخاصة في البلاط الرسولي . الدارة عصرية ومرتبة وفقاً لنمط يهيمن عليه الذوق الجرماني الذي يروق بيوس الثاني عشر . جميع الغرف والردهات مدهونة بالزيت ، ولكلٍ منها لونٌ خاص به : للمعبد اخضر جلي ، ولغرفة النوم ابيض نقي . وتشتمل الدارة على حجر وغرف عديدة ولكنها صغيرة : غرفة النوم وما اليها ، والمائدة ، والمكتب ، ومخادع كثيرة اودعت فيها التقـــادم والهدايا التي ترد على الاب الاقدس من جميع الاقطار الكثوليكية . وهناك

قاعة لآلات الراديو ، لا يلجأ اليها البابا الا ليصغي الى قطع الموسيقى المفضلة لديه من وضع شوبان او مندلسن ، او ليستمع الى جرائد الاخبار التي تذيعها محطات الراديو العالمية .

وللدارة سلّم داخلي يصلها بالطابق الذي تحتها ، حيث يقيم الابوان اليسوعيان ليبر وهندريك ، وكلاهما الماني . وفي احد طرفيها المطبخ الغازي ، ومائدة صغيرة ، ومنام للراهبات بسكوالينا ورفيقاتهـــا الثلاث اللواتي يُعنين بتدبير الدارة وخدمتها .

البابا وحده ، بعد ان تناول طعام العشاء : قليلًا من لحم وبعض بقول ونقطة خمر وفنجانـــاً من مغلي الزهور . فيكب على مطالعة جريدة الكرسي الرسولي « الأسرفاتوري رومانو » ، ويُعلِم بقلم رصاص ما يلفت نظره فيها ، بحيث تصبح صفحاتها الست مخططة ، مخربشة ؛ والبابا يقرأها برمتها في التفاصيل الدقيقة : من بيانات المقابلات الحبرية حتى اخبار الوفيات .

وفجأة يتناول البابا ساعد الهاتف (والآلة بيضاء مذهبة اهدتها الى سلفه شركة اميركية للهاتف) ، فينادي البروفسور لولّي Lolli ، وهو رجل جسيم هـــاش باش ، على شيء من المرح والسخرية ، يشغل وظيفة « المحرر الحبري » المسؤول بالدرجة الاولى عن كل ما يرد في الاسّرفاتوري عن الحبر

الاعظم . فمرةً ، حدث ان سقطت علامة وقف فاصلة من مكانها ، او اهملت في الطبع ، من خطاب القاه على هواة لدرّاجات ، فاضطرب معنى الجملة ، فنال البابا من ذلك صدمة عنيفة ، على ما قيل . ولهـــذا فكل مرة تنشر الجريدة خطاباً حبريا ـ « كما استطعنا ان نتلقفه من على شفتي قداسته المبجلتين » ، وفقـــاً لتعبير الجريدة التقليدي ـ يحتم بيوس الثاني عشر بان ترفع اليه مسوّدته ، ليصلحها ويبيّضها بيده .

ان هذا التدقيق ، فيما يلامس العلامة الفاصلة واتقان الانشاء ، شِنْشِنة يعرفها في بيوس الثاني عشر ، وكان اذ ذاك الكردينال باتشلّي ، معاونوه ، ويخشونها . فلطالما كان ، وهو وزير الدولة ، يوجب عليهم ، مرتين ، وثلاثاً ، وستاً ، اعادة النظر في نص رسالة او برقية ، ومراجعة نسخها على الآلة الكاتبة .

ان البابا يمقت الارتجال والمبـــالغة . فمرة كان يستقبل الكرادلة استقبالاً حافلاً ، فحسن لديهم ان يكلفوا احدهم القاء كلمة بين يدي قداسته ، تعبّر عن احترامهم اياه وخضوعهم له ، آملين ان يطيب بها نفساً . فما كان منه ، وقد فاجأوه على هذا النحو ، إلا ان لزم الصمت فلم يُجب بشيء ؛ وعندما حان وقت الانصراف من الحفلة ، ابدى استياءه مما كان .

ويقطع البابا مطالعة الجريدة اذ يدخل حاجبه الخاص ، الكومندتوري استيفانوري Stefanori ، فيعرض له عن وصول زائر ، لا ذكر لاسمه على جداول الاستقبـالات الحبرية ،

وهو من الاشخاص القلائل جداً الذين ينعمون بزيارة الاب الاقدس بدون ان يستدعيهم اليه بصورة خاصة ، ذاك هو الكونت جاليازي Galeazzi ، المهندس والخبير الضليع في القضايا المالية ، واخو طبيب البابا الخاص ، والسكرتير العام للجنة التي تسوس حاضرة الڤاتيكان ، وهو الذي يعود اليه تسيير الاشغال العامة في الدولة الصغيرة .

وفوق ذلك ، فالكونت ، وقد انعمت عليه بهذا اللقب الحكومة الايطالية ، تلبيةً لرغبة الكرسي الرسولي ، محدّثٌ ذليق اللسان ، مواضيعه متنوعة تدعو الى الانس واللهو والمرح . وقد اكثر من الاسفار وخاصة الى اميركا الشمالية ، فاصبح على معرفة عميقة ودقيقة بشؤونها . ولما كان من روّاد الڤاتيكان ، فقد التقى فيه سابقاً موظفاً شاباً في وزارة الدولة ، فربطته به صداقة حميمة ، هو الآن الكردينال اسبلمن . فرافق السعد كليهما معاً فارتقعا عالياً . ويدور الحديث بين البابا والكونت على مشاكل حاضرة الڤاتيكان ، ثم يلمّ باهم قضايا الساعة ، ويشرد قليلاً الى السفارات وما يشاع عنها في رومية ، والى الوزارة وما يعترض بقاءها في الحكم من صعوبات ، ويلمح الى الحياة الاجتماعية ، وهموم بعض الكرادلة ، ويعرّض بامل احد الاساقفة .

واذا بالراهبة الرئيسة بسكوالينا تلج الغرفة بقدم خفيفة ، فترسل الى الاب الاقدس نظرة سريعة ، كأنها استقصاء

بوازي سؤلاً ، نظرة تجيدها النساء تجاه اشخاص ضعفاء ، موكولة اليهن العناية بهم ، وتقطع الحديث ، متجّهة نحو الكونت بلحظة باسمة وكلمة ناعمة : « ألا ترى ان التعب بادٍ على الاب الاقدس ؟»

ليس على الاطلاق في استطاعة شخص آخر ، غير هذه الراهبة ، ان يستبيح لنفسه مثل هذه الدالة . فانها وحدها مستثناة من مراعاة الاصول الرسمية الصارمة في آداب المعاطاة المفروضة في البلاط الرسولي . ذلك ان هذه الراهبة الباڤارية بدأت تخدم البابا ، منذ ما يقرب من ثلاثين سنة ، وقت كان المنسنيور باتشلّي سفيراً في المانيا . ومنذئذٍ لم تنقطع عن السهر عليه ، فلحقت به الى الوزارة البابوية ، ثم الى دارته الحبرية الخاصة . وهي ، والحق يقال ، امرأة قوية وتقية معاً ، وذكية فطنة ، تأنف الظهور ، وتعمل بدون ضجيج . وليس من يعرف البابا افضل منها ، فتفطن الى ابسط حاجاته واقلها شأناً : الى اي حدّ ، مثلًا ، يمكنه ان يواصل العمل ، ومتى ينبغي له ان ينقطع عن الصوم . وتتعهده بهذا المزيج من التفاني Gemutlichkeit الجرماني ، فتضفي على الدارة الحبرية هذا القليل من الحياة العائلية الحميمة التي بدونها لا يستطيع احد ان يعيش في هذا البلاط المرمري المترامي الاطراف .

٢ ـ زوّار البابا الحميون.

ان زوّار البـابا في الدائرة التي تسيطر عليها الرئيسة بسكوالينا انما هم قلائل جداً : الامير كرلو باتشلي ، ابن شقيقه ، حاكم حاضرة الفاتيكان ؛ والراهبان اليسوعيان ليبر وهندريك ، كاتبا سره اللذان يعاونانه في اعداد بعض خطبه ويلازمانه كل يوم . وقد غالى البعض في قدر الدور الذي يقومان به في البطانة الحبرية ، ولكن من الراهن انهما يشغلان وظيفة جد دقيقة ؛ فهما من جهة صلة هامّة وقيّمة بين الجماعة اليسوعية ورأس الكنيسة الاعلى ، ومن جهة اخرى سلك تصل بـه الى الحبر الاعظم معلومـاتٌ كثيرة عن الحالة الدينية والسياسية في موطنهما المانيا .

أضف الى هؤلاء الذين يعبرون عتبة دارة البابا الخاصة ، السنيور جدّه Gedda ، رئيس جمعية العمل الكثوليكي في ايطاليا ، والكردينال اسبلمن الذي ينعم بمقـابلة الحبر الاعظم بعد المساء، واخيراً الاب بيا Bea اليسوعي الذي يعترف بيوس الثاني عشر بخطاياه الى الله على يده في منبر سر التوبة . فهذا يحضر في اوقات معينة ، فيصبح رأس الكنيسة امـامه ، مدة بضع دقائق ، تائباً وضيعـاً شأن جميـع المؤمنين اذ يجثون على ركبهم امام الكاهن الذي يقوم ، باسم الله ، بوظيفة القاضي .

٣ – في كستلجندلفو Castelgandolfo .

ان هذه الطريقة المتسمة بالقناعة والبساطة التي يسلكها بيوس الثاني عشر في حياته الخاصة ضمن الفاتيكان ، تزداد بساطة في قصر كستلجندلفو ، مصيفه القائم على احدى الروابي غير البعيدة عن رومية . فبيوس الحادي عشر كان ينتقل اليه برجال بطانته كافة ؛ اما البابا الحالي فيكتفي من رجال الحرس السويسري بنفر قليل يرافقونه اليه مدة وجوده فيه ، ومن بطانته بالحاجب السري ليقوم بخدمته ابان استقبال الزائرين من الافراد والجماعات ، فيحضر من رومية صباحاً ويعود اليها بعد الظهر . فلا يبقى آنئذ في القصر الصيفي الفسيح ، ما عدا الراهبات ، الا مستخدمان اثنان : احدهما سائق السيارة وخادم المائدة ، والآخر من خدام الفاتيكان للقيام بسائر الاعمال . إلا انهما ينصرفان كلاهما عند هبوط الليل .

فتصوّر انك جرأت يوماً فاستطعت المرور بين الحراس السويسريين ، فوصلت الى دارة البابا الشخصية ، فطرقت الباب بقرع جرسه ، فحينئذٍ يأتي الحبر الاعظم بذاته يفتحه لك.

هذه هي الدنيا الضيّقة التي يقضي فيها الحبر الاعظم بضع ساعات هنيئة . وعلى بعد منها ، خارج هذه الدائرة التي لا يتعداها احد ، يقيم ويعمل اقرب معاونيه اليه : المنسنيور ترديني والمنسنيور منتيني . وابعد فابعد الكرادلة والدواوين ، وعائلة البابا آل باتشلّي .

الفصل الثاني

وزارة الدولة

١ – يوم الاحد في حاضرة الفاتيكان .

يوم الاحد اكثر الايام ضجراً في حاضرة الفاتيكان الهادئة . الجنود قليلون ، وعلى شيء مفرط من الرفق والحِلم في هذا اليوم . وقد تشدهك بزاتهم المتنوعة التي ترقى الى عصر النهضة وعصر الامبراطور نبوليون الثالث وما بينهما .

ازاء بناية طويلة مقفلة النوافذ ، يسير ببطء اكليريكي عجوز ، لا تزينه لحيته البيضاء اكثر من ثوبه الحالي من كل اناقة ؛ انه احد الكرادلة ، حـــافظ المكتبة الفاتيكانية ، كبرى مكتبات العالم طراً . اما سائر المـــارّة ، فمستشار السفارة اليـــابانية ، ومدير الجريدة الرسمية الكونت دلاّ توره Della Torre ، واليسوعي معرّف البابا ،وابن شقيقه ، والحلاّق.

في الشوارع كل الناس يعرفون بعضهم بعضاً ، ويتبادلون التحية بشيء من التكلف . ولا يخفى الغربـــاء عن رواد الفاتيكان ، فكل شيء فيهم ينمُّ عنهم . نظافة الشوارع على أتمّ ما يكون ، وبالاحرى الآداب والسلوك .

لا مقاهٍ ، لا مطاعم ، لا تخشيبة لبيع الجرائد . والقوانين تحرم كل عمل تجاري . على ان هناك حانة ، تدعى حانة موهف (سكرستيا) مار بطرس ، يرتادها الكهنة قانونيو الكنيسة الباسيلية الفاتيكانية ورجال الدرك ؛ وتقفل عند الظهر . ولكن العطشى لا يحرمون ، بعد ذلك ، مورداً اخيراً يروون منه عطشهم ، هو تعاونية الحرس السويسري الاعاشية . ولكن على قارعي بابها ان يولوا القائمين عليها ثقة تامة مضاعفة .

٢ – المنسنيور منتيني Montini .

ومن يشاهد بين المارة ، طاهية بيدها قفة ، يعرفها جميع سكان الفاتيكان ، وينظرون اليها بكل احترام . انها والجمال على طرفي نقيض . تطأ رخام الفاتيكان بقدمين جد طويلتين تضيعان في حذاء واسع من القماش . تلك هي خادمة المنسنيور يوحنا المعمدان ُمنتيني ، وكيل الوزارة البابوية في الشؤون العادية الذي يأنس به بيوس الثاني عشر ويخلد اليه اكثر من سائر معاونيه .

والمنسنيور منتيني في الثامنة والخمسين من سنيه (ولست تظنه في اكثر من الاربعين) ، مديد القامة ، ضعيف البنية ، اسمر اللون ، اصلع الجبهة ، حاد النظر ، خدّد وجهه غضنان عميقان عموديان ، يضفيان بعض المرارة على محياه الباسم

المتفتح ، يرتدي ثوبه الاكليرسي الاسود بكل حشمة كأي من كهنة رومية ، ولا يزينه زرّ بنفسجي إلا نادراً في الحفلات الكبيرة . انه ليس اسقفاً ، ولكنه مع زميله ترديني ، في نظام التشريفات ، احد الاشخاص الاقطاب في الكنيسة ؛ ومن حيث السلطة او الولاية الكنسية ، ادنى بكثير من الكرادلة والمطارنة والاساقفة الذين يوجّه اليهم ، باسم البابا ، الاوامر واللوم او الثناء . منذ عشرين سنة يلازم المنسنيور منتيني الفاتيكان بدون انقطاع ، وهو اتبع للبابا من ظله .

يبدأ المنسنيور مُنتيني نهاره مع الفجر بقدّاس سريّ طويل ، لا نهاية لما يليه من تأمل وصلوات . فتدب الحيرة في نفس طاهيته التي لا تستطيع ان تعرف ميعاد فطوره . لم يكن في حياته مـا يدل على انه سيصل الى المقام العالي الذي يحتله ؛ فدعوته الكهنوتية جاءت متأخرة ؛ وقبل ان لبى نداء النعمة ، كان من المجاهدين في حقل المنظمات الكثوليكية للطلاب الطليانيين ، في الحقبة المضطربة التي عقبت الحرب العالمية الاولى . وهذه المنظمات هي التي افضت الى تأسيس العمل الكثوليكي في الحقل الاجتماعي ، والى انشاء الحزب الديمقراطي المسيحي في الحقل السياسي . وكان الفتى منتيني يدرس الحقوق في رومية ، فاستهواه العمل الكثوليكي ومعالجة المعضلات الاجتماعية . وكان يلوح له ، في افق قريب ، مستقبلٌ

سياسي باهر ، وقت كان الصراع على اشده بين الفـــاشية الطالعة والاحزاب القائمة . فترك العـــالم وتطوع لخدمة الله والنفوس . فدخل الكلية الحبرية ، منشأ رجـــال الدبلماسية الفاتيكانية . ومنها انتقل تواً الى وزارة الدولة حيث ارتقى مـدارج السلك باطراد ثابت ، بدون ان يخرج من وزارة الدولة إلا للاقامة في بولندا ردحاً من الزمن .

ولما كان يضيق ذرعاً باروقة الفـاتيكان الرسمية وبمكاتبه الضيّقة ، وبمجمل هذه الدنيـــا المصطنعة التي تكاد تكون لاطبيعية ، دنيا وزارة الدولة ، كان يطيب له الافلات منها بضع ساعات ، فيذهب يلقي عظات رياضة روحية على طلبة الجامعات ، ويمارس اعمال الرسالة الدينية في ضواحي رومية . وكانت الفاشية قد ركزت قواعدها آنئذٍ ، واضطرت العمل الكثوليكي الى قصر نشاطه على الشؤون الروحية البحتـة . ولا يزال طلبة هـذه الحقبة يحفظون صورة ذاك الكاهن الشاب يعظ ويحاضر ، وقد سدل الزهد على سحنته مسحة لا تحدّ من توقد عينيه ، ويسمعون صوته الخـافت الذي كان يهيج عواطفهم . على ان جو وزارة الدولة ، مع طول الوقت ، اخمد تلك الحدة ، على مـا يظهر ، واسدل ستاراً من الدراية الدبلماسية على نزق الاهواء .

ان من خطة المنسنيور مُنتيني ان يكفّ عمداً عن ابداء رأيه الشخصي ، وعن بت القضـايا ، الا في ظروف نادرة .

فهو لا يريد ان يكون سوى ظلٍّ – ظل البابا . وانما هو بذلك يحتذي مثـــال من كان معلمه في تسيير دفة الكنيسة ، اي الكردينال باتشلّي نفسه . فلمـــا القيت الى هذا مقـــاليد وزارة الدولة البابوية ، آلى على نفسه ألاّ يقصد الاقتداء باسلافه المشاهير ، من امثـال كُنسَلفي Consalvi وجسبرّي Gasparri . فالبابا ، في عرفه ، ليس بحاجة الى معاونين من هـذه الطبقة ، بل الى رجـل يعتنق فكرة رأس الكنيسة على وجه التمام والكمال ، ويُعنى بتنفيذهـا على ادق ما يكون من الحرص والامـــانة . فالمنـسنيور منتيني ، على مثال الكردينـال باتشلّي مع بيوس الحادي عشر ، وربما بزيادة عليه ، اتبع هذه الخطة في علاقاته بالبابا بيوس الثاني عشر . وكان مزاج هذا يقتضي ذلك . فبيوس الثاني عشر متكتم ، غامض ، بطيء في بت الامور ، يفضي به الامر سريعاً الى العناد ؛ سريع الغضب بالرغم من لطفه ، ينتظر من معاونيه ان يزوّدوه بالمعلومات ، لا ان ينصحوه ويشيروا عليه . وكل همه ان يعرف ردة الفعل العالمية وتقلبات الرأي العام الكثوليكي . ولهـذا بعد وفاة الكردينال مليوني Maglione وزير دولته ، لم يعين خلفاً له . فتوضح حينئذ هذا التعاون المتواصل على مدى الايام والساعات بين بيوس الثاني عشر والمنـسنيور مُنتيني .

٣ – المنسنيور ترديني Tardini[1] .

والى جانب المنسنيور منتيني ، يعمل ، في وزارة الدولة البابوية منذ سنين طويلة ، مسؤول آخر عن سياسة الفاتيكان في الشؤون الخارجية ، هو المنسنيور ترديني . وكلا الرجلين يسدّ احدهما نقص الآخر ، ويساند عمـــل البابا على افضل وجه . فغاية ما يتطلبه بيوس الثاني عشر ان يكون بقربه معاونون قليلون يعرفهم حق المعرفة . فهو الذي يرتاح كل يوم الى استقبال جماهير الزائرين المجهولين ، كان لا يتحاشى شيئاً مثل تعرفه باشخاصٍ جدد .

والمنسنيور ترديني بشوش ، جَذِل ، يمتُّ ، بمزاجه وخلقه ، الى سكان المناطق الجنوبية ، بقدر ما يمتُّ المنسنيور منتيني بها الى سكان المناطق الشمالية . فشتان ما بين الزميلين الصديقين . وبالرغم مما يتحلى به الاول من صفات دِبلُماسية ، فانه لا يلوك كلامه ، ولا يخفّف من وطأة عباراته ، اذا ما استقبل مرة في مكتبه الواسع ، بصورة استثنائية ، احـد الفضوليين او غير ذوي المعرفة والالمام بالامور . وبينا المنسنيور منتيني يطيـل ساعات الاستقبال وجلسات العمـــل ، حتى تنسيه ميعاد طعامه ، نرى المنسنيور ترديني مثال الدقة التامة . فعندمـا تدق الساعة الثالثة عشرة ونصف الساعة ، يعرف حجّاب الوزارة ان باب المصعد يجب ان يكون مفتوحاً والسيارة تنتظره عند

اسفله ، بصرف النظر عما قد يكون لديه من امور هامة ، ومهما بلغت اهمية هذه الامور . وهو لا يسكن بالقرب من البابا في البلاط الرسولي ، بل في جناح مستوفٍ مقتضيات الراحة والرفاهية ، من بناية عصرية قائمة بطرف حاضرة الڤاتيكان ، كان يقطنه قبله احد الدبلوماسيين .

وما عدا المنصب الرفيع الذي يشغله المنسنيور تارديني ، فانه يعنى بالميتم الذي انشأه بماله الخاص وبما يجمعه بدون ملل من الاشخاص الذين يؤمّون مكتبه او يلتقيهم في بيوت الاشراف الرومانيين . وعليه كل يوم ان يمضي لزيارة ايتامه الصغار ، فينسى بالقرب منهم مسؤولياته الجسام ، ويصير طفلاً مع الاطفال ، ويعود كاهناً يستمع الى من يأتمنونه على متاعبهم ويبسطون امامه ما يقلق ضمائرهم .

٤ ـ اما وزارة الدولة ...

ولسائلٍ : لِمَ هذه الادارة المزدوجة في وزارة الدولة البابوية ؟ ولِمَ حرمت الوزارة رئيسها الطبيعي : الكردينال وزير الدولة ؟

منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً ، التأم مجمع الكرادلة لانتخاب خلف لبيوس الحادي عشر المتوفى . وكان احد الكرادلة يفوق سائر المرشحين بما ينعم به من نفوذ مزيد واشعاع مديد : هو الكردينال اوجين باتشلّي . على ان الكرادلة

الايطاليين ، وهم الاكثرية ، لم يكونوا مجمعين على انتخابه . ولكن فئة منهم ابدت غيرة فائقة على تأييـــده ، وأخصُّهم الكرادلة : كنالي ، مركتي سلڤاجياني ، بيتزردو ، تِدِسكيني . وانضم اليهم مليوني ، السفير البابوي في باريس . وبالنتيجة انتُخب الكردينال باتشلّي بابا . وقد شعر ، على ما يظهر ، ان عليه ، من باب اللياقة ، ان يعين ، لادارة الشؤون الخارجية ، دبلُماسياً خبيراً ، كانت له اليد الطولى في رفعه على عرش مار بطرس ، فكان الكردينال مليوني الوزير المختار .

كان الحبر الاعظم الجديـد من السلك الدبلُماسي ، تمرّس بالاعمال في وزارة الدولة وفي سفارات هامّـــة ، في مونيخ سنة ١٩١٧ وبرلين سنة ١٩٢٠ . وكان وزيرَ الدولة حين انتخبه مجمـــع الكرادلة بابا . على أن التقليد العريق يقضي بـــألاّ يصبح القائم عـــلى شؤون الكنيسة السياسية رئيسهـــا الاعلى . فلما بلغ البابا الجديد ذروة السلطة في وقت جد عصيب من التاريخ (الحرب العالمية الثـــانية) وكان بطبعه من اشياع المركزية والاستئثار بالسلطة ، لم يستطـع ولم يشأ ان يتخلى عن ادارة سياسة الكرسي الرسولي العالية ادارةً مباشرة . فكان ذلك ، فضلاً عن اختلاف في النظريات واحتكاكات شخصية عديدة ، سبباً كافياً جعـل من الصعب ان يعمل البابا والكردينال وزير الدولة معاً .

فلما توفي الكردينال مليوني سنة ١٩٤٤ ، ترك بيوس الثاني عشر التقليد ، فلم يعين وزير دولة مكانه . فحكم وحده ، بملء سلطته ، بدون وسيط قد يضايقه في سياسة الكنيسة وتوجيه شؤونها الخارجية . فاذا استثنينا الوقت القصير الذي قضاه مليوني في الفاتيكان ، وجدنا ان بيوس الثاني عشر ما فتىء وزير الدولة منذ اليوم القصيّ الذي دعاه فيه الى هذا المنصب سلفه على عرش مار بطرس .

ترى هل من خير ام ضير ان تُجمع ، في يد رجل واحد ، الاسلاك العديدة التي تربط العالم بعاصمة الكثلكة ؟ لربما كان من الضروري آنئذٍ ان تفرض على الكنيسة وحدة الادارة (وان ظهرت احياناً شديدة الحذر وكثيرة المداورة) ، في وقت اصطدمت فيه قوى متضادة اصطداماً عنيفاً ، واتخذ الصراع اشكالاً تُذكّر برؤى انتهاء العالم . فالحالة السياسية العامة ، وبالاخص الخوف من حرب مداهمة ، كان مما استأثر باهتمام الجميع في الدرجة الاولى ، فحدا جميع الكرادلة الى الاتفاق السريع على ترشيح رجل سبر غور الشؤون الخارجية وتمرس في اساليب قيادتها .

على ان خلوّ الكرسي الرسولي من كردينال وزير دولة ما فتىء موضوع انتقاد في رومية . فازدياد الاعمال الى حدٍّ بالغ جداً كان له دوره في سير الامور على مهلٍ وفي تأجيل مقررات هامة . فالحاجة الماسّة الى حلٍّ

معضلات لا تقبل التأجيل حالت دون الاهتمام بمشاكل اخرى جوهرية لم يتسع الوقت ولا صحة البابا لدرسها . وقد أحسّ المنسنيور مُنتيني نفسه ، وهو الاداة الطيّعة الوفيّة بيد البابا والمنفذ المفضّل لقراراته ، بأن عمله قد تضخم الى حدّ بعيد . فدوائره قد اتسعت ، حتى استفزت الدواوين الرسولية الى التذمر والشكوى . ذلك ان وزارة الدولة ، في عهد بيوس الثاني عشر ، حصلت شيئاً فشيئاً على حق فرض رقابتها على ما يجري في المجامع (الوزارات) ، فاعترضت ما بينها وبين المؤمنين من جهة ، وما بينها وبين البابا من جهة ثانية . فكانت النتيجة ان البابا اخذ يعفي الكرادلة رؤساء المجامع من مقابلته الشخصية ، ولكن بدون ان يزيد ذلك في استقلالهم بالعمل في دوائر مجامعهم . واخذ الدليل الصغير ، الذي كان يطبع كل سنة ، بأناقة تامة ، بأمر رئيس غرفة قداسته وفيه بيان هذه المقابلات ومواعيدها ، يتضاءل حتى َفقـَد نصف ما كان عليه من الحجم في السنوات الاخيرة القريبة .

ان هذه المقابلات ، التي تدعى Audiences de tabella تجري في مواعيد معينة ، يحفظها البابا لرؤساء المجامع وكبار موظفيها ولرؤساء المحاكم الكنسية . وهذه المقابلات لم يرغب اصحابها قط في تقليلها ، بل طلبوا المزيد منها . ولكن البابا كان احياناً يرسل يقول لهم ، وهم يتأهبون للمجيء اليه ،

انه ليس لديه ما يسألهم عنه او يطلبه منهم . فليتوجهوا ، اذا شاؤوا ، الى وزارة الدولة .

وتلك كانت كذلك حالة البعثات الاجنبية لدى الكرسي الرسولي . فان السفراء والوزراء المفوضين والقائمين بالاعمال كانوا يلقون بعض العناء بسبب خلو الكرسي الرسولي من وزير دولة ، لان اصحـــاب المقامات العليا ، الذين كانوا يستقبلونهم ، لم يكونوا صالحين لبتّ القضايا العـــالقة ، فيكتفون بالاستماع اليهم ، واعدين بنقل رغباتهم الى قداسة الحبر الاعظم .

٥ – دوائر وزارة الدولة .

سنة ١٩٥٣ قرر قداسة البابا رفع معـــاونَيه الاقربَين الى مقام الكردينالية ، وكانا في مقدمة المرشحين له ، فاعتذر كلاهما عن القبول . فاذاع البـــابا ذلك بنفسه (وهذا من النادر) على العالم اجمع ، موضحاً انه ، بناءً على طلبهما الملح ، عدل عن منحهما القبعة الكاردينالية . فعينهما عندئذٍ وكيلي وزارة الدولة ، ما اولاهما المقام الاول في ما يعود الى التقدم في التشريفات .

ومما لا ريب فيه ان تواضعهما العميق أملى عليهما هذا الرفض . على انه قد يكون هناك سبب آخر . فلربما رمى بيوس الثاني عشر ، برفع وكيلي وزارة الدولة

الى المقـــام الكردينالي ، الى تعين احدهما وزير دولة . وفي هذه الحـــالة ، كان من المرجح جداً ان يسند هذا المنصب الى المنسنيور منتيني . ولمـــا كان زميله المنسنيور تورديني لا يرغب في التنحي عن ادارة الامور الخارقة العادة وابدالها من وظيفة ارفع شرفاً ، فاعتبر ان بقاءه على رأس هذه الادارة ، ذات الاهميـــة الاساسية ، يوازي اتشاحه بالارجوان الكردينالي ، اذا كان هذا الارجوان سيجره الى تقاعد يموّه بشيء من المجد .

ولكن الراهن ان بيوس الثاني عشر كان جد مرتاح الى ازدواج الادارة في وزارة الدولة . ذلـك ان معاونيه الاقربين اليه يختلف احـدهما عن الآخر بقدر مـــا يتم احدهما ما ينقص الآخر . انهما يختلفان مزاجــاً ونزعات سياسية . فاحدهما ، المنسنيور تورديـــني ، يعتبر من المحافظين المستقيمي العقيدة في الشؤون الاجتماعية ؛ والآخر ، المنسنيور منتيني ، يُعدّ من ابرز المحـــامين عن الحركة الكثوليكية الاجتماعية التقدمية ؛ الاول يُبدي اراءه باندفاع وحماسة ؛ والآخر يأبى الظهور ، وينفذ بكل امانـة رغبات الاب الاقدس . ثم أن لكليهما خبرة قـــديمة بنظام العمل في وزارة الدولة وبوسائل دفع العجـــلة الى الامـام . وفضلاً عن ذلك فان الارجوان الكردينالي يضفي على لابسـه مسحة من المهابة قد تدعو البابا الى تعاطي شؤون وزارة

الدولة مع هـذا او ذاك بشيء من الدراية والكلفة . اما وقد زهدا في الارجوان ، فكان للبابا سبيل الى ان يواصل تبليغهما ارادته ومقرراته بدون اخذ وردّ .

لوزارة الدولة دوائر ثلاث : الشؤون الخارقة العادة ، والشؤون العادية ، وديوان البراءات .

فالدائرة الاولى يرئسها المنسنيور تارديني ، وهي اهمّ من الاخرين بقدمها وكثرة اعمالها ، يساعده فيها خمسة عشر كاهناً ايطالياً ، تأهبوا لعملهم على أحسن وجه . وهذه الدائرة تتولى الاتصال بالسفارات البابوية ، واليها يعود درس الامور السياسية مع رؤساء البعثات الاجنبية لدى الفاتيكان ، والعناية بالمشاكل الدقيقة التي تلامس تعيين الاساقفة ، وادارة المفاوضات لعقد الاتفاقات مع الدول ، كالمعاهدات Concordats . ومن مآثر المنسنيور تارديني انه توصل الى عقد كونكوردة مع اسبانية ، عقدها لا يخلو من الصعوبة . فمن سنين طويلة كان الجانبان يبحثان بنودها . ولكن تطلّبات الفاتيكان كانت كثيرة وجسيمة ، فلم يقبل بها الجنرال فرنكو ، كما لم يقبل بها قسمٌ كبير من الاساقفة الاسبانيين الذين كانوا يأنفون الارتباط المحرج بالسلطة الفاتيكانية المركزية .

واذا قابلنا عدد الموظفين في وزارات دولة زمنية عصرية بعدد الكهنة العــاملين في الوزارة البابوية على تحليل المعضلات العــالمية الشائكة ، لاخذ منا العجب كل مأخذ . وقد جُهزت الدوائر الفــاتيكانية اخيراً باحدث الآلات الكاتبة واكملها . والبرقيات تصدر عنها بالارقام الرمزية بكل سرعة ، ومواصلاتها الراديوتلفونية جديرة باية وزارة مدنية مجهزة بافضل الادوات .

ومع هذا ، فالطابق الثالث من البلاط الرسولي ، حيث يعمل معاونو المنسنيور ترديني ، يسوده جوّ عائليّ هادىء . فلا ملاكات ضيّقة كـ « المديريات » التي يهيمن عليها موظفون يغارون على امتيازاتهم ، والعمل فيها يوزّع وفقاً لمقتضيات الساعة ولاختصاص كل موظف . وليس من النادر ان يُلجأ الى موظف كبير انكليزي او اســباني ليكتب رسالة بروتوكولية عادية بلغة بلاده .

اما الدائرة الثانية ، التي يرئسهــا المنسنيور منتيني ، فموظفوها اكثر عدداً للاسباب التي اوردناها ، وقد زادوا اضعافاً في السنوات الاخيرة . وكان من المجدي تعيين بعض موظفين غير ايطــاليين فيها ، بينهم افرنسيون واسبانيون والمانيون وايرلنديون واميركيون . وهي تعنى بسير الادارة العــادية ، والاتصال بالسفــارات في القضايا التي لا تتطلب مقررات تمسّ الاصول والمبادىء ؛ كما تعنى

بالمراسلات ، وما اكثرها ، مع الاساقفة رؤساء الابرشيات ، ومع رؤساء الرهبانيات ورجال العمل الكثوليكي ، الخ ... ومع الوقت يزداد عملها اشتباكاً وتداخلاً مع عمل كتبة اسرار الحبر الاعظم فالمؤمنون يلجأون الى البابا في مسائل متنوعة جداً . فعلى الوزارة الجواب عنها دوماً .

امثال ذلك : ان راهبة ، في اطراف كندا ، تحتفل بذكرى السنة الخمسين لاعتناقها الحياة الرهبانية ، فتتوسل الى الحبر الاعظم ان يتنازل فيهدي اليها بركة خاصة ؛ — او ان غنياً من رجال الصناعة يرغب في ان يقدم الى الكرسي الرسولي هدية ذات قيمة ؛ — او ان كاهناً يضطرُه ضميره الى ان يبسط للبابا نفسه قضية هامة تتعلق بالرسالة التي يمارسها ؛ — او ان الكثوليكيين في فرنسا تبرعوا بثمن آلة تلفزة مذيعة يهدونها الى الفاتيكان ؛ — الى غير ذلك من اسباب لا عديد لها ، يتذرع بها المؤمنون ليرفعوا عرائض بشأنها الى الاب الاقدس .

ويعود الى المنسنيور منتيني ومعاونيه بعض مهامّ لا تتعلق رأساً بالسياسة الخارجية ، يكل البابا اليهم تعاطيها بصورة خاصة ، لانه يريد الاحتفاظ بالاشراف عليها ، كانشاء « مؤسسة بيوس الثاني عشر » وغايتها جمع المال في العالم باسره لتمويل « المنظمة العالمية لرسالة العلمانيين » .

فـــاذا كانت الدائرة الاولى في وزارة الدولة تعنى بالشؤون الاكثر اهمية ، فللدائرة الثانية عمل اوسع واوفر . ثم ان رئيسهـا المنسنيور منتيني يدعى تقريبـاً على الدوام ليضع صيغة مقررات الحبر الاعظم ، الا ما كان منها نصاً رسمياً يذيعه البابا نفسه .

وكان من خصائص وزير الدولـــة ان يرئس جلسات مجمع الشؤون الخارقة العادة ، الذي يبحث قضـايا شائكة ، تحولها اليه الدائرة الاولى ، قبل ان ترفعها الى الحبر الاعظم ليتخذ قراره النهائي بشأنها . على ان جلسات هـــذا المجمع غدت نادرة جداً .

وفي وزارة الدولة ، دائرة ثالثة هي « ديوان البراءات » ، لكن اهميتها اقل بكثير من اهمية الدائرتـــين السابقتين . موظفوها قلة تقوم بانشاء البراءات ، اعني الوثائق الرسميـة التي تصدر ، باللغة اللاتينيـة الرسمية ، عن وزارة الدولة او توقعها هذه الوزارة بالاشتراك مـع مسؤولٍ آخر . ولا يخلو الفـاتيكان من احبـار مثقفين متضلعين من الآداب القديمة .

وفي وزارة الدولة مكتب يـــدعى « سكرتيرية البراءات الى الامراء » و « الرسائل اللاتينية » ، مهمته الحفاظ على اصول اللغة اللاتينية وجعلها تجاري ، بقدر المستطاع ، مقتضيات الازمنة الحاضرة . واليه يعود تحرير الوثائق التي

تنشر باللاتينية ، والرسائل الموجهة الى الامراء على رقوق وتحت « خاتم الصياد » ، والى اصحاب المقامات من كنسيين وزمنيين على ورق عادي ، والى المؤمنين عامةً . وقد وضع المنسنيور بكشي Bacci ، رئيس هذه « السكرتيرية » ، معجماً طويلاً اخضع فيه اللغة اللاتينية الى التعبير عن مفردات عصرية . فجاء بكلمات من لغة شيشرون واطلقها على ما نسميه : « المصعد ، والرعادة ، والطائرة ، والمعكرونة ، والهاتف ، والطبنجة » ، الخ ...

٦ ـ العالم باسره كما تراه من الفاتيكان .

يكتشف المطلُّ من الشرفات الفسيحة ، المتفتحة في الرواق المؤدي الى وزارة الدولة ، منظراً فريداً لا يوازيه منظر آخر في العالم .

فعند اقدامنا ، ساحة مار بطرس ، وأحد الحوضين الفوّارَين الذي يرش في الفضاء الازرق زبد مياهه كأنها الريش المتطاير ، واحدى ذراعي الرواق الرخامي الممتد عن جانبي الساحة . وعلى البُعد ، نهر التيبر ، والسطوح القرميدية ، والحجارة جففتها الشمس فغدت شبيهة بالكلس . وابعد فابعد ، التلال تكتسي اكثر فاكثر لوناً بنفسجياً . اما المدينة فترسل الى القصر الرسولي ضوضاءها المتوانية . وقبالتنا ، في الجهة الثانية من الساحة التي نُشرف عليها ،

دارة البابا الخاصة بزجاجها المعمّى المطموس ، حيث يسود الظل والطراوة ؛ بينا هنا تشقّ الشمس لها سبيلًا عبر الستارات التي نالت الايام من رونقها ؛ واحد رجال الدرك البابوي يغالب النعاس ، متكئاً على سيفه ، جالساً الى الجدار الاقصى من الرواق حيث صُوّرت خرائط كبيرة على الجدران ، تزيّنها الرموز وتتخللها اسماء لاتينية .

بعد الرواق ، قاعة استقبال اولى ، يُدخل اليها بباب زجاجي . فتخدّش اذنيك جلبةُ حجّاب يرتدون السترات السوداء الطويلة (ردنجوت) ، ويتحدثون بصوتٍ جهوري من وراء آلات الهاتف ، حيث جلسوا وكأنهم على عروش ، عابئين بالحرمة الواجبة للاساقفة والسفراء المنتظرين في قاعات مجاورة ، ابوابها بين مفتوحة ومقفلة . ويعلو في القاعة نصب من الرخام الطيّع نُحت فيه تمثال البابا المالك سعيدا بنصفه الاعلى .

وتنسل من هذه القاعة ممرات الى اماكن محجوبة ، ينساب فيها كهنة بملابسهم السوداء كأنهم اشباح . واذا تجرأ المرءُ فتقدّم بضع خطوات ، وجد نفسه فجأة في رواق معقود ، رَسَم على سقفه تلامذةُ رافايل تصاوير متشابكة على شكل الكتابة العربية ، واكاليل ونقوشاً من الزهر والورق ، واجناساً من عصافير الجنة ؛ وباغتته

من النوافذ قبةُ مار بطرس ، تحفة ميكال انجلو ، بمحاسنها الساحرة ؛ وشاهد في الاسفل ، تحت عقد من القرون المتوسطة ، واحداً من رجال الحرس السويسري ، قائماً وحده مع حربته ، وقد استولى عليه الضجر .

واذا دفعنا الفضول الى التوغل ابعد فابعد ، فلا نعود نرى صوراً على الجدران ولا مقاعد او اثاثاً مصقولاً ، بل غرفاً صغيرة ، مطلوة بالكلس ، شبيهة بقلايات الرهبان ، عامرة بكهنة في شرخ الشباب ، يضربون على الآلة الكاتبة ، او يبحثون تقريراً وارداً من احد السفراء في بلاد نائية . وهؤلاء الكهنة تخرجوا في الجامعة الحبرية في رومية ، التي تعدّ رجال الدبلماسية الفاتيكانية ، على يد سفراء قدماء يلقون عليهم دروساً في التاريخ الدبلماسي والتاريخ الكنسي واصول العلوم الاجتماعية والاقتصادية وآداب التعاطي والعلاقات بطبقات الناس على انواعها . وقد تمّ اختيار بعضهم باتفاقات شخصية بين القيّمين على هذه الجامعة واقطاب الدواوين الرومانية والسفراء البابويين والاساقفة الاجانب المارين برومية .

وعلى الرابية الفاتيكانية ، في الفضاء الضيّق الذي ترشد اليه قبة مار بطرس والمعبد السيستي ، ترى : هنا رواقاً فسيحاً تغمره الشمس ، وهناك دهليزاً مشعا ، وثمّ رواقاً من عصر النهضة ، وقلايات بيضاء منحوتة في جدران

قديمة بدون نظام ولا تصميم . فهذه كلها تكوّن لوالب دماغ العالم . فمن جميع الآفاق والاقطار يرد عليها بدون انقطاع البريد والرسائل والبرقيات والموفدون الرسميون الزاهون بمواكبهم ، او المتنكرون الذين لا يسترعون اي انتباه .

وفجأة تبين لنا اوروبّا اقليما صغيراً يُحيق به بحر الشيوعية الهائج الخطِر ، غائصاً في اوقيانس الشعوب التي تجهل اسم المسيح حتى الآن . وتتضاءل المشاكل التي نوليها عادةً جل اهتمامنا حتى تصبح بغتةً من الامور العرضية ، ويتضح لنا ان الشؤون الجوهرية هي غير ما نظن .

فتجاه هذا الواقع ، تفقد وجهة النظر الاوروبية اهميتها عندما يدور الحديث عن آسيا او افريقيا السوداء . فالصين هي احد الاقاليم التي دخلتها الكنيسة اخيراً على يده اساقفة وكهنة من اهاليها الصفر ، كفاءاتهم متنوعة ، وامانتهم ثابتة بما عانوا من المحن وقاسوا من الشدائد ، حتى الاستشهاد، منذ سنين عديدة . ان الكنيسة لا تنظر الى البلدان التي تنحرر نظرة الدول القلقة على نفوذها السياسي ومصالحها الاقتصادية ، بل ترى فيها بلداناً جديدة ، قد تكون اكثر اهلية لاقتبال الرسالة المسيحية من الاوروبيين المنهوكين والاميركيين الماديين .

اما روسيا فهي العدو الاكبر والأمل الاكبر ، لان

فيها تعيش وتتألم ، بين الكنائس المنفصلة عن رومية ، أقواهن واقربهن ّ الى التعاليم الكثوليكية فيما يلامس العقائد الجوهرية والاسرار المقدسة . وما العدوّ الالد سوى الشيوعية ، فانها في كل مكان الكنيسة الدجالة ، نقيضة رومية ، تصبّ عليها جام غضبها ، وتخصّها ببغضاء تتساوى فيها الضراوة والخباثة . والشيوعية تموّن الكنيسة في ايامنا بالشهداء من الصين الى بولندا ، ومن البانيا الى غاليسيا ، وحتى في يوغوسلافيا ، على نمط موحد بكل دقة . وهدفها ان ُتغوي الكنائس المسيحية وتضلها وتذلها وتسحقها .

على ضوء الاضبارات التي تتراكم هنا ، ُتقدَّر قوى الانسان وامكانياته بمقاييس جديدة غير معروفة من قبل . فالوقائع يُنظر اليها بعين الابد وفقاً لتقنية خاصة هي تقنية القدامة . وللسياسة مفهوم لا علاقة له بقيام وزارة او سقوطها ، ولا ببقاء مجلس نيابي او حله ، ولكن بما ُيخال انه سيكون تطور قرن كامل ، وحتى حقبة تاريخية مديدة . والاشخاص الذين جعلنا منهم افذاذاً خياليين مجردين يبدون هنا اشخاصاً بشريين . فما قيمة القرن ونصف القرن يفصلان بين رئيس جمهورية فرنسا الحالي ونابوليون الاول ، في نظر من كان عمره الفي سنة ؟ فامبراطور الفرنسيين ليس هنا شخصا ينشده فيكتور هيجو في شعره ، او يعرضه فلم امركي على الشاشة ، ولكنه حاكم تجرّأ على ان يقسو على واحد من

سلفاء البابا المالك ، ولا يزال اثره حيّا في محفوظات الوزارة البابوية .

امـا القداسة فننشق عبيرها في التقارير المحـَربَـة غالباً على رسائل سرية تفيد عن كهنة حرقوا احياء ، واساقفة أعدموا الرصاص او هلكوا في المنفى ، ومؤمنين قضوا في العذابات المتنوعة . ان الكنيسة تقاسي دائماً اضطهاداً عنيفاً ودموياً لا ينقطع . وتفضي اخبار هذا الاضطهاد الى وزارة الدولة على نحو ما ينتهي اليها تقرير من سفيرها في مـدريد عن حفلة استقبال اقامها اكراماً للجنرال فرنكو . وكلا الامرين يدوَّن في السجلات بالعناية عينها . اما الاساقفة المستشهـدون ، والشعوب المعذَّبون لاجل المسيح ، فيحتلون المقام المعين لهم في الكتاب العظيم الذي يروي مصير الكنيسة الجـامعة ، ويتمّ انشاؤه شيئاً فشيئاً بدون عجلة ولا غرض او هوى .

٧ ـ الفاتيكان والسياسة .

ترى هل تعنى وزارة الدولة بمشاكل الكنيسة لا غير ؟ كلاً . فان العصر الذي نعيش فيه لا يسمح بتمييز ميادين العمل الواحد من الآخر ، ولا باقامة فواصل محكمة بينها . ان الفاتيكان مرتبطٌ بالعالم اجمع ارتباطاً وثيقاً ، فلا يمكنـه التملص من خوض غمار السياسة . ولا ننسَ ان ذكر السلطة الزمنية ، التي تمتع بها الباباوات قروناً طويلة ، لا يزال حياً في

الفاتيكان ، فيثير طموحاً الى تمثيل دور وبسط نفوذ . غير ان نقطة الانطلاق هنا مختلفة عنها في الدول الزمنية . فالهمُّ الاكبر – الاتجاه الوحيد في وزارة الدولة – انما هو الكنيسة . فحكم الوزارة على الامور الجارية والاحزاب ورجال السياسة انما يتعلق بطريقة مباشرة بالخير او بالضير الذي قد ينجم عنها بالنسبة الى حالة الكثلكة في العالم . وهذا قبل كل شيء ما يحرك فيها العطف او الحذر ، وما يدفعها الى عقد احلاف او اقتراح تبادل خدمات حبيّة ، او يحضها على الكفاح والنضال .

على ان ازمّة هذه السلطة في يد حاكم مطلق السيادة ، فيبقى لميوله الشخصية ولسلالته الاجتماعية تأثيرهما . فالبابا من حيث انه رئيس الكنيسة يظل بموجب وظيفته فوق الاختلافات القومية والمنازعات السياسية . ولكنه ، من حيث انه رئيس الدبلماسية الفاتيكانية او مرجعها الاخير ، لا بدّ له من الهبوط الى نطاق النسبيات . فهنا العقيدة الايمانية لا تفرض قواعد ثابتة للاعمال التي يقوم بها كل يوم ، ولا عصمة من الغلط تحميه . ووزير الدولة ، في تعاطيه الشؤون الزمنية ، يختلف عمله وفقاً لطبع البابا وميوله وصفات معاونيه والتعليمات التي عليه ان يتقيد بها . ان الفاتيكان يحاول ، من علو رابيته ، ان يتنسم من اين تهب الارياح والى اين تتجه ، ويود لو يستبق معرفة التيارات

السياسية والاجتماعية . وقد يحـــالفه الحظ او يخونه وفقاً للظروف .

ولسائل عما اذا كان لعمله فاعليته ونفوذه . فهنا لا بد من ايضاح جوهري . فالفـــاتيكان ، كمؤسسة سياسية ، شيء ، والاساقفة وسائر الاكليريسيين والمنظمات الكثوليكية ، عبر العالم باسره ، شيء آخر . ان لرجـــال الاكليرُس الوطني تقاليدهم ونزعاتهم وميولهم وسياستهم على الاخص ، فقد يكونون من الموالين ، وقد يكونون من المعـــارضين ، بالنسبة الى السلطات العالية القائمة في بلادهم . فاليهم يعود ان يقرّروا لمصلحتهم جدول اعمـالهم ، مبتدئين بما يرونه منها اكثر اضطراراً ، وان يدرأوا الاخطار التي يشعرون بانها تهددهم اكثر من سواها . وعلى هذا ، فانهم يكونون في هذا البلد من انصار الجمهورية ، وفي البلد الآخر من انصار الملكية .

فليس من السهل على وزارة الدولة ، في هذه الظروف ، ان تفرض على الاساقفة والكهنة وجهة النظر التي تبدو لها سديدة . ان السفراء البابويين يضمنون مبدئياً الاتصال بينها وبين السلطات الكنسية الوطنية العليـا ، وقد يستطيعون بنفوذهم الذي لا يستهان به التوفيق بين الجانبين . غير انهم ، على قدر كبير ، ضحايا الانحطاط الدبلماسي الملحوظ في كل العالم . فالتيارات القوية تجري خارج نطاق عملهم ، وعلاقاتهم الشخصية تنشأ بسرعة كلية ، قبـل ان يتمكنوا من معرفة

ما سيكون لهـــا من وقع او نفع . والناس من المؤمنين وسواهم اصبحوا لا يطيقون الصبر على ان تـدس الكنيسة اصابعهـــا في الحقلين السياسي والاقتصادي . ان كلمة « الاكليرسية Cléricalisme » لم تكن قط اسوأ وقعاً في النفوس مما هي عليه في ايامنا .

لا يتوصل الفاتيكان دائماً الى ان يقتاد الجمـــاهير الكثوليكية ، بطريقة مباشرة ، الى العمل بتوصياته ، الا فيما يتصل بالقضايا الدينية البحتة . فالاحزاب الكثوليكية عديدة ومتناقضة الاهداف والوسائل ، تقوم معــاً بنشاطها في البلد الواحد ، فمن المحال تنسيق اعمالها على الصعيد السياسي او الاقتصادي ، بالاستناد الى توجيهات دينية . فهل من ريب في ان الفاتيكان ، في الحربين العالميتين الاخيرتين ، لم يتمكن من فرض وجهة نظره بصورة جازمة ؟ والآن ، لا اثر له محسوساً في المنظمات العالمية ، ولا في منظمة الامم المتحدة ، إلا بطريقة خفية ؛ ما عـــدا بعض فرص تتيح له التدخل على يد علاقته الوثيقـة بالبلدان الكثوليكية نظير الشعوب الكبرى في اميركا الجنوبية .

ولا بـــد من التصريح بـــان الاكليروس نفسه يختلف بمواقفه من الشؤون الزمنية ونظرياتـه فيها . فندر ان تنعم جمعيـات رهبـــانية في حياتها الداخلية ، فيما يلامس المعضلات السياسية ، بمثل حرية اعضائهـــا في الايام

الحاضرة . فبين اقطاب الرهبـــان الدومنكيين من نراهم في اقصى اليمين ، ومنهم في اقصى اليسار ؛ والى جانب المحافظين المتطرفين ، نجد فرقاً يسارية مناضلة . وعلى هذه الحال الرهبانية اليسوعية نفسها ، مهما بدا ذلك غريباً ، لما هو معروف لدى العامة والخاصة عن صرامة قوانينها ونظامها الداخلي وتوحيد اهدافها وخططها .

وما عدا ذلك ، فالحـــالة العالمية ليست من البساطة والوحدة بحيث يستطيع الفاتيكان ان يلتقط صورة واضحة عنها . وكثيراً ما يتعذر على الدواوين الرومانية استخلاص الواقع الراهن واستجلاء الجو السائد في بلد ما ، بالرغم من معرفتها لتفاصيل الامور بدقة .

هذا فيما يلامس الزمنيات . اما في شأن مصالح الكنيسة الكبرى ، فالامر على العكس ، لان هذه المصالح لا تتعرض الى اذى ، إلا اذا كانت وديعة الايمان التي تحرسها الكنيسة بكل حرص في حالة الخطر . وهذا يحصل كلمـــا اقترن الهجوم على الكنيسة بحرب فكرية عقائدية ، او بُشِّر بديانة نقيضة الديانة المسيحية ، ونشأت كنيسة دجـالة . فعندئذ ، لا ينشط الطابق الثالث وحـده في الفـــاتيكان للعمل والدفـاع ، بل ينبري رأس الكنيسة نفسه ، ووراءه رجال حكومته باسرهم ، وفي المقدمة المشرفون على مجمع السنتفيش المقدس . فيتجـــاوب عمل البابا في الضمائر الكثوليكية ،

كما حدث ، مثلًا ، على إثر الرسالة العامة التي اذاعها بيوس الحادي عشر وشجب فيها القومية الاشتراكية الوطنية التي نادى بها هتلر زعيم المانيا في حينه .

الفصل الثالث

الكرادلة

١ - من هم الكرادلة .

اسهبنا في الحديث عن معاوني البابا في دارته ومكتبته وفي وزارة دولته . فالكرادلة كذلك اعوان البابا الطبيعيون ، امراء الكنيسة، اصحاب المقامات العليا فيها ، وهم الذين ينتخبون البابا دون سواهم . وفي الشرع الحالي لا يكون المنتَخَب إلا واحداً منهم . فكلٌ منهم وليُّ عهدٍ ووريث عرش ، مرشح لان يخلف مار بطرس ومن بعده من الاحبار الاعظمين على كرسي رومية .

(والكرادلة فئتان : معاونو البابا ورجال حكومته ورؤساء دواوينه ، يقيمون معه او بالقرب منه في حاضرة الفاتيكان او في القصور والبنايات الملحقة بها في رومية وجوارها ، وهم تقريباً الثلث ؛ ثم بعض بطاركة الكنائس الشرقية وبعض اساقفة العواصم والمدن الكبرى في العالم اجمع ؛ وهؤلاء ، مع احتفاظهم بكراسيهم في ابرشياتهم وقيامهم بالفعل بسياسة شعوبهم ، هم اعوان البابا الاخصاء ، اصحاب الرأي

والكلمة لديه).

ان عدد الكرادلة الاعلى سبعون حتى الآن ، على غرار الشيوخ السبعين الذين جعلهم موسى النبي ، بامر الله ، من خاصته وبطانته كمستشاريه . وقد حدّد البابا سيستس الخامس هذا العدد سنة ١٥٨٦ . ومن المنتظر زيادته ، لان حدود الكنيسة قد امتدت جداً منذ القرن السادس عشر . وكلما عيّن البابا كرادلة جدداً ، قامت صعوبات جمة في وجهه . فالامم الكثوليكية العريقة في القدم لا ترضى بتنقيص عدد كرادلتها ؛ والامم الاحدث عهداً والكنائس الجديدة تطالب بان يكون في مجمع الكرادلة اعضاء من بنيها ، وبالاخص شعوب اميركا الجنوبية ، المتعطشة الى الارجوان الكردينالي . وهذه ينالها الكثير من الخيبة والاستياء عقيب كل جمعية كردينالية يعيّن فيها البابا كرادلة جدداً .

في الاصل كان الكرادلة يؤلفون اكليرُس مدينة رومية وابرشيتها ودائرتها المتروبوليتية ، بما يقتضيه ذلك من اساقفة وكهنة وشمامسة . فيحيطون بالبابا بوصفه اسقف رومية ومطران (متروبوليت) منطقتها ، يخدمون النفوس تحت امرته ويمدونه بالرأي . والى اليوم يُنصَّب كل كردينال على كنيسة في رومية او ضواحيها بمثابة شماسها او كاهنها او اسقفها وفقاً لمرتبته الكردينالية . فالكرادلة ، من اي بلد كانوا ، يصبحون بذلك رومانيين حتى في ايامنا . فذوو

المرتبة الاسقفية منهم سبعة فقط ، ابرشياتهم تحيط بالمدينة الخالدة ؛ ومن المحتوم بانهم يكونون قد قبلوا درجة الاسقفية . وما بقي فمعظمهم كرادلة ذوو مرتبة كهنوتية ، وان كانوا في الاغلب من ذوي الدرجة الاسقفية . اما ذوو المرتبة الشماسية فهم الاقلية ، وقد يكونون من اصحاب الدرجة الاسقفية او الكهنوتية ؛ وكان البعض منهم في الماضي البعيد من غير اهل الكهنوت ، كبعض وزراء ملوك فرنسا (مازران Mazarin) . فحتم الشرع الحالي بان يكونوا على الاقل من اصحاب الدرجة الكهنوتية اي القسوسية .

وبعد تعيين الكردينال واستيلائه بصورة حافلة على كنيسة مرتبته ، يصبح المحسن اليها وحاميها . فتقع على عاتقه ، من جراء ذلك ، تبعات مالية جسيمة ، قد ينوء تحت عبئها اذا كانت موارده ضئيلة . فالالقاب الكردينالية معلقة غالباً بكنائس اثرية جميلة ؛ فيقتضي الحفاظ عليها ، وخاصة بعض الترميمات فيها ، مبالغ غير زهيدة . ولهذا يؤثر البابا ان يعين كرادلة اميركيين ، معروفة ابرشياتهم بغناها المالي ومؤمنوهم بسخاء اكفهم ، للكنائس الاكثر حاجة . فالكردينال اسبلمن ، اسقف نيويورك ، مثلًا ، أعطي كنيسة القديسين مار يوحنا ومار بولس ، وهي من اجمل كنائس رومية ؛ وكانت بحاجة الى ترميمات تتطلب مالاً جزيلًا . فاستحق الثناء والجزاء لانه قدم النفقة اللازمة لاعادتها الى رونقها .

يُطلق اسم « الجمعية الكردينالية » Consistoire على اجتماعٍ يدعو البابا اليه جميع الكرادلة الموجودين في رومية ، أيـاً كانوا ومن اي بلد جاؤوا ، فيعقـد الجمعية معهم ويرئسها ؛ وفي القديم كان يتداول واياهم في المشاكل الكبيرة العـائدة الى سياسة الكنيسـة جمعاء ؛ واما الآن ومن زمن بعيد ، وقد توطدت قضية السلطة البابوية المطلقة ، فلم يعد لجمعية الكرادلة حق بالتصويت على المقررات . فاصبحت فرصة فقط يوجه فيها البابا بنوع حافل ، ومراراً بصورة سرية ، رسالة الى اصحاب المقامات الاعلى شأناً في الكنيسـة . وفي هذه الجمعية (وقد تكون « سرّية » ، او شبه سرّية ، او علنية ») ، يذيع البابا تسميته كرادلة جدداً .

٢ – ما يقتضيه المقام الكردينالي من نفقات .

سنة ١٩٣٦ ، اصدر احد موظفي مجمع الاحتفالات الحبرية كتيّباً أنيق التنضيد والطبع والجلد ، اودعه ما تنبغي معرفته لكردينال جديد فيما يعود الى وابل الاكرامات التي عليه ان يغدقها ، عن اليمين وعن اليسار ، احتفاء باختياره عضواً في مجمع الكرادلة Sacré Collège des Cardinaux . وقد قيل لكردينال جديد في السنة الاخيرة : « يا صاحب النيافة ، كان كنّاسو قداسته السريون يُعطون ، سنة ١٩٣٦ ، ٣٥ ليراً (الليرالايطالي يعادل نصف قرش لبناني) ، فلنيافتكم ان تجري ما

تراه ؛ ولكن الراهن ان المعيشة قد زادت مقتضياتها كثيراً وان الاسعار قد ارتفعت منذ ذاك الحين ... »

على الكردينال الجديد ، بادىء بدء ، ان يدفع سلفاً مبلغ مائة الف لير لاجل دفنته ، لان الادارة الفاتيكانية شديدة الدراية ، فلا تشاء ان تفاجأ يوماً بدفع نفقات غير ملحوظة .

وعليه تقديم مبالغ معينة الى العائلة الحبرية ، وهي جملة اصحاب المقامات في الدواوين والمجامع ووزارة الدولة ، الخ ... على ثلاث دفعات : وقت تعيينه ، وعند قبوله القبّعة الكردينالية ، وعند استيلائه على كنيسة مرتبته .

فعند تعيينه ، يقدم بضعة آلاف لير الى مجمع نشر الايمان المقدس ، فيهدي هذا اليه ، بقوة انعام قديم ، خاتمه الكردينالي ؛ — وكان المعين ، سنة ١٩٣٦ ، لكاهن المعبد البابوي ، ١٦٥ ليراً ، ولكل من شمامسته ، ٦٠ ليراً ؛ — لسكرتير مجمع الكرادلة ، ٢٧٠ ل ؛ — لمقدم المباشرين الرسوليين ، ٦٠ ل ؛ — لمحاسب مجمع الكرادلة ٢٧٠ ل ؛ — لكنّاسي قداسته السريين ، ٣٥ ل ؛ — للحمالين المعيّنين لغرفة قداسته ، ٢٥ ل ؛ — لخَدَمة وحمَلة العرش المنقول ، ١٦٢ ل ؛ لحافظ خزانة الكتب في المعبد الحبري ، ٣٠ ليراً .

وعند قبول القبعة ، عليه ان يكرم حجاب قداسته الاخصاء ، وخدمة غرفته ، والذي يحمل القبعة الى مقر نيافته ، والكاهن المعاون في المعبد البابوي ورفقته ،

والكناسين السريين (مرة ثانية) ، وحوذي العائلة الحبرية ، والحرس السويسري ، وبوّاقي الحرس البلاطي وطبّاليه ، والاطفائية .

وعند وضع يده على كنيسة مرتبته ، يقوم بمثل ذلك نحو بعض الاشخاص ولاسيا « عائلات » المجامع المقدسة التي سيعيّن عضواً فيها .

وللكردينال المقام الاول في نظام التشريفات بعد الملوك ورؤساء الدول واولياء العهد . فعليه ان يبعث اليهم برسائل يعلنهم بهـا رتبته الجديدة . ويُخصّ منهم بالذكر الملوك الكثوليكيون . على ان عدد هؤلاء قد اخذ بالتقلص ، فلم يبقَ منهم على الارجح سوى ملك بلجيكا .

وعليه ان يكتب الى البابا ، وفقاً للترجمة الرسمية التي تبدأ بها هذه الرسالة وتختم ، ويكون مدير الاحتفالات قد سبق فبعث بها اليه ؛ وكذلك الى عميد مجمع الكرادلة .

اما العبء الذي يثقل عاتق الكردينال الجديد اكثر من سواه ، فهو ما ينفقه على حلته الرسمية ؛ إلا اذا اسعفه الحظ فوجد في خزائن سلفه ما تركه فيها من الملابس الكردينالية مما يوافق ، على التقريب ، قامته .

ان هذه الملابس باهظة الثمن ، بالرغم من القرار الذي اتخذه البابا بيوس الثاني عشر ، من زمن قريب ، وبه حوّر بعض ما يعود اليها ، عامداً الى جعلها اكثر بساطة وأقلّ

ثمناً ، من مثل تقصير ذيل « الغنباز » الاحمر والبنفسجي ، واستبقاء نصف ذيل الرداء Cappa ، وجعل الملابس البنفسجية في ايام الصوم والتوبة من الصوف عوض الحرير ، الخ ...

ومع ذلك فقد قدّر افضل الخياطين الكنسيين في رومية نفقات الملابس الكردينالية كما يلي : ١٢٠,٠٠٠ لير للغنباز الاحمر ؛ ١٠٠,٠٠٠ لير للغنبــاز الصوف ؛ ٩٠,٠٠٠ ل للرداء الكبير في الزيارات وهو من الصوف القرمزي ، مع ما يلزم له من مخمل وحرير ؛ - ٩٠,٠٠٠ ل لمثله بنفسجياً ؛ - ٦٠,٠٠٠ لبلرين حرير احمر متموج ؛ ٦٠,٠٠٠ لمثله بنفسجياً ؛ للوشاح الكبير Cappa Magna من القرمز المتموج مع ذيله ، ٨٥,٠٠٠ ل ؛ - لمثله بنفسجياً ٨٥,٠٠٠ ل ؛ - لفروة ارنب تلبس فوق رداء الزيارات ، ٢٥,٠٠٠ ل ؛ - للزنار القرمزي المتموج مع شراريبه المذهبة ، ٢٣,٠٠٠ ل ؛ - لزنار مع شراريب حمراء من الحرير ، ٨,٠٠٠ ل ؛ - لبــلرين من الصوف اسود بنصف كمّ مبطن بحرير احمر ٤٢,٥٠٠ ل .

اما القبعات فانه بحاجة الى ثلاث منها : حمراء من جلد قندس Castor للحفلات الخارقة ، ثمنهــا : ٢٥,٠٠٠ ل ؛ - وسوداء من الجلد عينه بشريط مذهب للحفلات العادية : ٢٠,٠٠٠ ل ؛ - وعادية بشريط مذهب : ٨,٠٠٠ ل . اما القبعة التي يسلّمها البابا الى امير الكنيسة الجديد ، بصورة حافلة ، فهي تقدمة من قداسته .

والعـــادة ان يُهدي الى الكردينال الجديد ذووه او اصدقاؤه صليب الصدر والتاج والخاتم ، الخ ... الا اذا كانت لديه من قبل . وعلى كلٍ ، فهذه اثمانها على وجه التقريب : صليب الصدر من ذهب وحجـــارة كريمة ، ١٠٠,٠٠٠ ل ؛ – سلسلة ذهبية للصليب ، ١٣٠,٠٠٠ ل ؛ – خاتم من ذهب وفصّه ، ٥٠,٠٠٠ ل ؛ – التاج ١٠٠,٠٠٠ ل ؛ – العـــكاز ، ١٠٠,٠٠٠ ل ؛ (المجموع : ١,٣٢١,٥٠٠ ليرة)

هذا في شان ملابس الكردينـــال المدنية ، اذا صحّ القول ؛ اما الحلل الحبرية الكنسية التي يحتاج اليها ، اذا كان اسقفاً ، فهي نفسها التي يرتديها الاساقفة للقيام بالحفلات الطقسية ، لان الكردينالية ليست سوى رتبة شرفية ، لا تولي صاحبها اي وسمٍ مقدس .

٣ – امراء الكنيسة في دورهم .

ارسل الي الكردينال سيارته ، وهي طويـــلة سوداء مقفلة سيئة الحالة ، يسوقهـــا الاخ ألكـــي . فصعدت اليها وانطلقنـــا سراعاً نحو دار صغيرة في احدى ضواحي رومية الانيقة ، وضعها تحت تصرف الكردينال ، للانتفاع بالسكنى فيها ، بعـد ان صار كردينالاً ، احد الموسرين المحسنين الى رهبانيته (لانه من رهبانيـة قانونية) ، كما

انه تبرّع بما يقوم بنفقة الجهاز المفروض على امراء الكنيسة الجدد ، لان الكردينال كان لا يملك شروى نقير شخصياً ، ورهبانيته من الفقر بحيث تعجز عن القيام بهذه النفقات .

وقد خصّت الرهبانية بعض الاخوة من الرهبان الشبان بخدمته في دار سكناه . فكان منهم الاخ السائق ، والاخ الطاهي ، والاخ السكرتير ، والاخ الخادم . وكان يقوم لديه بمنزلة مرافق شرف Gentilhomme ، وفقاً لما تقتضيه اصول التشريفات ، صديقٌ انكليزي قديم ، يعيش في رومية من ريع ضئيل ؛ وفي الحفلات الرسمية ، كان يحمل رداءه شابٌ استدعاه ، من الريف ، عمّه الغني المقيم بالقرب من دار الكردينال .

ان الاخ ألكسي سائق ماهر . فها نحن بحضرة شيخٍ ضعيف البنية ، كبير القامة ، حنت ظهره السنون . تتطلعه من جانبه فتخال وجهه منحوتاً في قطعةٍ من عاج . وكان امامه قصاصة ورقٍ قديمة ، يضيّق جفون عينيه ليستطيع قراءة خطوطها الدقيقة بنظره الحسير . فلما دخلنا ألقى عليّ نظرة ولد صافية عميقة ، وابتسم ، واخذ يفتّش تحت الاوراق المتراكمة على مكتبه عن خاتمه الاسقفي ، فوجده وادخله في اصبعه ، ومدّ يمينه اليّ وقال : هيّا هيّا ، يا بُني ، قبّل هذا الخاتم تربح بعض الغفرانات .

وبعد قليل قُرع الباب بغاية الهدوء ، فانقطع الحديث الذي كان قد بدأ يدور بيننا : – الغداء حاضر .

قمنا فاجتزنا ردهتين صغيرتين للاستقبال ، مقاعدهما حمراء . وفي غرفة الطعام خوان مستدير أعِدّ لخمسة اشخاص : الكردينال ، والاخ السائق ، والاخ الخادم ، والاخ السكرتير ، وانا . فتلونا جميعاً صلاة تبريك الطعام ، وجلسنا . فاحضر الاخ الطاهي صحن المعكرونة من نوع الساجتي ، واتبعه بآخر من الكوسا بزيت ، ثم بقِطعة لحم ، فالجبنة ، فمربّى الفاكهة . وكانت خمرة فراسكاتي تشعّ في دنّها الزجاجي الصافي . وعند نهاية الطعام ، كان فنجان من مغلي الزهور من حق الكردينال وضيفه فقط . وبعد الطعام تلونا معاً في المعبد الخاص بيتاً من مسبحة العذراء مريم . وعدنا الى ردهة الاستقبال . وهناك جلس الكردينال ، اكراماً لضيفه ، الى البيان ، فاسمعنا قطعتين موسيقيتين : « صلاة عذراء » و « الفتى هنري » ، شنّف بهما آذاننا .

على ان سائر الكرادلة لا يعيشون بمثل هذا التقشف والنسك كالكردينال ليبيسيه Lépicier . فكرادلة الدواوين في حالة مالية لا تدعو الى هدوء البال ، لان المتحدّرين من اسر نبيلة ، عريقة وغنية ، اصبحوا نادرين . فيعيش الكردينال اليوم من الموارد التي تضمنها له الوظيفة التي

يشغلها . فمن كان منهم في الدواوين ، خُصَّ براتب سنوي يراوح بين ثلاثة واربعة ملايين لير ، تقدمه اليه ادارة ارزاق الكرسي الرسولي . ويُقدَّم الى الكردينال الذي يشرف على ادارة مجمع من المجامع المقدسة ، علاوة على ذلك ، راتب شهري قدره نحو ١٥٠,٠٠٠ لير ، يضاف اليه مبلغ آخر زهيد اذا كان عضواً في مجامع اخرى . على ان كل هذا قد لا يسدُّ نفقة بيت يفرض عليه نظام التشريفات مقتضيات عديدة .

وفقاً لمقررات مجمع الاحتفالات ، يجب ان يتميز منزل الكردينال بالخصائص التالية : سلّم خارجية جميلة المنظر ، لا علاقة لها بسلّم الخدمة ، غرف السكنى الخاصة ، رواق صغير ، قاعة انتظار ، قاعة اجتماع ، ردهة العرش ، ردهة استقبال ، ومعبد خاص . ويجب ان يعلو باب الرواق مظلة او قبّة مبطّنة بالجوخ الاحمر ، وان يوضع الى جانبٍ منه ، تحت قبة كالسابقة ، تتدلى منها اهداب من حرير اصفر ، مقعدٌ ووسادته مغطّيان بقماش من صوف احمر ، يتوسط الوسادة شعار الكردينال . ويجب ان يزين هذا الشعار ابواب قاعة الانتظار ، حيث لا بدّ من قطعة أثاث توضع عليها قلنسوة الكردينال المثلثة القرون Barrette . أما قاعة العرش فتفرش باقمشة ارجوانية ؛ وعلى الجدار الاقصى منها قبة حمراء باهدابها

المذهبة تمتدّ فوق صورة الحبر الاعظم .

ولكل كردينال « عائلته » اي بلاطه . وبالرغم من الظروف الحاضرة ، فهي ما زالت تتألف ، على الاقل ، من كاهن رئيس غرفة ، ومرافق من الاشراف ، وكاهن يحمل الذيل ، ورئيس خدم . ولكل من هؤلاء بزّة رسمية يحتم بها نظام الاحتفالات . فالشريف يرتدي بنطلوناً من حرير اسود وسترة متموجة ، ويلبس جوارب حريرية وحذاءً ذا بزيم فضي ، ويحمل سيفاً قصيراً ، وعلى رأسه قبعة بقرنين وريش نعامة سود .

ولا بدّ للكردينال من سيارة وسائقها فالمفروض مبدئياً ألا يمشي الكرادلة في شوارع رومية . ولكنهم قد يخالفون هذه القاعدة . على انهم نُبِّهوا الى تجنب الشوارع المطروقة .

ان القيام بنفقات بيتٍ على هذا الشكل ليس بالامر الهيّن . ولهذا يقيم معظم كرادلة الدواوين في دارات رسمية بالقرب من الفاتيكان ، إما في المجامع التي يديرون شؤونها ، وإما في القصور الرسولية العديدة خارج حاضرة الفاتيكان . فقصر مجمع التفتيش وحده يتسع لسكنى خمسة كرادلة .

واكثر امراء الكنيسة المعوزين يعوّلون على بعض موارد اضافية . فكرادلة الدواوين جميعاً يعيّنهم البابا

« حماةً » للعديد من الرهبانيات وجمعيات الراهبات ليدافعوا عن مصالحها في رومية . ويتمّ التعيين وفقاً لحالة الكردينال المالية . فمن كان في سعةٍ يمين لحماية رهبانيات فقيرة محتاجة ، بخلاف من كان في حاجة فيجعل حامياً لبعض اديرة ميسورة يمكنها ان تتوفر على مدّه بشيء من المساعدة ، او على الاقل ان تدعوه الى قضاء عطلته الصيفية ضيفاً كريماً عليها .

وهناك طريقة نادرة ، ولكن جد فعّالة ، لزيادة دخل الكرادلة ، هي تمثيل البابا . فاذا اقيمت اعيادٌ حافلة في بلدٍ ما ، وأوفد البابا كردينالاً من قبله ، يمثل شخصه بالذات ، فيُستقبل بمظاهر الحفاوة والتكريم التي تحق للحبر الاعظم نفسه . وكان لبعض هذه « القصادات » ، في تاريخ الكنيسة الحديث ، شأنٌ يذكر بسبب نتائجها الموّفقة . منها مثلًا ايفاد الكردينال باتشلّي الى لورد والى ليزيو في فرنسا ، احتفاءً بالاعياد التي اقيمت في الاولى للعذراء مريم ، وفي الاخرى للقديسة تريزيا الطفل يسوع . وبلدان اميركا الجنوبية ، العريقة في الكثلكة والحماسة بمظاهر البهرج الخارجي ، تُعدّ لممثل البابا استقبال الظافرين . وبهذه المناسبة تقدم اليه هدايا ثمينة . وقد اخبر الكردينال روفيني Ruffini ، مطران رافنا ، انه كان يمثّل البابا مرة ، فدعته اسرة غنية لتناول الطعام . فما كان اشد دهشته ،

اذ جاءه الغلمان ، في آخر الوليمة ، بقرص كبير من الحلوى ، فقطعه فوجد فيه الماسة ثمينة : تقدمة احترام من ربّ البيت الى ممثّل البابا .

٤ـ بساطة كرادلة الدواوين في معيشتهم .

انقضى وزال الى الابد ، على ما يظهر ، عهد كرادلة عصور النهضة . فلم يعد في الكنيسة الآن امثال اولئك الكرادلة ، مناصري العلوم والفنون ، وحَضَنة الفنانين والعلماء والادباء ، المحنّكين في مدّ الموائد ، المعنين بالخيل والصيد ومواكبها ، الذين يروقهم عزف الموسيقى وتمثيل الروايات ؛ وقد يزجّون بانفسهم في دسائس سياسية ، ومكائد ومغامرات اخرى . فالكتبة القصصيون : بورجه ودَنّتزيو وزولا ، شاهدوا بعضاً من امراء الكنيسة متجلببين بالارجوان ، يقومون بنزهتهم بكل ابهة ، على الطريق الأبيّة Via Appia على مدخل رومية . وكانت الشمس تلقي اشعتها المحتضرة على قناطر الماء الحمراء والمدافن الوردية اللون ؛ وعجلة الكردينال تمرّ بجوذيها وخادم نيافته ببزته الرسمية ، متأثّرة خطوات شيخ يرتدي الارجوان المتموج . فالكرادلة في تلك الازمنة كانوا يحافظون على التقليد الذي يحظر عليهم ان يدوسوا ارض المدينة الخالدة ، فكانت لهم مواكبهم ولم يكونوا

يتورعون عن الظهور بالملابس الباهرة التي كانت تفرضها عليهم دوائر الفاتيكان .

اما اليوم ، فانك غالبا ما تصادف في وسط المدينة ، اميراً من امراء الكنيسة يسير على قدميه ، متنكراً برداء اسود طويل ، كاحد الاكليرسيين العاديين .

غير ان كرادلة رومانيين لا يزالون يملكون حتى اليوم قصوراً في جبال الابروز Abruzzes او في فراسكاتي Frascati بالقرب من رومية ، حيث يعنون بالكرمة ، ويجلسون الى موائد لا ينقصها شيء من الوان الطعام والشراب . وهم لا يخرجون على طريقة المعيشة الصارمة الدارجة في رومية العصرية ، فيكبون مثل زملائهم على العمل الشاق ، وقليلًا ما يشتركون في موائد العشاء لدى السفراء ، او في السهرات التي تحييها الارستقراطية « السوداء » (الاكليرضية) ؛ وقد تلمحهم احياناً في سياراتهم السود الطويلة من وراء ستاراتها ، وكأن الاحتفالات الطقسية الفخمة واريج البخور قد عودتهم رفع الرأس عالياً مشمخراً ، ومشية مهيبة مسيطرة .

ولكنهم يستعيدون ، في دائرة اقطاعهم ، مظاهر السادة العظام . فالقرية برمتها تعرف ، بكل سهولة ، بوصول صاحب النيافة ، فتزحف الى لقياه . ويبدأ عميد

الكهنة او كاهن الرعية ، فيقدم اليه هدايا شبه طقسية ، ويتبعه الوجوه والاعوان . ثم توقد الافران لاعداد الطعام للاصدقاء المدعوين من رومية . ويغتنم السكان كل فرصة لينصبوا على شرف كردينالهم اقواس النصر ، ويستروا جدران منازلهم من الخارج باعلانات كتبت بسرعة لاكرام « المحسن الكبير » و « الحامي القدير » الذي « يأتي باسم الرب » . وحتى في داخل الكنيسة ، تشيد صحائف الرخام بعبارات منمقة بسخاء الكردينال . وليس في القرية من لا يتمنى ، حتى لو كان شيوعياً ، ان يرى يوماً « كرديناله » جالساً على عرش مار بطرس .

على ان الكردينال العصري ليس من هذا الطراز . فهناك من يجوب العالم بالطيارة ، مثل اسبلمن ؛ ومن يقتحم المصانع فيخطب في العملة الشيوعيين ، مثل لركارو مطران بولونية ؛ او يتنقل بين الهند والولايات المتحدة الاميركية ، مثل تيسّران ، عميد مجمع الكرادلة . انه لمدهش حقاً اختلاف الاجواء التي يعيش فيها ، من جهة ، الكرادلة رؤساء الابرشيات ، المتأهبون دائماً للقتال ، والمضطرون الى مجاراة الحياة العصرية في سيرها الجامح ؛ ومن الجهة الثانية ، كرادلة الدواوين الرومانية الذين يقتبسون ، في حاضرة الفاتيكان الصغيرة ، دروساً في الفطنة والدراية كأنها مقتبسة من اهل الريف .

ان عدد كرادلة الدواوين ينقص شيئاً فشيئا ، فانهم حالياً تسعة عشر كردينالاً ، وكلهم ابطاليون ، ما عدا واحداً فقط ، هو عميدهم ، المولود سنة ١٨٨٤ . فهو بسنّه احد اصاغر الكرادلة المقيمين في رومية ، ولكنه اقدمهم في الكردينالية . ان معدّل عمر كرادلة الدواوين مرتفع جداً ، فكأن مجمع الكرادلة يطيل العمر . فبينهم اليوم اثنا عشر كردينالاً تجاوزوا الثمانين ، وسبعة وعشرون فوق السبعين .

ليس كرادلة الدواوين في الغالب من الرجال اللامعين . فقد كانت الكردينالية في رومية مكافأة لموظفين دنا اجلهم او قضوا حياتهم عاملين باهلية وصدق وتجرد في خدمة الفاتيكان . ثم إن بعضهم مدين بهذا المقام الرفيع للصدف والطوارىء .

ويحدث احياناً ان الكرادلة ، القيّمين على المجامع المقدسة ، يشيخون في مناصبهم ، فينجم من ذلك مشاكل عويصة ، لانه ليس اصعب من استبدال الشيوخ ، في الفاتيكان ، بآخرين اقلّ منهم هرماً . فيلجأ البابا آنئذٍ الى استعمال ملء سلطته ، والى شيء من القساوة ، ليوجب ، بقوة سلطانه المطلق ، على احد امراء الكنيسة اخلاء المنصب الذي ما عاد يقوى على القيام بمقتضياته . وبين هؤلاء نفرٌ يقومون برئاسة المجامع ، ولا يُصّرون بعناد على

مواصلة العمل فوق طاقتهم فحسب ، بل يشغلون احياناً اكثر من منصب واحد . فينشأ عن ذلك تأجيل تعيينات جديدة في ميقاتها ، وعراقيل اخرى لا يستطيع البابا الحالي ازاحتها بالنسبة الى طبعه ومزاجه ، فيؤثر تجنّب الاصطدام بها على اتخاذ قرارٍ عنيف بشأنها .

وبين كرادلة الدواوين ، واحد لا غير لا يذهب الى الفاتيكان ، هو الكردينال جوريو Jorio ، المولود سنة ١٨٦٧ . وليس ذلك بسبب تقدمه في السن فحسب ، بل لانه يتعمّد التبيان ، بهذه الطريقة ، عن معارضته للخطة التي يسلكها البابا الحالي في سياسة الكنيسة . فالكردينال جوريو كان من الاقلية التي قالت ، سنة ١٩٣٩ ، بوجوب انتخاب رئيس الكنيسة من الرعاة الذين تمرسوا في خدمة النفوس ، ويولون الروحيات الاولية والافضلية .

القسم الثالث

الدواوين الرومانية

الفصل الاول

موظفو الدواوين الرومانية

١ – الموظفون ودرجاتهم.

هوذا الساعة الكبرى ، في ساحة القديس داماز في قلب الفاتيكان ، تدق الواحدة والنصف ظهراً . فيرتكز الدركي البابوي قلبقه الضخم ، وتصرف مصاعد وزارة الدولة صريفها ، وان هي الا طرفة عين حتى تغص الساحة والاروقة والسلالم المرمرية باسراب من الغنابيز السود ، تتخللها هنا وهناك جبب بنفسجية مهيبة ، يسرع لابسوها الى حيث تنتظرهم قصعة من المعكرونة الساخنة الفائرة ، تليها القيلولة التي تطيب لسكان شواطىء البحر المتوسط .

وفي هذه الساعة ، ترى المشهد عينه في قصر القديس كاليست الفسيح الارجاء الذي يضم عدة مجامع مقدسة ؛ وفي ممرات مجمع الكنيسة الشرقية ، حيث تتجاوب الوشوشات ؛ ووراء ابواب مجمع التفتيش ، حيث « الدخول ممنوع » ؛ وفي مجمع نشر الايمان ، المقر العام للرسالات ؛ وفي محكمة الروتا ، وديوان الختم الرسولي ؛ ومجمع التوبة ،

وسائر القصور التي يملكها الكرسي الرسولي في رومية خارج حاضرة الفاتيكان .

الساعة الواحدة والنصف هي ميعاد خروج الاكليريسيين موظفي الدواوين الرومانيين من مكاتبهم .

بين هذا الجمهور الغفير من كهنة يجتاحون فجأة شوارع الفاتيكان وقصور الكرسي الرسولي ، نجد كهنة عاديين ، ومنسنيورية ورهباناً خصهم رؤساؤهم بخدمة ادارة الكنيسة المركزية . واذا استثنينا قلة تؤثر دوماً التواضع والدعة على شرف المراتب ، يُصبح الموظف الفاتيكاني ، بعد بضع سنين ، بطريقة آلية ، منسنيوراً ، شرط ان يكون اميناً في خدمته ، ومن الاكليرُس العلماني ، لان الرهبان ، وهم من اهل الزهد والنسك ، يعزبون على مدى الحياة عن قبول المراتب الشرفية .

على ان للقب منسنيور درجات متفاوتة عديدة ، وفقا لأهمية الوظيفة التي يشغلها حامل اللقب في الدواوين . وتقاس هذه الدرجات بفروق دقيقة في اللون البنفسجي البادي على الجوارب وازرار الملابس وعلى الشرائط والاردية التي يحق لبسها سواء في الحفلات الكنسية الطقسية او في الاستقبالات المدنية الرسمية . فالارجوان علامة الدرجة العليا ، اي الكردينالية ، اذ ان الابيض محفوظ للحبر الاعظم . وكلما علت درجة الموظف ، تتبدل فروق اللون البنفسجي من الزاهي

الى الحمري فالقرمزي .

ان عدد الموظفين الاكليريسيين في الدواوين الرومانية يناهز الالف ، ما عدا اصحاب المقامات العالية : الكرادلة والمطارنة والاساقفة الذين يديرون المجامع . وليس بين الموظفين من العلمانيين سوى بعض خبراء ومستشارين او صغار الموظفين . وانه ، والحق يقال ، لعدد ضئيل جداً بالنسبة الى حكومةٍ جُعِل العالم باسره دائرتها الاقليمية ، فضلاً عن ولايتها على النفوس .

٢ – نظام الموظفين الداخلي .

سنة ١٩٥١ ، اذاع البابا بيوس الثاني عشر نظاماً دقيقاً ، حدّد فيه شروط انتقاء الموظفين وموجبات سلوكهم . والحبر الاعظم يعيّن بذاته اصحاب المقامات والمراتب العليا ، وتبلغهم وزارة الدولة تعيينهم ببطاقة منها . ومن دونهم من الموظفين ، فيعيّنون عادة باتفاق خاص بين رئيس المجمع والاسقف او الرئيس العام ، صاحب الولاية على المرشح للوظيفة ، ومن المقرر ان لا يقل عمره عن اربعٍ وعشرين سنة ، ولا يزيد على خمس وثلاثين ، ومن عائلة معروفة بحسن الاخلاق والتدين ، ومشهود له بحسن السلوك الديني والادبي والوطني ، وان يكون في حلٍّ من الخدمة العسكرية . ويشترط في الاكليريسي ان يكون حائزاً ،

مبدئياً ، مأذونية في اللاهوت ، واخرى في الحق القانوني ، على الاقل ، وان يُتقن لغتين عصريتين ، ويعرف بسهولة اللغة اللاتينية .

ويصرح البند الثاني عشر من النظام الداخلي بان على كل موظف في الدواوين ان يُقسم اليمين التالية : « باسم الرب ، انا فلان الفلاني اعلن واعد واقسم اني اكون مطيعاً على الدوام للطوباوي مار بطرس ولسيدنا البابا فلان وخلفائه الشرعيين ، واني اقوم بكل اجتهاد بالمهام التي توكل اليّ في هذا المجمع ، واحفظ بكل دقة سر المهنة ، وأعد ايضاً اني لا اقبل اية عطية ، ولو كانت على سبيل الهدية . وعلى هذا فليكن الله في عوني ، وهذه الاناجيل المقدمة التي المسها » .

ويقضي البند الثالث عشر على الاكليريسين ان يبرزوا صك الايمان والقسم المفروض ضد مذهب « العصرية ».

ويستدرك النظام ، وواضعه هو الكردينال كنالي المشهور بدقته ، كل ما يتوقع حدوثه للموظفين ، ويحرص على حفظ سلطة الرؤساء قبل كل شيء . من ذلك ، مثلاً ، انه في الحالات القليلة جداً التي فيها يتم اختيار الموظفين بطريقة المباراة ، لا يقبل احد في المباراة إلا بقرار أعلى من الكردينال رئيس المجمع . واذا تغيّب احد الموظفين ، فعلى رفاقه في المجمع ان يكونوا دوماً تحت تصرف الرؤساء ليقوموا مقامه ، بدون ان يحق لهم تعويض

ما بسبب ذلك .

ويورد البند الاربعون سلسلة طويلة مما يُحظر على الموظفين : لا يؤذن لهم ، في ساعات العمل ، ان يتحادثوا ، او يستقبلوا ، او يتغيّبوا ، ولو وقتاً قصيراً جداً ، بدون رخصة من الرؤساء . ويحرم عليهم قبول تقادم مالية او عينية ، والانخراط في احزاب سياسية ، والاشتراك في جمعيات او منظمات لا تتلاءم تعاليمها وانظمتها وتعليم الكنيسة ونظامها .

ومن حصل من الموظفين على انعام السكنى داخل حاضرة الفاتيكان ، فيتوجب عليه ان يقيّض للرؤساء الاتصال به بسرعة ، عند الحاجة ، في اية ساعة كانت من النهار او الليل . وعليه ان يقوم بما ينتدَب له من عمل عند الضرورة ، حتى لو كان ذلك علاوة على عمله القانوني . ومن لا يتمّ هذه الشروط ، يتعرّض لخسران منزله الفاتيكاني ، بقوة السلطة المطلقة المعطاة للرؤساء .

ولا يهمل النظام الداخلي تعيين اسباب العزل . فمنها افشاء السرّ ، والوقوع تحت عبء الديون ، وارتكاب ما من شأنه ان يضير سمعة المجمع او ينال من كرامة الكرسي الرسولي ، واقامة دعاوى على موظف حتى لو انتهت بتبرئته ، الخ ...

اما المعاشات فجد زهيدة . فالموظف لا يعطى في البدء اكثر من ٤٠,٠٠٠ لير ايطالي شهرياً (٢٠,٠٠٠ قرش

لبناني) ؛ والموظف العادي نحو ٨٠,٠٠٠ ليرة ؛ ومن وصل الى الذروة في ملاك وظيفته فلا يزيد مرتبه على ١٥٠,٠٠٠ ليرة شهرياً ، وهو مرتب كردينال رئيس مجمع . وقد جُعل معاش الاكليروسيين اعلى قليلاً من معاش انداده العلمانيين ، لان الكهنة عادة لا يقبضون تعويضات عائلية ، حتى لو كان على عاتقهم اعالة والديهم ، ولانهم الموظفون الاصليون في الدواوين ، في حين ان العلمانيين ليسوا موظفين فيها الا بطريقة التساهل والتسامح .

ليس للموظفين اية منظمة نقابية ، وليس في استطاعتهم تقديم مطالب جماعية . ومن المعروف ان للرؤساء قمع كل محاولة من هذا النوع على وجه السرعة ، بقوة سلطتهم غير المحدودة . على ان موظفي الدواوين قد انشأوا سنة ١٩٥٣ جمعية اسعاف متبادل .

وبعد ان يخدم الموظف خمسة وثلاثين عاماً ، يحق له التقاعد ، وقيمته توازي المعاش النهائي تقريباً ما عدا التعويضات .

هذا وقد خُصّ فريق من الموظفين ببعض الانعامات ، وهم العاملون في المصرف الفاتيكاني الذي يدعى : « مؤسسة الاعمال الدينية » . فان بين عماله نحو خمسة عشر اختصاصياً من الاكليروسيين والعلمانيين ، وهم ينعمون بنظام خاص وبمعاشات تفوق بكثير معاشات زملائهم في سائر الدوائر الرومانية .

٣ – الموظفون وطريقة معيشتهم.

ليس من غرابة ، والحالة هذه ، ان يضطر موظفو الدواوين الى الاكتفاء بعيشة وضيعة جداً . فانهم يسكنون اديرة ، ويتمونون من مخازن حاضرة الفاتيكان ، حيث الحاجيات ارخص سعراً منها في رومية ، بسبب اعفائها من رسوم الجمرك . وقد يلجأون احياناً الى تجاوز نظامهم ، فيقومون ببعض اعمال خارج الجامع ، ليتمكنوا من تسديد نفقات حاجاتهم آخر الشهر .

على ان في استطاعتهم جميعاً الاستعانة بحسنات القداديس التي قد لا يستغني عنها الكثيرون منهم . ومعلوم ان المؤمنين يرسلون الى الفاتيكان من الاقطار الاربعة حسنات لاقامة قداديس في كنيسة مار بطرس الباسيلية او سواها من كنائس رومية ، كما ان الاساقفة والزوار الوافدين الى رومية يقدمون حسنات للغاية نفسها . فتجمع هذه الحسنات في مكتب رئيس غرفة قداسته ، وتوزع بعدل على الموظفين بحسب حاجة كلٍ منهم ، لقاء تعهدهم باقامة القداديس المطلوبة على نية المحسنين .

ولكن حالة بعض الموظفين في الدواوين وفي البلاط الرسولي لا تبعد كثيراً في الغالب عن الفاقة . فان منسنيوراً جليلاً ، تحاشياً للتورط في العوز ، قد اضطر الى العمل كدليلٍ في متاحف الفاتيكان ؛ ولكنه

لا يؤدي هذه الخدمة الا الى اصدقاء اصدقـــائه حرمةً لمنصبه ومقامـــه . ومن المشتهر ان الموسيقي الكبير ، لورنزو بِروزي Perosi ، المدير الدائم لجوقة المعبد السيستي ، لم يتغلب على صعاب المعيشة الا بفضل حملة صحفية قامت صدفة في ايطاليا ، فاسترعت انتباه الرؤساء الى احد امجاد الفاتيكان في ايامنا . هذا وليس لبعض الكرادلة مندوحة عن قبول الضيافة في دير راهبات ، او في بيت صديق من العلمانيين .

على ان موظفّي الفاتيكان خليقون ، وايم الحـــق ، بحظٍّ افضل . فهم يعنون بتسيير الاعمال في دوائر الكنيسة المركزية على احسن وجه . فاليهم ينتهي بريد ضخم ، يرد من كل بلدان العالم . وعليهم ان يرتّبوا المحفوظات ، ويصنّفوها ، ويضعوا لها العناوين ، ويعلّقوا عليها الحواشي . فلا شيء يضيع ، ولا شيء ينسى ، في الكنيسة ، منـــذ الفي سنة . فاذا اقتصرنا على محفوظات دائرة الختم الرسولي وحدها ، فانها تحوي وثائق السنوات الالف الاخيرة في اكثر من خمسة آلاف مجلّد ضخم ، فضلاً عن انها تحفظ مجموعات يعود تاريخها الى سنة ٢٣٨ م . ومن موظفي الدوائر في المحـــاكم من يحققون الدعاوي ويصدرون الاحكام .

فهذا الجيش من الموظفين الرومانيين يضع يده على ادارة

الكنيسة برمتها ، فان في ملفّاته وثائق اعلان القديسين الى جانب مراسيم الحرم الصادرة بحق المارقين والمذنبين ؛ وقيود تعيين الاساقفة حذاء تثبيت قانون رهبانية جديدة ؛ وتسجيل مشترى اراضٍ للكرسي الرسولي بجوار اضبارات العلاقات الدقيقة بسائر الكنائس المسيحية . ان حياة الكنيسة اليومية في العالم اجمع تمرّ بين ايدي هؤلاء المتنيورية العاملين في الدواوين . وهم ، وان حرموا حق التصويت ، فليست قوتهم بسبب ذلك غير ذات شأن . فهم الذين يخلقون في رومية جوّها العسير اكتناهه ، ويُعدُّون بصبرٍ واناةٍ الرأي العام في العاصمة . وقد يجهدون ، على غير علم منهم احياناً ، في الهيمنة بسطوتهم على كبار الرؤساء ، كالكرادلة وسائر اصحاب المقامات العليا ، فيصبحون إما خصوماً فيُخشَون ، وإما شركاء فيُرجون .

وفوق ذلك ، فان الشيخ ، القابع منعزلاً في ذروة البناء ، قد لا يُفلت من الضغط الهائل الذي يُجرونه عليه .

٤ – تدويل الدواوين . جنسية البابا .

من وقت الى آخر ، يخطر على بال بعض البابوات ان يجري اصلاحات في الدواوين ، فيبذل الجهود في هذا السبيل . فالبابا القديس بيوس العاشر اعاد تنظيم دوائرها

فجعلها مطابقة لمقتضيات الازمنــة الحاضرة . ويعزى الى البابا بيوس الثاني عشر انه كان عازماً على تطويرها بنوع ثوري ، لو لم تطغَ عليه الاشغــال ، ويتولَ بنفسه وزارة الدولة ؛ فضلًا عن انه انصرف الى مهامّ اخرى حالت دون تمكنه من معالجة مشاكل الدواوين .

وحاول البابا تدويل الموظفين الاداريين ، فبدأ ذلك في بعض الدوائر ، ولاسيما وزارة الدولة ، ولكن الاكثرية الساحقة من الموظفين المركزيين هم بنوع عــام ايطاليون . والعــــاملون في الدواوين من اكليروسيين اجانب انما هم ، في الغالب ، من خريجي الاكليروسيات والمعاهد الرومانية ، حيث قضوا سنين عديدة في الدرس والتأدب ، فلا يلجون ابواب المناصب الخطيرة الا بعد ان يكونوا قد اصبحوا نوعــاً ما رومانيين .

ان تغلب العنصر الايطالي في الوظــائف على غيره لا يبدل شيئاً على الاطلاق في خصائص الكنيسة الجوهرية ؛ كما ان جنسية البابا لا تبدّل شيئاً في المقام الســامي الذي يشغله . فقد نشأ تقليد في هــذا الشأن ، (وقد تعبث به مفاجآت انتخابية مستطــاعة كل حين) ، ولكنه تقليد منطقي ، على مــا يظهر ، لان البابا اسقف رومية ، ورومية مدينة ايطالية ؛ كما انــه تقليد حكيم كذلك ، اذ لولاه لبلغت المزاحمة القومية ذروتها ، وافيم

شأن قومي لانتخابه كلما عرض انتخاب بابا جديد .

على ان البابا ، كل بابا ، بدافع شمول المشاكل التي تتقاطر ، كل دقيقة ، نحو الفاتيكان من كل الآفاق ، لا يعود يختص ببلد ، اي بلد ، عندما تطرح على بساط البحث المعضلات الكبرى التي تواجهها الكنيسة جمعاء . فيصبح البابا حينئذٍ ، اية كانت جنسيته ، حامي العقيدة ؛ والعقيدة هي نفسها تحميه من كل انحراف قومي فيما يلامس شؤون الايمان .

لكن الامر ليس كذلك بين الموظفين الثانويين الذين يملأون الوزارات والمكاتب الرومانية . فهنا الاحقاد القومية ، والتعصب الوطني ، والضغائن السياسية ، تلعب دورها الحقير . فتعاني المحبة المسيحية ، وخاصة في هذه الحقبة المضطربة من تاريخ العالم ، صعوبة جمة في اخماد النزعات المتعصبة وتخفيف الصدمات .

ان النواة الايطالية في الدواوين ، وقد تحدّرت من اكليرس ايطالي متمسك بجملته بروح المحافظين وبالاراء القويمة ، تضطرب بسرعة كلما وصلتها اخبار من وراء الارياف الرومانية . فان الثورات ، اياً كان مصدرها ، تُرهبها ، وانقلاب الانظمة الحكومية يقلقها . انها تحترم الالقاب التي لا يفوقها احد في ممارستها ، ويلذّ لها ان تؤدي التمجيد الى التيجان الملكية حيث لا تزال بعد على الرؤوس . وكل نزعة الى التجديد

والاصلاح والمبادهات الجريئـــة في حياة الكثلكة اليومية ، تستفزها الى مقاومة لا اعنف منها ولا اضرى .

على ان بين هؤلاء الموظفـــين ، الذين كيَّفتهم قرون من الانضباط والتمرس والخبرة ، افراداً لا يخفون عن الاعين البصيرة ، قد اتصفوا بالهمة الوثّابة، والتواضع العميق، والتقوى الخلوص . فهؤلاء الكهنة لا ينظرون الى الدواوين نظرتهم الى الادارات الاخرى ، ومشاكلها النـــاشئة عن عدد ساعات العمل وعن استحقـــاق الترقي . انهم يذهبون الى مكاتبهم ، متيقنين انهم يتمّون مهـــام مقدّسة ، مهما كانت وضيعـــة . انهم يفكّرون في ان الملكوت الذي يهيّئون ويبنون انما هو ، في النتيجة ، ملكوت النفوس ، وليس من هذا العالم . انهم لا يعملون الا في قشرة خارجية هي ضرورية وناقصة معاً ، ولكنهـــا تستبدل باللب الحي الذي تلتفّ عليه ، ويتغـــذى هو بالاسرار المقدسة . انهم يذهبون الى مكاتبهم كما الى كنيسة للقيام بفرض ديني . على انهم يخفون ما في نفوسهم من نشوة واندفاع تحت مسالك ألِفوها كاحبارٍ مدربين على الرزانة والوقار .

ثم ان كثيرين من هؤلاء الكهنة والرهبان يحزّ في انفسهم ما في الحياة وراء المكاتب من جفـــافٍ ، لان دعوتهم تدفعهم في اتجاه مختلف . لهذا يحاولون احياناً التملص من الحيـــاة الراتبة في المكاتب ليقوموا « بخدمة النفوس » .

فيجوبون ضواحي رومية كمرشدين روحيين متطوّعين في المؤسسات التي تحنو على الاطفال المهملين ، وتحمي الطلبة الصغار من الاخطار المحدقة بهم ، وتُعنى بهداية العمال الى السبل القويمة ؛ ويزورون المرضى في اكواخهم القذرة ، ويسعفونهم بارشاداتهم ، ويشددونهم في تعاليم الايمان ، ويُحيون فيهم الرجاء بالله ، اذ يشركونهم في اسرار الكنيسة ، ويزوّدون المشرفين منهم على الموت القربان الاقدس ، ويمسحونهم بالزيت المبارك .

ان هؤلاء الكهنة والرهبان تضيق نفوسهم الوثّابة بما في الدواوين من فتور هادىء ناعم ، فيفرّون منها الى حيث تجد حياتهم الروحية الحارّة حقلاً تمتد فيه فتُنميه وتحييه .

الفصل الثاني

المجامع المقدسة

١ – عموميات .

يقوم اليوم بادارة الكنيسة احد عشر مجمعاً Congrégations نذكرها بحسب اقدميتها : ١ – السَنتُفيش ؛ المجامع المقدسة : ٢ – للاساقفة la Consistoriale ؛ ٣ – للاسرار ؛ ٤ – للاكليرس العلماني وللشعب المسيحي Concile ؛ ٥ – للرهبان ؛ ٦ – لنشر الايمان ؛ ٧ – للطقوس Rites ؛ ٨ – للاحتفالات Cérémonial ؛ ٩ – للشؤون الخارقة العادة ؛ ١٠ – للمدارس الاكليريكية والجامعات ؛ ١١ – للكنيسة الشرقية .

ولكل مجمع كردينال يرئسه ، يدعى مقدم المجمع اي رئيسه Préfet ، باستثناء ثلاثة مجامع يرئسها البابا بذاته ، هي : السنتفيش ، ومجمع الاساقفة ، ومجمع الكنيسة الشرقية . ويلي الرئيس في المجمع اسقف او حبر يدعى المعاون Assesseur . اما المجمع الذي يرئسه البابا فالكردينال الموكّل بادارته يدعى سكرتير المجمع ، وهو بالفعل رئيسه ، ويليه المعاون .

يراد بكلمة مجمع بحصر المعنى فريـق من الكرادلة يعيّنهم الحبر الاعظم ، ويعود اليه وحده مبدئيـاً ان يتخذ القرارات النهائية . على ان هؤلاء الكرادلة قد لا يتسنى لهم دائماً التدقيق المقتضى في المسائل التي يدرسونهـا ، فلا يفي تداولهم بالغرض المقصود ، مما يجعـل رؤساء الدوائر المختصين يرتبكون في تسيير الاعمال . ويُخصّ بالذكر من هذه الناحية مجمع الشؤون الخارقة العادة الذي يدعى الى ابداء الرأي في معضلات سياسية دقيقة ، فيسبب في الغالب الى دُبلماسيي وزارة الدولة الكثير من العناء وارتباك البال .

تلتئم جمعيات الكرادلة العامة Plénières في الڤاتيكان بطريقة حافلة . وقبل الالتئام بعشرة ايام ، يرسل الى كل كردينال ملفُ القضايا المطروحة للبحث ، مرفقاً بملخص البراهين المثبتة والناقضة للقضية من وضع احد موظفي المجمع ، وبخلاصة الوثائق الهـامة ، وبالاسئلة التي يجب الرد عليها ، وبتقرير المستشار ، وكلها مطبوعـة في المطبعـة الڤاتيكانية التي يُقسِم عمالها انهم يحفظون السر . ويكلّف احد كرادلة الجمعية درس القضيّة بنوع خاصّ ويدعى المقرر Ponent . فيبدي رأيه في اثناء التئام الجمعية العامة ، ويناقشه اياه سائر الكرادلة ، ويؤخذ القرار باكثرية الاصوات . على ان هذا القرار لا يُصبح نافذاً إلا بعد ان يصدّقه الحبر الاعظم ، إلا اذا كانت القضية غير ذات شأن ، من تلك التي يفوّض البابا الى

الكردينال رئيس المجمع المختص ان يبتها .

ويقصد كذلك بكلمة مجمع بالمعنى الواسع المكاتب التي تدرس فيها القضايا العائدة الى المجمع . وهنا يمثل الدور الاساسي الشخص الثاني في المجمع (السكرتير في بعضها ، والمعاون في بعضها الآخر) .وهو شبيه بدور المديرين العامين في الوزارات المدنية ، أعني ان عمله هـــامّ جداً ، ولو كان خفياً عن العموم . فهو العنصر الثابت الذي يهيّء الجمعيــات العامة ويعيّن المستشارين ويقرر الامور الجارية ؛ وهو يحظى ، في ايام معيّنة ، بمقابلة البابا اكثر من الكردينال نفسه احياناً .

وتعقد الدوائر القائمة في كل مجمع اجتماعات دورية مرة او مرتين في الاسبوع ، فيلتئم جمع كبار الموظفين بحضور الكردينال . وبقوة السلطة المفوّضة اليهم ، يقرّرون ما يرونه بدون رفع الامر الى الجمعية الكردينالية العـامة . وهذا ما يدعى المجلس Congresso . وعلى السكرتير او المعاون ان يستشيره في الامور الدقيقة .

وبين موظفي كل مجمع من يُدعون المحرّرين Minutanti ، ومهمتهم تحرير المسوّدات ، يعاونهم النسّاخ والخطـــاطون والضاربـــون على الآلة الكاتبة ؛ وهم الذين يحررون معظم الوثائق بالاسلوب الروماني المألوف . وبينهم حفظـة الخزانة الذين يصنّفون الاضبارات ؛ والمحاسبون الذين يدوّنون على المراسيم الصادرة عن المجمع قيمـة الرسم الواجب اداؤه الى

الكرسي الرسولي ، وهو جد زهيد ؛ والموزّعون الذين يقبضون هذه الرسوم ويوصلون الوثائق الى اصحابها . اما الحجّاب والمباشرون فيُدعون بالاسماء اللاتينية Janitores و Cursores .

بقي المستشارون . فهؤلاء ليسوا موظفين بحصر المعنى ، إلا انهم يمثلون دوراً خطيراً ، ومعظمهم من الرهبان ذوي الاختصاص . وغالباً ما يلجأ المعاون الى كثيرين منهم ، فيدرس كلٌّ على انفراد ، بدون علم الآخرين ، القضية المطروحة للبحث . واذا صعب الوصول ، حتى بهذه الطريقة ، الى حلٍّ مرضٍ في بعض قضايا شائكة ، فيدعى حينئذٍ جماعة من مشاهير اللاهوتيين والقانونيين الى عقد اجتماع للتداول واعطاء الرأي .

اما اللغة الرسمية في الكنيسة فهي اللاتينية . على ان اللغة الدارجة في مكاتب الدواوين هي الايطالية .

٢ – مالية الكرسي الرسولي .

ليس للدواوين موازنة مالية ذاتية ، فمال الكرسي الرسولي يديره اكثر من منظّمة ؛ ولسكان الڤاتيكان المتعدّدي الجنسيات مصرف يجرون فيه ما يحتاجون اليه من معاملات . اما قيمة الكنوز الثابتة التي تكوّن ثروة الڤاتيكان الفنّية ، سواء في الكنائس الباسيلية او في القصور ، فليس في استطاعة احد ان يقدّرها .

١ً – لاموال الكرسي الرسولي دائرتان : الاولى هي

« الدائرة العادية لاملاك الكرسي الرسولي » ، وتتمتع بسلطة مطلقة تقريباً ، ويُشرف على اعمالها لجنة كردينـــالية يرئسها الكردينال كنالي Canali ؛ والاخرى هي « الادارة الخاصة » التي تدير المال الذي دفعته ايطاليـــا سنة ١٩٢٩ الى الكرسي الرسولي لقاء وضع حد نهـائي للقضية الرومانية المزمنة ، بتنازل البابا عن اراضي ملكه الزمني للدولة الايطـــالية . ويبلغ هذا المال ملياراً من السندات Titres ، و ٧٥٠ مليون لير من عملة الورق الايطالية .

والبابا بيوس الحـادي عشر كان يدير بذاته هذه الثروة الطائلة ، لانه حتم على نفسه بان يحفظها لخلفه كاملة بدون نقص . فلم يتصرف الا بريعها لانشاء بعض اشغال هامة في حاضرة الفاتيكان . فكان رأس المال عند وفاته سالمـــاً غير ممسوس . ومنذئـــذٍ حدثت ارتجـاجات في هذه المبالغ نتيجة لكل ازمة اقتصادية كان لصداهـا تجاوبٌ في هـــذه الدائرة ، ولكن الكرسي الرسولي لا ينـــوي تحويل رأس ماله الى عملة نقدية ، فباستطاعته ان ينتظر بصبر انفراج الازمات ، ومن دأبه ان يجمع حوله مستشارين من ذوي الخبرة .

اما بيوس الثـــاني عشر فرفض الاهتمام بذاته بالادارة المالية . فانشأ « الادارة الخاصة » للمبالغ التي تسلمها الفاتيكان من الحكومة الايطالية ، ووضع على رأسهـــا احد رجال المال

الايطاليين ، المهندس برنردينو نوجارا Nogara ، الذي يقوم بعمله ، بمعاونة بعض الماليين الدوليين Petit Brain-Trust ، بدقة تبلغ حدّ الوسواس ، وبمهارة فريدة ، وبسر عميق . والوضعية التي ينعم بها السنيور نوجارا وحيدة في العالم يحسده عليها مديرو المصارف ووزراء المالية . فانه يتمتع بحرية مطلقة في عمله ، فلا يناقشه الحساب مجلس نواب ، ولا مجلس وزراء ، ولا جمعية حاملي الاسهم ؛ ولا يدفع ضرائب ؛ ويستطيع ان يجري عقوداً الى آماد بعيدة جداً ، وفي اي بلد كان ، بفضل الامتيازات الدبلماسية المعترف بها للكرسي الرسولي . فضلاً عن ان السفراء والاساقفة والزوّار الوافدين الى رومية من كل العالم يقيّضون له فرصة ثمينة للاطلاع بواسطتهم ، في استمرار ، على مجرى الاحوال التي قد تحدث تطوراً في الشؤون المالية والاقتصادية . فليس لاحد سواه مثل هذه الحرية الكاملة في العمل ، ولا مثل هذه الوسائل للاستطلاع . لهذا تزداد يوماً فيوماً اهمية « الادارة الخاصة » . فهي الآن تدير كل مقتنيات الكرسي الرسولي في ايطاليا وفي الخارج . والسنيور نوجارا يؤثر الليرة الاسترلينية والدولار الاميركي والفرنك السويسري على اي نقد آخر . ومعظم مستودعاته المالية في مصرف همبرُس Hambrose's Bank في لندن ، ومصرف مورغن في نيويورك ، وفي المصرف السويسري Crédit . ولهذه

« الادارة الخـــاصة » سكرتير ، هو المسيو دو ميّارْدوز M. de Maillardoz الذي يقطن في رومية وان يكن احد كبار الموظفين في المصرف السويــري المذكور .

وقد وضع الڤاتيكان ما لديه من الذهب الاحتياطي في « المصرف الاحتياطي » Reserve Bank ، وجعله تحت تصرف بنك مورغن ، شأن بلدان اخرى عديدة تضع احتياطيها في الخارج. وبواسطة هذا المال المودع في اميركا ، تجري « الادارة الخاصة » عمليات مالية لتزيد رأس المال الاساسي .

ويخطىء من يظن ان الروابط الوثيقة ، التي تشد « الادارة الخاصة » الى الولايات المتحدة ، ناشئة عن ميول سياسية . فان لتلك الروابط ، بقطع النظر عن هذه الميول ، اسباباً تقنية ، اولها ان الڤاتيكان ، حين انشأ رأس المال الذي بيـــد « الادارة الخاصة » الآن ، قد اشترى معظم ذهبـــه في اميركا .

٢ً – اما المصرف الڤـــاتيكاني ، فيدعى « المؤسسة لاجل الاعمال الدينية » . فهو يقبل الودائع ، ويقوم بجميع العمليات المالية ، كتوظيف المال وتحويله ، الخ ... مما تستطيع اجراءه الرهبانيات العديدة المنتشرة في العالم والممثلة في رومية . وتشرف على هذا المصرف لجنة كردينالية . غير ان مديره في الواقع هو سكرتيره المنسنيور دي جوريو Mgr di Jorio . والموظفون فيه قليلون ، بعضهم اكليرسيون ، وبعضهم علمانيون. ولا يقبل

المصرف التعامل الا مع مواطني الفاتيكان والاكليرس الروماني والرهبانيات . اما اعماله فجد متنوعة ، تشمل عدداً من البلدان وافراً بسبب ما للرهبانيات الكبيرة من صلات ونقاط ارتكاز في كل مكان . ويرخص لبعض الايطاليين فتح اعتماد فيه . وبذلك فائدة جلّى لهم ، لانهم يستطيعون بواسطته ان يحوّلوا اموالهم بدون تقيّد بالاجراءات المفروضة في ايطاليا ، وبدون خضوع للمراقبة الايطالية .

٣ً – على ان مدّخرات « الادارة الخاصة » ومهارة القيّمين عليها لا تكفي لسد حاجات الكنيسة الكثوليكية . فلهذا نراها تلجأ بدون انقطاع الى المؤمنين ليمدّوها بصدقاتهم . وتلبية لهذا الطلب ، يجمع في العالم باسره (ما عدا البلدان المشرقية) ، شبه ضريبة اختيارية ، تدعى « دينار مار بطرس » Denier de St Pierre . وقد قال فيها السنيور نوجارا انها « من الوجهة المالية مؤسسة لا مثيل لها من حيث صعوبة تحديدها وضبطها » .

وليس من المفروض دوماً ان يرسل الى رومية المال المجموع لاجل « دينار مار بطرس » . فانه ، في بلدان كثيرة ، يصرف لسدّ قسم من حاجات الكنائس المحلية . فيدفع في فرنسا ، مثلاً ، الى الكهنة خدمة الرعايا الذين لم تعُد الحكومة ، بعد فصل الدولة عن الكنيسة ، ملزمة بدفع المعاشات التي كانت مخصصة بهم من قبل . ثم ان بلداناً كثيرة

كانت في السابق تقدم الصدقات عن يد سخية الى رومية ، فاضحت الآن لا تستطيع شيئاً من ذلك ، إما بسبب احوالها السياسية ، او بسبب الحاجات المحلية . اما الهبات المرسلة الى الكرسي الرسولي باسم دينـــار مار بطرس ، ولاسيما البالغة منها قيمة كبيرة ، فتوجّه في الغالب الى الحبر الاعظم .

ولما كان لكل مجمع كيان اداري ذاتي ، يضع الكردينال رئيسه موازنته المالية ، فان بعض المجـامع يضطر ان يلتجيء الى مصادر خارج الفاتيكان للحصول على المـال اللازم لسير اموره . فان مجمع نشر الايمان ، مثلًا ، ينوء تحت عبءٍ مالي جسيم بسبب الاسعافات التي يمد بها المرسلين والمرسلات المنتشرين في اربعة اقطار العالم ، ولا يمكنه ان يحمله لو لم ينشيء او يتبنَ مؤسسات خيرية تجمع عبر العالم حسنات المؤمنين لاعانة الرسالات الكثوليكية . وكانت فرنسا اول من انشأ عملًا من هذا النوع ، يدعى عمل « نشر الايمان » ، فاصبح الآن مؤسسة بابوية ، ونقل مركزه من ليون في فرنسا الى رومية .

٣ - السنتفيش.

ذكرنا ، فيما سبق ، بطريقة عـــارضة ، شيئا عن المجامع الخاصة بالاساقفة والشؤون الخارقة العادة والرهبان ونشر الايمان .

والآن نتحدث ببعض توسع عن اهم المجـامع الباقية : الـتفتيش ، ومجمع الطقوس ، ومجمع الكنيسة الشرقية .

١ً – في الماضي والحاضر . حضرتُ في فلورنسا حفلة غريبة جداً . فقد تقدم على التوالي ، امـام الاعيان المجتمعين ، حاكم المدينة ، السنيور لابـيرا La Pira ، وحاكم الولاية ، والجنرال قائد الجيش ، وتلامذة المدارس ، فوضعوا اكاليل او باقات من الزهر على صفحة نحاسية مُنزلة في بلاط الساحة المدعوة بالسيّدية Seigneuriale . وهذه الصفحة تعيد الى الاذهان ذكرى حادث وقع منذ خمسماية سنة . ففي هذا المحل حرق آنئذٍ جسم الراهب الدُومنكي ، سفنرول Savanarol ، بموجب حكم اصدره مجمع التفتيش الاعلى ونفـذته حكومة فلورنسا . واليوم نرى الى جانب حاكم المدينة ، وهو من حزب المسيحيين الدمقراطيين ، امرأة شابة من الحزب الشيوعي هي حاكمة مدينة فرّاري Ferrare ، مسقط رأس سفنرول ، وازاءها حبر يمثل الكردينال مطران فلورنسا .

ان سفنرول الذي يكرّمه هؤلاء الاشخـاص المتباينو النزعات والحالات ، بحضور الشعب الفلورنتي ، كان مفكراً متوقد الذهن ، ومؤمناً مندفعاً حتى التعصب ، يحلم باصلاح الآداب في العالمين المدني والديني . فلم يتورع عن ان يُعطر الحبر الاعظم القائم آنذاك ، اسكندر السادس من آل بورجيا ، ذلك الرجل المخوف المفسود (١٤٩٢–١٥٠٣)، وابلاً من الملام

اللاذع والتوبيخ القارص . فاصدر البابا مرسوماً يحرمه به ، فشنقه حاكم المدينة وحرق جسمه . وهوذا الشعب والحكومة والكنيسة في فلورنسا وسائر ايطاليا يقومون جميعاً بالتعويض عما كان من قدامام . والمقـــول ان بين صفوف الرهبان الدومنكيين الايطاليين فكرة ترمي الى تقديم دعوى بتطويب سفنرول . ولا غرو فالكنيسة ، بواسطة الكردينال مطران فلورنسا ، تحيّي اليوم ذاك الذي تركته هي نفسها في السابق يموت تلك الميتة الشنيعة .

٢ً — جوّ المجمع . ان مجمع التفتيش بدّل اسمه من زمن بعيد ، فهو يدعى الآن السنتفّش Saint - Office . ولم يعد يحرق احداً ، حتى على يد الحكومة المدنية . غير ان هذا المجمع لا ينفك الاول والاقدم بين المجامع الرومانية، وحامي العقيدة الذي لا يجارى ولا يحابي . وعمله لا يجري الا على العقول . فمهمته اكتشاف الانحراف العقائدي ، مهما كان طفيفاً ، وانزال العقوبات بمستحقيها بدون شفقة . والعقوبة القصوى التي يرهبها المؤمنون انما هي الحرم ، اي قطع المذنب من الجماعة المسيحية .

تحت عتبة الباب الكبير، الذي هو مدخل السنتفيش ، جاس شرطي فاتيكاني بثوبه المدني يعالج مربعاً من كلمات متقطعة . وبدا البواب قاسي القسمات بالرغم من بزته وشرائطه،وكان يُعنى باحدى يديه بتربية طير الكنار ، ويصد بالاخرى المستعطيات

الكثيرات اللواتي ياتين الى المجمع استدرارا لمعونة منه . اما الشخص الذي يُهاب في المجمع اكثر من سواه فهو المفوض ، ويحتل ، مع مرافقيه ، احد اجنحة الدور الاول الذي تخاله قطعة من دير دومنكي نقلت وانزلت في البلاط الرسولي : بحجراتها الوضيعة ، واثاثها القديم ، وصلبانها المعلقة هنا وهناك ، وببعض تصاوير تقوية على جدرانها قد لا يستسيغها الذوق السليم .

والامر على العكس في الدور الاعلى ، حيث القاعات الفخمة ، والمباشرون ببزاتهم الرائعة ، وردهة الاجتماع بطاولاتها الطويلة من خشب السنديان القاتم اللون ، وبكراسيّها من عهد الانبعاث Renaissance ، كأنها قاعة مجلس ادارة احدى الشركات . اما المحفوظات السرية الشهيرة ، فانها تتوارى في خزائن قائمة في منعطفات المجمع ومنعرجاته ، ولا يحق لاحدٍ ان يصل اليها ، ما خلا اعضاء المجمع الذين يقسمون ايماناً على حفظ السر اكثر تصريحاً وتوضيحاً من القسم المفروض على اعضاء سائر الدواوين .

اما السر في دوائر المتفتيش فانه اشدّ واوجب ما تعرفه الكنيسة . وعلى غرار سرّ الاعتراف ، لا يجوز افشاؤه . ومن تجاسر على انتهاكه ، ولو بطريقة غير مباشرة ، ولو باشارة ، يقع من ذات فعله في الحرم الكبير الذي لا يحل منه إلا الحبر الاعظم . فالكردينال القيّم على المجمع لا يقوى

بذاته على الحل منه . ان للسر في هذا الجو لحرمة تستولي على العقول وتملكها ، وتشيع فيه الخوف الشديد من تطرق شيء منه الى الخارج . وهنا لا احصاآت بالقضايا المدروسة . ومن المحظور معرفة الاصول المتبعة في التحقيق والتقرير . فان السر جدار ترتطم به حتى القضايا البريئة جداً .

٣ً - الصلاحية . السنتفيش محكمة ومجمع . فالمحكمة تجري القضاء على الناس وعلى الآراء . ولها جميع صلاحيات محكمة جزائية . في الماضي كانت الاحكام في قضايا الهرطقة تصدر عن هذا المجمع . اما في ايامنا فاصبح ذلك من النادر جداً . فهو ينظر في الجرائم التي يقترفها رجال الاكليرس في الدرجة الثانية كمحكمة استئنافية بالنسبة الى المحاكم الاسقفية ، وكذلك في الدرجة الاولى ، فيما اذا كانت هذه الجرائم مستثناة بسبب فظاعتها من ولاية الاساقفة العادية ، كما في حوادث انتهاك حرمة الاسرار ، مثلاً ، ولا سيما سر التوبة . وقد يضطر احياناً الى اجراء تحريات ، اذا بلغه ان سمعة احد الرؤساء الكنسيين قد اصبحت مشبوهة بنوع فاضح . فيجري ، عند الاقتضاء ، ما يخوله القانون من تأديبات اي عقوبات متنوعة تراوح بين فرض تلاوة بعض صلوات وممارسة بعض تقشفات ، وبين اقامة جبرية في احد الاديرة وحتى اعادة المذنب الى الحالة العالمية . وهذه العقوبة هي اشد ما يمكن الكنيسة انزاله في كاهن . على انه لا يفقد وسمه الكهنوتي ، اذ انه

يظل موسوماً به على مدى الحيـــاة وحتى الى الابد ، بل ينتزع منه حقه بممارسة اية خدمـة كهنوتية (وبنوع جد استثنائي ، قد يعاد الكاهن الى الحالة العالمية ، بدون ان يكون لهذه الاعادة طابع العقوبة ؛ ولكن ذلك نادر جداً).

ان الدعاوى في السنتفيش يجري بحثها دائمـــاً بطريقة سرية. وقد يُستدعى المتهم امام القضاة . ولكنه غالبـاً لا يستطيع تقديم دفاعه الا بواسطــة محامٍ يعيّنه برضى المجمع .

والسنتفيش يوضح العقيدة ويشرحها ، لان مهمته الاساسية هي الحفاظ على سلامتها بكل حرص ، واكتشاف الهرطقات والانحرافات ولو كانت غير ذات شأن . فحرمة العقيـــدة من كل مساس شيء مقدس في الكنيــة فوق كل شيء آخر . وبذلك قوتها الحقيقية . ولهذا كان المجمع الموكول اليه السهر على الوديعة المقدسة اقدم المجامع واعلاها درجة .

في هذه الحال يصبح السنتفيش شبيهاً بالشرطة السرية . فمهمته تعقُّب العدو واكتشافه وتحرّي اجراءاته داخل الكنيسة . وله رجال يثق بهم في كل مكان من العالم يمدّونه بالمعلومات ، ويواصلون المراقبة المنوطة بهم . ويحيط السر العميق مهمتهم التي تقوم باطلاع المجمع على حالة كل ابرشية من الجهتين العقائدية والادبية . وفوق ذلك يستفيد المجمع من نظـــام تسلسل السلطات الكنسية الذي يربط بتفرعاتـــه كلاّ من

المؤمنين ، اكليروساً وشعبا ، بالدواوين الرومانية وبالحبر الاعظم .

فكل رعية يسوسها كاهن يدعى خوري الرعيــة او خادمها ، يعاونه كاهن او اكثر . ويعود امر هؤلاء جميعاً الى كاهن ارفع منهم مرتبة يدعى مقدّم الكهنة او رئيسهم . وفي الغالب تتألف الابرشية من عدة منــاطق او وكالات ، تضمّ كلٌ منهــا عدة مراجع . اما مرجعها الاعلى فهو اسقف الابرشية ، وفوق الاساقفة المطارنة (والبطاركة)، باستثناء الاكليرس القانوني (الرهبــان على تعدد جمعياتهم وتنوعها) الذي يندمج كل عضو منه في نظام جد مضبوط ، تحت رقابة الرؤساء .

هذا ، ولا يخلو الامر من ان بعض الانفس التقيــة وبعض التائبين يرون من الواجب عليهم إعلام المجمع بضلال عقــائدي او بفساد ادبي يظنون انهم اكتشفوه في محيطهم . فالكاهن معرّض لمراقبة رعيته بكل انتباه ، فيصعب ان تخفى دقائق سلوكه عن عيونهم الساهرة . على ان هذه التقــارير ، في الغالب ، غير موقّعة بامضاوات صحيحة ، وكثير عددها . ويظن بعض الاوساط الاكليروسية ان المجمع يوليها من الاهتمام اكثر مما تستحق .

فحالما يبلغ المجمع خبرُ قضية يعتبرها ذات بال ، يكتب الى اسقف الابرشية المعنية . ولدى كل اسقف في ابرشيته

« لجنة رقابة » يعين اعضاءها من الاكليريسين المحليين ، ومهمتها السهر على ايمان الكهنة وعلى آدابهم . وفي استطاعة المجمع ان يرسل ، في حالات خطيرة، مندوباً من قبله يزوّده سلطة واسعة . فيتجول ويعمل تحت ستار الخفية . ويستدعي اليه من يشاء استنطاقهم . ويطلب اليهم الجواب عن الاسئلة المطروحة عليهم ، بعد ان يقيّدهم ، بواسطة القسم ، بواجب الحفاظ الكلي على السرّ .

ومن المعلوم ان الادارة المركزية في رومية تطلع على كل ما يجري في الابرشيات بواسطة مجمع الاساقفة ، وفي الرهبانيات بواسطة مجمع الرهبان . فلا يغرب في النتيجة شيء عن السنتفيش الذي يمثله بعض اعضائه في المجمعين المشار اليهما .

ووفقاً للتعابير الدارجة في هذا المجمع ، تلتئم « هيئة » مستشاريه ، و « يصنفوا » المذاهب المعروضة عليه او الواردة اليه من معاونيه عبر العالم ، فينعتوها باحد هذه « الاصناف » : آراء او مذاهب « خالية من الروية Imprudentes ؛ خطرة ؛ مخدّشة الآذان التقية ، او هرطوقية ».

٤ً – مهام اخرى . لا يقصر السنتفيش اهتمامه على النظريات. فاليه يعود النظر في كل ما يلامس الحياة الفائقة الطبيعة ، ولا سيما الانحرافات التصوفية ، ومناجاة الارواح ، والسحر

والرقيّات وما الى ذلك . على ان التقسيم الذي تحارب به الكنيسة استيلاء الشرير على نفس ما ، يتعلق بمجمع الاسرار . ولو تسنى لنا ان نفحص عن قرب ما يعتور ايامنا الحاضرة من ضلال وفساد في حقل التصوف ، وان نطّلع على عددها وانواعها ومداها ، لاخذ منا العجب كل مأخذ . فايطاليا الجنوبية ارض خصبة تنبت فيها شيع من هذا النوع ، تعيش على هامش الشريعتين المدنية والكنسية معاً . ولم ينس المعاصرون بعد دعاوى كثيرة كشفت عن مدى الاعمال السحرية التي لا تزال شائعة في فرنسا . وسويسرا لا تزال تتذوّق بنهم مثل هذه الاعمال ، كما ان المانيا لا تخلو منها (وما اكثرها في بلداننا الشرقية !)

ان السنتفيش يغربل التمرسات الصوفية على انواعها . فالكنيسة جد حذرة من هذه الظاهرات ، فلا تبدي رأياً ولا تُصدر حكماً في صحة الوقائع الفائقة الطبيعة او الرؤى ، ما زال اصحابها على قيد الحياة . فمن يجهل ان تريزيا نيومن تعيش منذ سنين طويلة حياة عجيبة في المانيا ، وهي تحمل في جدها سمات جروح السيد المسيح الفادي ، كما يحمل هذه السمات منذ ثلاثين سنة الاب بيّو Pio الكبوشي الذي يعيش في قرية من ايطاليا الجنوبية ، ويتهافت اليه جماهير الاتقياء ليعترفوا بخطاياهم لديه . وفي باريس تبدو سمات جروح المسيح في احدى المؤمنات . فالسنتفيش لا

يجهل حالة هؤلاء الرجال والنساء. ولكنه لا يأتي عملاً قد يثير اهتمام المؤمنين وفضولهم.

وعلى هذا المجمع ان يُعنى باصدار جدول المؤلفات المحرّمة قراءتها. وتضع هذا الجدول لجنة خاصة تتحرى المعلومات التي ترد من العالم باسره، لان كل المطبوعات خاضعة، مبدئياً، لحكم المتفيش. ولكنه، في الواقع، يهتم بالمطبوعات الفلسفية واللاهوتية والادبية والاجتماعية التي يؤلفها اكليرسيون، لانها قد تُحرج موقف الكنيسة اكثر من سواها. على ان كل ما ينشره احد رجال الكنيسة يجب ان يخضع حتماً لمراقبة مزدوجة في ابرشية محل النشر. وقد يحدث ان يكون المتفيش اقسى من الاساقفة الذين يجرون هذه المراقبة. ولكنه لا يسارع في اصدار احكامه. وغالباً ما يصب جام سخطه على مؤلفات او مؤلفين يكون نفوذهم قد بدأ يميل الى الزوال. وسببه حذر المستشارين قبل كل شيء، ناهيك بان المجمع قائم في رومية، فلا يسهل عليه التغلب على الاجواء الايطالية. ثم ان من المنشورات الادبية الاجنبية ما لا يصل اليه الا بطريقة نقله الى اللغة الايطالية. من ذلك ان مؤلفات اندره جيد، الاديب الفرنسي المعاصر، لم تحرّم إلا بعد وفاة صاحبها. وقد جاء هذا التحريم في فترة كانت فيها الاوساط الادبية في ايطاليا مولعة بجيد وكتبه، بعد ان كانت الفاشيّة قد حالت دون

تسرب هذه الكتب اليها زمناً طويلاً .

ان السنتفيش حامي العقيدة وحارسها . ويقوم بالمهمة الخاصة بالشرطة . وتلك حدوده . وبها تفسير ما يُعنى به من اللاشعبية . على ان مهمته هذه لا بد منها . فالعقيدة الكثوليكية لا تزال هدفاً لغارات وحملات تشنّ عليها من كل الجهات . اما القيام بعمل حي وايجابيّ على العقول فلا ننتظرنّه من السنتفيش. فهذا يعود الى المعلم الاكبر والاعلى الذي يعي مفهوم العقيدة ويعبّر عنها ، ليس كحقيقة نظرية فحسب ، بل كحقيقة نحياها بممارسات شخصية روحية . فان حامي العقيدة ، بالمعنى التام والايجابي ، انما هو رأس الكنيسة ، وليس جمعية موظفين في الدواوين يطبقون نصوص الشريعة .

٤ – مجمع الطقوس .

١ً – حفلة تطويب او اعلان قداسة . في المعهد السيستي ، يتراقص لهيب الشموع على مشهد الدينونة العامة الذي رسمه ميكال انجلو على الجدار القائم في صدر المعبد . ويضج المكان المقدس بهينمة الكرادلة والبطاركة والاساقفة . فليس هو اليوم ذلك المتحف الذي يزدحم فيه السياح مشدوهين . انه عابق بطيب البخور . فالقديسون والهالكون الذين خلقتهم ريشة ميكال انجلو يستيقظون على الحياة تدب في اجسادهم .

من المعبد ، يسير الموكب البابوي ، متجهاً الى باسيلية

مار بطرس ، يختلط فيه شيوخ من ذوي اللحى الكثة برجال في عنفوان العمر ، والجميع يعتمون تيجاناً عالية بيضاء ، يصحبهم خدام يحملون شموعاً تداعب وجوههم المرد الضئيل ، وآخرون يساعدون الاحبار في لبس التيجان ونزعها ، ويمسكون اذيال ارديتهم ويرفعونها عند الجثو .

ان الكنيسة جمعاء هنا ، يمثلها البطاركة الوافدون من الشرق بتيجانهم المرصعة بالحجارة الكريمة ، او بقبعاتهم التي تختفي تحت اغشية سوداء ؛ وكذلك الكرادلة والمطارنة والاساقفة ، ومنهم الابيض والاسود والاصفر ؛ ثم الرؤساء العامّون للرهبانيات بملابسهم الخشنة واقدامهم الحافية ، مما يبدو نابياً بين ملابس المخمل والحرير القرمزي التي تتوافق كانغام سمفونيا عذبة .

ويحسّ المؤمنون المزدحمون على ابواب مار بطرس بقدم البابا ، ثم لا يلبثون ان يشاهدوه . فاذا العرش المرفوع على اكتاف الاثني عشر حمالاً يترجح فوق الرؤوس ، وعلى العرش تمثال حيّ يختفي جسمه تحت الملابس الحريرية المطرّزة ذهباً وفضة ، وفي اصبعه فوق القفاز المنسوج من ذهب ، يلمع الخاتم الثمين ، وفي قدميه الحذاء الاحمر ، وعيناه وحدهما ، بسوادهما المتوقّد ، تشعان حياة ، افضل من الحجارة الثمينة ، في وجهٍ جليٍّ كالعاج وصافٍ كالشمع . وللوقت تدوّي الهتافات وتصفق الاكفّ كهدير الامواج ، وتتجاوب

من جانب آخر في الكنيسة حتى تضيع تحت القبة السامقة . وتعزف الموسيقى ، من حيث قامت مختبئة في احدى الشرفات العالية فوق المدخل ، النشيد الحبري ، فتُذري الابواق الفضية فوق الجماهير رنائها الجزلة الفخمة . وعندئذ تغمر الانوار كل الكنيسة الباسيلية ، وتبدأ جوقة المعبد السيستي بترتيل الانشودة الطقسية : « انت صخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي » . ان دخول البابا الى كنيسته لآية من الانتصار الباهر ، والعبادة الحميمة ، والتواضع العميق .

ويقف هذا الموكب الباهر امام معبد القربان الاقدس . فينزل البابا عن العرش ، وينزع التاج المثلث الطبقات عن رأسه ، ويلبس عوضه آخر ابيض ، رمز سلطته الروحية ، ويجثو على الركبتين ساجداً للاوخرستيا . ثم يجلس على عرش ويتلو صلوات الساعة الثالثة ، بينا يؤدي اليه الطاعة اصحابُ المناصب العالية من مرافقيه : الكرادلة بلثم يده ، والبطاركة والاساقفة بقبلة ركبتيه ، ورؤساء الاديرة والكهنة المعرّفون بتقبيل قدميه .

وبعدئذٍ تُفرغ عليه الحلل الحبرية ، وهي تشمل الحلل الطقسية الخاصة بكلٍ من ذوي الدرجات المقدسة ، لانه رمز الكنيسة جمعاء . فيرتدي منها ما يعود لذوي الدرجات الصغيرة ، ولاسقف رومية ، وبطريرك الغرب . ثم يشدُّ حقويه بزنار من ذهب شارة رتبته العليا .

ويبدأ القداس الالهي تحت القبة الرائعة الفن من صنع لوبرنن Le Bernin . ويجلس البابا على عرش آخر في صدر الكنيسة ، يحيط به الكرادلة الذين يشتركون معه في اقامة الذبيحة. ويقف الى جانبه من النبلاء مقدّمهم ،وهو الامير مساند العرش . ويجلس على درجات العرش قضاة محكمة الروتا . وفي الشرفات ، من هنا وهنا ، اقارب البابا ، والامراء المالكون ، ورؤساء الدول ، واعضاء السلك الدبلماسي ، ببزات ايام الاعياد والمهرجانات الكبرى . وفي اثناء القداس ، يصعد البابا الى المذبح ثلاث مرات ، يتبعه الكرادلة وخمسة عشر اسقفاً بتيجانهم ، ورجال الكهنوت من كل الدرجات بعدد غفير .

عند صلاة التقدمة ، قبيل تقديس القربان ، يتقدم الكرادلة وملتمسو التطويب او اعلان القداسة ، فيرفعون الى الحبر الاعظم التقدمات : شمعتين تزن كلٌ منهما ستين ليبره (٥٠٠ غرام) ، ورغيفين من الخبز مغلّفين الواحد بالذهب والآخر بالفضة ، وقد نقش على كليهما شارة الحبر الاعظم ، وبرميلين صغيرين من الخمر ، وثلاثة اقفاص متقنة الصنعة ، فيها حمامتان ويمامتان وعصافير اخرى صغيرة .

بهذه الابهة الطقسية تحيط الكنيسة حفلة تطويب احد بنيها او اعلان قداسته . وشتان ما بين هذه الابهة المبذولة اليوم وتلك الحياة الوضيعة القشفة ، المترعة آلاماً واضطهاداً،

من جانب آخر في الكنيسة حتى تضيع تحت القبة السامقة . وتعزف الموسيقى ، من حيث قامت مختبئة في احدى الشرفات العالية فوق المدخل ، النشيد الحبري ، فتُذري الابواق الفضية فوق الجماهير رناتها الجزلة الفخمة . وعندئذ تغمر الانوار كل الكنيسة الباسيلية ، وتبدأ جوقة المعبد السيستي بترتيل الانشودة الطقسية : « انت صخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي » . ان دخول البابا الى كنيسته لآية من الانتصار الباهر ، والعبادة الحميمة ، والتواضع العميق .

ويقف هذا الموكب الباهر امام معبد القربان الاقدس . فينزل البابا عن العرش ، وينزع التاج المثلث الطبقات عن رأسه ، ويلبس عوضه آخر ابيض ، رمز سلطته الروحية ، ويجثو على الركبتين ساجداً للاوخرستيا . ثم يجلس على عرش ويتلو صلوات الساعة الثالثة ، بينا يؤدي اليه الطاعة اصحابُ المناصب العالية من مرافقيه : الكرادلة بلثم يده ، والبطاركة والاساقفة بقبلة ركبتيه ، ورؤساء الاديرة والكهنة المعرّفون بتقبيل قدميه .

وبعدئذٍ تُفرغ عليه الحلل الحبرية ، وهي تشمل الحلل الطقسية الخاصة بكلٍ من ذوي الدرجات المقدسة ، لانه رمز الكنيسة جمعاء . فيرتدي منها ما يعود لذوي الدرجات الصغيرة ، ولاسقف رومية ، وبطريرك الغرب . ثم يشدُّ حقويه بزنار من ذهب شارة رتبته العليا .

ويبدأ القداس الالهي تحت القبة الرائعة الفن من صنع لوبرنن Le Bernin . ويجلس البابا على عرش آخر في صدر الكنيسة ، يحيط به الكرادلة الذين يشتركون معه في اقامة الذبيحة. ويقف الى جانبه من النبلاء مقدمهم،وهو الامير مساند العرش . ويجلس على درجات العرش قضاة محكمة الروتا . وفي الشرفات ، من هنا وهنا ، اقارب البابا ، والامراء المالكون ، ورؤساء الدول ، واعضاء السلك الدبلماسي ، ببزات ايام الاعياد والمهرجانات الكبرى . وفي اثناء القداس ، يصعد البابا الى المذبح ثلاث مرات ، يتبعه الكرادلة وخمسة عشر اسقفاً بتيجانهم ، ورجال الكهنوت من كل الدرجات بعدد غفير .

عند صلاة التقدمة ، قبيل تقديس القربان ، يتقدم الكرادلة وملتمسو التطويب او اعلان القداسة ، فيرفعون الى الحبر الاعظم التقدمات : شمعتين تزن كلٌّ منهما ستين ليبره (٥٠٠ غرام) ، ورغيفين من الخبز مغلّفين الواحد بالذهب والآخر بالفضة ، وقد نقش على كليهما شارة الحبر الاعظم ، وبرميلين صغيرين من الخمر ، وثلاثة اقفاص متقنة الصنعة ، فيها حمامتان ويمامتان وعصافير اخرى صغيرة .

بهذه الابهة الطقسية تحيط الكنيسة حفلة تطويب احد بنيها او اعلان قداسته . وشتان ما بين هذه الابهة المبذولة اليوم وتلك الحياة الوضيعة القشفة ، المترعة آلاماً واضطهاداً،

التي كانت نصيب من ترفعهم الكنيسة ، بعد وفاتهم ، الى أوج المجد .

٢ً - دعوى التطويب او اعلان القداسة . في الدعوى التي ُيبحث فيها طلب تطويب احد المؤمنين اي اعلانه طوباوياً (سعيداً مغبوطاً في الفردوس) ، يعيّن احد مشاهير المحامين وكيلاً ، يدعى « محامي الايمان » ، وقد غلب عليه لقب « محامي الشيطان » Avocat du Diable ، مهمته الحؤول بكل الوسائل دون نجاح الدعوى ، اي دون اعلان المرشح طوباوياً او قديساً بصورة رسمية . ويعود الى مجمع الطقوس تعيين محكمة شرعية - من مدعٍ عامّ ومحام وشهود وقضاة - لتبحث بحثاً دقيقاً صارماً مفصلاً حياة من يطلب شرف استحقاق العبادة العلنية : حياته على الارض ، وما حدث بعد وفاته مما يتصل به . فالقديسون والطوباويون ، في عرف اللاهوت الكثوليكي ، من اعضاء « الكنيسة المنتصرة » يتوسطون في السماء بين الناس والله ، بين الخليقة وخالقها .

ويمكن القول ان القداسة تجتاز ازمة تضخم . فالمرشحون لها يزدحمون على ابواب مجمع الطقوس . وعلى « جدول الدعاوي » في هذا المجمع ، ٣٢٨ دعوى ، يرجع بعضها بتاريخه الى القرن الخامس عشر . وهناك ، نحو من ٧٤١ دعوى تنتظر ان تدق ساعتها . وبين الدعاوى ، اربع وستون موضوعها تطويب افراد او جماعات قضوا شهداء في سبيل

الدين المسيحي . والتحقيق في هذه الدعاوى يجري بدقة بالغة .

ومن الملحوظ ان عدد الذين يُعلنون طوباويين وقديسين هو بين الرهبان اكثر منه بين العلمانيين . فهل يعني ذلك ان الابرار من هؤلاء قليلون ، وان القداسة من نصيب الذين ينضوون الى الرهبانيات ؟ لا . فان لهذا التفاوت سبباً بسيطاً جداً هو ان دعوى التطويب والقداسة طويلة جداً ، وتقتضي نفقات باهظة ، تقدّر - للمحكمة وتنقلات الشهود وطبع الوثائق ، الخ . . . - بنحو عشرين مليون فرنك . فمن الصعب جداً ان يُقدم شخص او عائلة او فريق من الناس على تحمّل عبء هذه النفقات الجسيمة ، في دعوى قديس علماني قد تدوم عشرات السنين وربما قروناً . بينا الرهبانيات - وهي تنعم بالديمومة - تستطيع بدون عناء ان تضمن حسن سير دعوى من هذا النوع . وهكذا نجد بين المرشحين للقداسة من يظلون صابرين في قاعة الانتظار يحول فقرهم دون ولوجهم بابها ، حتى بعد وفاتهم ، ريثما يجيء يوم يصبح فيه النظر في دعواهم بفضل الحماسة الشعبية والخوارق التي تتكاثر بغتة بشفاعتهم ، امراً لا مناص منه ، فيعبرون بقفزة واحدة جميع الحواجز التي نصبها الحق القانوني في سبيلهم بدافع الحذر المفرط .

في بادىء الامر ، تقام الدعوى المحكى عنها امام اسقف الابرشية ، حيث « توفي برائحة القداسة » المؤمنُ المطلوب

تطويبه . ويكون الحافز الى اقامتها حيـــاته المثلى بالتقوى والفضيلة ،وحدوث بعض الخوارق التي لا يجوز تسميتها معجزات قبل صدور حكم الكنيسة بشأنهـــا . وللوقت يقوم اساقفة الابرشيات ، التي « مرّ فيها خادم الله » ، بنصيبهم من الدعوى ، فينقّبون عن ابسط اثر تركه مدة وجوده ضمن خدود ولايتهم . ويعين في رومية طالبٌ Postulateur يدير اعمـــال الدعوى . ثم يُضمّ اليه « محـــامي الشيطان » . اما اذا كان مدار البحث عن رجل عاش في ايامنا ، فترسل المحكمة نداءً الى جميع من عرفوا بذاتهم شيئاً عن حياته وعمله ليؤدوا شهادتهم ، واحياناً كثيرة يراوح عدد الاسئلة الموجهة اليهم بين ٢٠٠ و ٣٠٠ سؤال .

ومتى اتمت المحكمة الاسقفية اعمالها ، تُرسل الاضبارات الى مجمع الطقوس في رومية فيُقرر ما اذا كان في الامكان فتح « دعوى رسولية » . ولاجل هذه الغاية ، يعيّن احد المحامين المقبولين لدى المجمع ليعدّ ، كتابةً ، ملخص الاضبارات . فيرد عليه محـــامي الايمان بتقديم اعتراضاته كتابة ، فيجيبه المحامي واضع الملخّص . وهكذا دواليك ... فيتألف من مجمل هذه الوثائق مجلد يقع في اكثر من ١٠٠٠ صفحة مطبوعة على ورق بحجم الثُمن . وهكذا يجري الفحص ، بدون شفقة ، على رجلٍ في جميع مراحل وجوده ، وفي ادق طيات حياته الطبيعية والعاطفية والروحية ، وفي اسرارها الحميمة الخفية.

فاذا قبلت الدعوى ، يجرى تحقيق جديد فيما اذا كان المرشح للقداسة قد مـــارس الفضائل المسيحية حتى درجة البطولة . فاذا كانت النتائج ايجابية ، يُعلق اعـــلام على جدران رومية ، به يعلن البابا « بطولة فضائل خادم الله ».وهذا الاعلان هو خطوة حاسمـــة في طريق التطويب والقداسة . فيبقى ان تقوم لجنة مؤلفة من احبار واطباء بالتحقيق في طبيعة الخوارق والاشفية المنسوبة الى « خـــادم الله » ، على اشد ما يكون من الدقة والصرامة ، لان الكنيسة لا تكتفي ، في مثل هذه الدعاوى ، بالشهادات البشرية الصرف ، القابلة دوماً للضغط والمعرّضة للضعف ، بـــل تتطلب بوادر فائقة الطبيعة . فيقتضي التطويب حدوث معجزتين ، واعلان القداسة حدوث اثنتين اخريين بعدهمـــا . وعندئذٍ يُحتفل ، بابهة بالغة ، باعلان القديس الجديد او القديسة الجديدة، في باسيلية مار بطرس ، أو أمامها في الساحة الفسيحة الارجاء الواسعة الاطراف .

٥ – المجمع المقدس للكنيسة الشرقية ورئيسه الكردينال تيسران .

١ً – للكردينال اوجين تيسران ، عميد مجمع الكرادلة ، مهابته وخيلاؤه ، حين يدخل ردهات قصر رومـــاني ، ورداؤه الارجواني مُلقى على كتفيه المتينتين ، وصليبه يشع

على صدره العريض ، ولحيته السوداء البيضاء كأنها من ريشة رافايل او لوتشيان Le Titien ، ويتقدمه غُلامان يحمل كلٌ منهما مصباحاً مضيئاً .

ان هذين المصباحين يفرضها البروتوكول . فاذا شرّفك احد امراء الكنيسة بزيارته فاياك ان تسهى عن استحضار خادمين يحملان مشعلين عند مطلع السلم . ولا تنس كذلك ان الكردينال يضاهي اميراً من امراء عائلة مالكة . واخيراً، اذا َمثلتَ بحضرة الكردينال تيسران ، ففكّر انك امام الشخص الاول في الدواوين الرومانية .

وللكردينال تيسران ، ما عدا مقامه السامي في مجمع الكرادلة ، مهمة اخرى في الدواوين الرومانية ، ترفعه الى الاوج في ادارة الكنيسة ، وتوليه سلطة شبيهة ، نوعاً ما ، بسلطة البابا نفسه . فانه سكرتير المجمع المقدس للكنيسة الشرقية الذي يرئسه البابا بذاته .

مِن المؤمنين َمن يظنون ان الكنيسة الكثوليكية ليست سوى الكنيسة اللاتينية او الغربية . ان هؤلاء لمخطئون . فالكثوليكيون ذوو الطقس اللاتيني هم القسم الاكبر عدداً من الكنيسة ، بينا الكنائس المسيحية الشرقية هي القسم الآخر منها ، وان تكن قد خرجت على ولاية الحبر الروماني . وللتقليد الشرقي شأنه في الكنيسة الرومانية ، لان اعظم آباء

الكنيسة من الشرقيين .

ثم ان عدداً كبيراً من ذوي الطقوس الشرقية اصبحوا موالين بأمانة لرومية : فالكلدان والملكيون والسريان والملابار والاقباط والحبشة والارمن والرومان والروتان يؤلفون كنائس او طوائف كثوليكية الى جانب اخوتهم الذين لا يزالون بعيدين عن روميــة . ومن المعلوم ان الموارنة برمّتهم متحدون برومية منذ نشأتهم . وهـذه المجموعة من الطوائف الشرقية الكثوليكية تعدّ نحواً من تسعة ملايين مؤمناً ومؤمنة منتشرين في جميع بلدان العـالم ، ولاسيما الشرق الادنى واوروبا الشرقية . وهم كثوليكيون بدون ان يكون طقسهم لاتينيـاً ، ويخضعـون لولاية المجمع المقدس للكنيسـة الشرقيـة . والسلطات المعطاة للكردينال الذي يُشرف على ادارة هـذا المجمع اوسع من سلطات اي كردينال من رؤساء المجامع الرومانية الاخرى . ان البابا بالذات هو رئيس هذا المجمع . إلا ان الكردينال سكرتـيره هو الذي يقوم بادارته الفعلية ، وهو في وضعٍ من الاستقلال الذاتي يفوق اوضاع سائر رؤساء الدواوين .

ومن الراهن ان الكردينال تيسران هو احد ادرى الناس بما يجري وراء الستار الحديـدي ، واكثرهم سكوتاً عمـا يعرف ، بالرغم من انه ، بطبعه ، طليق اللسان ،

يطيب له الخوض في الحديث ، وتصله اسلاك خفيّة بالمؤمنين المتعلقين به في البلدان الشيوعية : كهنة وعلمانيين متخفّين ، مطارَدين او محبوسين في المعاقل . ومن استطاع منهم خرق الستار الحديدي ، فتضمه مدارس ومعاهد عديدة في رومية وسواها . والاتصالات قائمة وثيقة ً بالمهاجرين الذين لا يزالون يفرون الى الغرب منذ الحرب ، وقد بلغ عددهم الملايين ، ولهم في اماكن هجرتهم مئات الصحف ، ومحطات اذاعة ، وجامعات ، ورؤساء كنسيون .

ان الكردينال تيسران هو الحامي لمصالح الكنيسة الشرقية الموكولة الى عنايته . فيجتمع ، بالاشتراك مع معاونيه ، التعليمات التي تردهم ، ويواصل عملاً سوف يعرف مداه متى عادت الحرية الدينية وحرية الكلام الى بلدان ما وراء الستار الحديدي . ومما يشتمل عليه هذا العمل مفاوضات خفية وبطيئة وطويلة ، تتوقف ثم تُستأنف ، في سبيل اتحاد الكنيسة الشرقية بالكنيسة الرومانية .

٣ً – لمجمع الكنيسة الشرقية المقدس مقرٌ في بناية حديثة بالقرب من مار بطرس . فاذا دخلتَ قاعة الانتظار ، وجدت ردهة قديمة اشبه شيء بردهة الكاتب العدل في الملحقات ؛ تزين جدرانها صورة القيّم الحالي على شؤون المجمع ، وسط صور الكرادلة اسلافه . والى بضع سنوات خلت ، كان في هذه الردهة كرسي صغير ، مسانده مطرّزة ،

بجميه من ان يجلس عليه احد الزائرين شريط ممتد امامه ؛ انه كرسي البابا بيوس العاشر .

في هذه الردهة ، ينتظر احبارٌ تزيد لحاهم في جمالهم ، وعلى رؤوسهم قلانس غريبة ، وتتــدلى شعور بعضهم على اكتافهم ، ويلبسون غنابيز فضفاضة كأنها برانس . وبينـا هم في وشوشاتهم ، اذا بالبـــاب يفتح ، ويظهر فيه الكردينال تيسران ، فيمدّ اليهم يمينه ، فيخرّون امامه ويقبّلون خاتمه المشع في اصبعه ، ويبدأ كلٌ بلغته تحيات مفخمة لا نهاية لها . في هذا الديوان الروماني ، حيث الحجـــاب يغالبون النعاس ، يسرُّ الانسان ان يتنشق فجأة نسيماً شرقياً ، نفحة من « الف ليلة وليلة » . ذلك بان للكردينال تيسران حق الاشراف على العالم العربي ، وخاصة على الكثوليكيين في الشرق الادنى . وربما كان هذا الامر من جملة ما اوصله الى منصبه العالي الخاص .

وُلد اوجين تيسران سنة ١٨٨٤ في نَنسي Nancy من مقاطعة اللورين في فرنسا . ومنذ صباه احسّ بالدعوة الى الكهنوت والى درس الكتاب المقدس . فتلقن في باريس اصول العبرية والسريانية والاشورية والعربية والحبشية ، وأخيراً الارمنية والروسية . وما مضى زمن يسير حتى دُعي الى تدريس الاشورية في روميـــة ، وعُيّن حافظاً للمخطوطات الشرقية في المكتبـــة

الفاتيكانية .

وكان اشراف الاب تيسران على المكتبة وسيلة ليسير بعيداً في طريق التوسع والتعمق في الدروس الشرقية ، وهو طريق شاقّ . فألّف بضعة كتب في مواضيع كتابية ، ونشر مخطوطات حبشية ، فعُدّ بحق احد مشاهير المستشرقين في العالم . وترويحاً للنفس من عناء الدرس ، زار الشرق متنقلاً ، على ظهر جواد ، بين القدس وبغداد . ثم تسنّى له ان يعود الى فلسطين بسيارة هـذه المرة ، في اواخر الحرب العالمية الاولى ، رئيساً للمكتب الاول في قيـادة الفيلق الافرنسي الذي ضمته حملة الحلفاء على الشرق الادنى .

وبعد الحرب ، رجع الاب تيسران الى المكتبة الفاتيكانية . واجرى فيها تحسينات واسعـة وفق المقتضيات العصرية عقيب رحلة قام بها الى اميركا . وكان يقاسمه هذا الشغف بالشؤون المكتبية رجـلٌ آخر كان آنئذ على رأس المكتبة الفاتيكانية ، فاصبح بعدئذ البابا بيوس الحادي عشر .

وشاء البابا الجديد ان يستعـين به في ادارة الكنيسة العليا ، فقطع عليه بغتة سيره الهـادىء في طريق الدرس والتنقيب ، وسمّاه كردينـالاً على رأس المجمع المقدس للكنيسة الشرقية قبل ان يرفعه الى درجة الاسقفية ، ثم امر بتثقيفه على يد وزير دولته الكردينال باتشلّي (البابا بيوس

الثاني عشر) . وبين ليلة وضحاها ، ارتفع المستشرق العلامة من مكتبته ومخطوطاته الى منصب يُعدّ بحق من اعلى المناصب في ادارة الكنيسة .

ان لعميد مجمع الكرادلة شعبية في الدواوين الرومانية ، قلّ من ضاهاه فيها من زملائه رؤساء المجامع ، بالرغم من انه ليس ايطاليـاً ولا من الموالين . ينهض صاحب النيافة صباحاً عند الساعة الخامسة ، فيقيم الذبيحة الالهية في دار سكناه ، حيث يعنى بشؤون المنزل شقيق له مع زوجته . ويقصد الكردينال الى المجمع ، ماشياً على قدميه عبر رومية . فيدخل مكتبه الواسع ، ويظل يدير دفة الاشغال حتى الساعة الرابعة عشرة . فتأتي عندئذ سيارته فيذهب بها الى منزله . وبعد الغداء ، يسجل على دكتافون تقارير ورسائل ومناشير رعوية ، بلغات مختلفة ، تنقلها في الحال احدى الضاربات على الآلة الكاتبة .

واحياناً كثيرة ، بعد الغروب ، ينزل الكردينال الى منزل ابنة شقيقه القائم تحت منزله ، فيحيط به صغارها الكثيرون ، فيأنس بهم وقتاً ، متمماً بالفعل كلمة السيد المسيح : « دعوا الاطفال يأتون اليّ » ، الا ان يكون قد قبل الدعوة الى وليمة عشاء تقام على شرفه في احدى السفارات؛ او ان يذهب ، بعض الاحيان ، الى احدى الباسيليات الرومانيات الكبرى ليرئس حفلة دينية فيها ، فيدخل حينئذ

بثوبه الارجواني ، يحيط به مرافقه النبيل وسكرتيره وحامل الذيل ؛ وعلى مدخل الكنيسة يستقبله الاكليروس بالترانيم والبخور .

الفصل الثالث

المحاكم والدوائر

١ – محكمة الروتا .

ان الدعوى ، التي بها يُطلب اعلان بطلان زواج ، تكلف في رومية على اقل تقدير ٣٠٠,٠٠٠ لير ايطالي (١٥٠,٠٠٠ قرش لبناني) ؛ منها ١٧٠,٠٠٠ لير على الاكثر للمحامي المقبول لدى محكمة الروتا ؛ ومن ٤٠,٠٠٠ الى ٥٠,٠٠٠ لير لطبع اعمال الدعوى ؛ وما تبقى فنفقات المحكمة . ولا بد من اضافة نفقة رحلة او رحلتين الى رومية ، وبدل تنقل الشهود وتعطيل اشغالهم ، الخ ... على ان العاجز عن الدفع ، لقلة ذات يده ، تقبل دعواه مجاناً ، وان اربعين بالمئة من مجمل الدعاوى الزواجية في رومية هي مجّانية .

لا يمكن كثوليكياً الحصول على حل وثاق زواجه الا بطريقة اعلان بطلانه . فالكنيسة ، كما هو معلوم ، لا تقبل ابداً بالطلاق بمعناه المدني ، لانها تعلّم ان وثاق الزواج غير قابل الحل بقوة كلمة السيد المسيح في الانجيل بحسب

مار متى [١] : « فما جمعه الله فلا يفرّقه الانسان »(١٩ : ٦).
فالزواج اذاً سر يدوم طوال الحياة . ولا تحكم الكنيسة الا بالهجر الشرعي بين الزوجين في بعض حالات يصعب فيها تعايشهما . وليس لاحد الزوجين ، لاستعادة حريته ، سوى ان يستطيع اقامة البرهان على انه فقد هذه الحرية عند عقد زواجه ، او ان زواجه لم يعقد بالصورة المفروضة شرعاً . ففي حالات عديدة قد لا تتم جميع الشروط الواجبة لصحة الزواج في نظر الكنيسة ، فاذا شك احد في ان زواجه مشوب بنقص ما ، فعليه ان يعرض الامر لمحكمة ابرشيته .

وبحسب طبيعة الدعوى المطلوب نقض الزواج فيها او اثباته ، تقرر المحكمة الاسقفية صلاحيتها ، او عند الاقتضاء تحوّل الاوراق الى رومية . وبعد صدور الحكم الاسقفي ، (ببطلان الزواج) يجب ان تنظر فيه محكمة ابرشية اخرى (وفي الشرق المحكمة البطريركية الاستئنافية) . فاذا اتفقت المحكمتان في قراريهما للاسباب عينها ، تم الحكم بشأن القضية. وعندئذ يجب على « المحامي عن الوثاق » ، المكلف بقوة وظيفته الدفاع عن ثبوت الزواج ، ان يستأنف القضية الى

١ في معرض الكلام على الزواج .

محكمة ثالثة [١] . فاذا اثبتت هذه المحكمة الحكمين السابقين ، يعلن بطلان الزواج .

على ان الاحكام في هذه المادة ليست مبدئياً من نوع « القضايا المحكمة » ، فيظل المجال مفتوحاً لاعادة النظر فيها (وهذا النظام القاضي بفحص قضية واحدة وبتّها في محكمتين مختلفتين ، هو جد مألوف في اصول المحاكمة الكنسية) .

ان الزواج ، في عرف الكنيسة ، سرّ لا يوليه الكاهن الذي يبارك الزواج ، بل يتمه الزوجـــان بالذات ، حين يتبادلان الرضى بالزواج ، بقولهما : نعم . والكاهن ليس سوى شاهد رسمي على ذلك ، يمثل السيد المسيح الذي باسمه يُعقد الزواج .

ويورد الحق القانوني الاسباب التي تجعل الزواج باطلاً وعددها ثلاثة عشر ، وهي ما تدعى الموانع المبطّلة للزواج : صغر السن – العجز الطبيعي – قيام وثاقٍ زواجي سابق – اختلاف المذهب – درجـــات الكهنوت الكبيرة – النذر الرهباني الاحتفـــالي – خطف العروس – الذنب – القرابة الدموية – القرابة الاهليـــة – القرابة الروحية – الادب

١ الصواب: ليس على المحامي عن الوثاق ان يستأنف حتماً في هذه الحالة، الا اذا رأى من واجبه بدافع من ضميره ان يلجأ الى الاستئناف لعدم اقتناعه بصواب الحكمين المتطابقين . ثم ليس ثمة ما يمنع احد المتداعيين او كليهما من الاستئناف الى محكمة ثالثة . – المترجم .

العمومي – التبنّي .

وعلاوة على هذه الموانع الواقعية ، يكون الزواج باطلًا لنقصٍ في الرضى . فقد رأينا ان الرضى هو العنصر الجوهري في تكوين وثاق الزواج . فلا زواج صحيحاً إلا ما كان كلا الزوجين قد ابرز رضاه به بحرية واستقلال تامين ، وعن معرفة دقيقة بما يرتبط به . وعلى هذا الصعيد يمكن القضاة الكنسيين ان يكونوا اقل او اكثر تسامحاً وتساهلًا ، او تشدداً وتصعباً . والشعور السائد الآن ان للتساهل ، بالاجمال ، التغلب . فتجاه المآسي التي تمزق العائلات غير المتآلفة ولا المتجانسة ،تميل المحاكم الكنسية الى تفسير مقتضيات الشريعة باكثر حرية مما كانت تفعل في الماضي . فيُبحث اذا كان احد الزوجين قد ابرز رضاه في حالة جهل ، او تحت ضغط ذويه ، او اذا كان قيّد رضاه بتحفظ عقلي فيما يعود الى جوهر الزواج ، او بعزم سابق على عدم احترام احدى غايات الزواج ، وهي انجاب البنين ، وغير ذلك من الاسباب التي قد تفسد الزواج في اصله واساسه او تضعفه ، اعني الرضى الاختياري عن معرفة كاملة .

ومن مدة قريبة ، هال محكمة الروتا ، المكلفة الحكم في دعاوى الزواج في الدورتين البدائية والاستئنافية وما بعدهما ، هالها ما لحظته من تساهل زائد لدى بعض المحاكم الاسقفية في اعلان بطلان الزواج . فاصدرت تعميماً بهذا الشأن .

وبالرغم من ذلك ، فلا يزال عدد الاحكام المعلنـــة بطلان الزواج في ازدياد على مـا يظهر .

وقد يكون الزواج باطلًا كذلك لنقص في صورة عقده اي صيغته . ان عقد الزواج الذي يتم بواسطة الزوجين ، على ما رأينا ، بقوة رضاهما ، يجب ابرامه بابراز الرضى امام شاهد رسمي تعينه الكنيسة ، وليس امام اي كاهن . فالشاهد الشرعي هو خوري الرعيـة واسقف الابرشية ، او الكاهن الذي يفوّض احدهما ذلك اليه . ومن الراهن ان العبث ببعض قوانين اخرى ، تفرضها الكنيسة في صورة عقـد الزواج ، يعتبر نقصاً فيه ، ومنه ما يبطـــل الزواج ومنه ما يجعله ممنوعاً ، غير جائز ، ولكن صحيحاً .

ويحسن بنا ، في هذا المجال ، ان ننظر في حادث زواج صحيح شرعاً ولكنه غير مكتمل فعلًا . ان هذا الزواج ، مبدئياً ، غير قابل الحـل شأن الزواج الصحيح الشرعي ، اذ ان رضى الزوجين هو ما يوليها السر . غير ان الحـبر الاعظم ، بحسب الحق القانوني ، يستطيع ان يفسّح في هذا الزواج غير المكتمل . وعلماء اللاهوت والقانون في جدل لا ينتهي ليعرفوا كيف يمكنهم تصويب هــذا المس بمبدإ امتناع حل الزواج . ولكنهم بالاجماع لا يشكّون في سلطة البابا على التفسيح منه .

فعند حدوث شيء من هذا ، يجب تقـديم عريضة الى

الاسقف المكاني ، توضح فيها الاسباب التي لاجلها لم يكتمل الزواج ، وما هي البراهين على ذلك ؛ وتورد المسوّغات للتفسيح . والاسقف بدوره يرفع الامر الى الدوائر المختصة في رومية ، فتفوّض اليه عادة التحقيق في الامر بذاته او بواسطة كاهن ينتدبه . على ان كل زاوج مطعون فيه على هذا الشكل ، يعتبر مكتملاً ؛ وعلى المدعي اثبات العكس . اما الفحص الطبي فليس دائماً في الامكان ، اذا كانت الزوجة ارملة مثلاً . فعندئذ يكتفي المحقق بالاستماع الى الشهود وبوثائق مكتوبة . وبعد التدقيق في نتيجة التحقيق ، وثبوت الادعاء ، يقدم مجمع الاسرار (او المجمع الشرقي فيما خص الشرقيين) تقريراً بذلك الى الحبر الاعظم الذي يستطيع ، شخصياً وحده ، ان يعيد الى العروسين حريتهما . وقد يحدث احياناً ، اذا كان في التحقيق ما يدع سبيلاً الى الخوف من ان زواجاً جديداً قد يتعرض للصعوبة عينها ، ان يحظر عقد زواج جديد ولو بطريقة موقتة ، على من لم يكتمل الزواج بسببه .

وتبحث القضايا الزواجية في رومية في ثلاث دوائر مختلفة ، بحسب طبيعة هذه القضايا : مجمع الاسرار ، ومحكمة الروتا ، والسنتفيش الذي يحتفظ لنفسه بالحوادث الناجمة عن الزواج المختلط : بين كثوليكي ولا كثوليكي . اما الروتا فهي اقدم المحاكم الكنسية ، اذ انها أنشئت منذ ٧٥٠ سنة . ومقرّها

القصر الرائع المختص بدائرة الخـــتم الرسولي Chancellerie ، ورئيسها الحالي حبر افرنسي ، هو المنسنيور جوليان Jullien ، من كهنة جمعية سان سلبيس (رفع الى مقام الكردينـالية سنة ١٩٥٨) . وفيها تثـــار قضايا هي اشبه بالمآسي منها بالدعاوى . ولكنها تجري بسكون وهدوء ، لان جميع اعمالها تقريباً تتمّ كتابةً . فيقدم محامي المدعى عليه دفاعه مطبوعاً في عشرين صفحة من حجم تحـــدده المحكمة . وبعد عشرين يوماً يردّ عليه محامي المدعي بمطـــالعة مطبوعة في عشر صفحات . وغالباً مـــا تتتالى المرافعـات والمطالعات . وقد تدوم هذه الحرب بالنشرات اشهراً واعواماً . ولا ترخّص الروتا للخصمين او محاميهما بالمثول امامها إلا في حوادث جد نادرة ، لكي يجلوا شفوياً بعض نقاط تفصيلية امام القضاة .

ومن عادة محكمة الروتا ان تنشر كل سنة احصاءً مجملاً للدعاوى التي انجزت في اثناء السنة القضائية . وهوذا احصاؤها لسنة ١٩٥٣ : ١٧١ حكمـــاً في قضايا زواجية ، ٧٧ منها باعلان بطلان الزواج ، و٩٤ باثبـــات صحته . وكانت ٢٥ دعوى من الفئة الاولى ، و٤٣ من الفئة الثانية ، مجانية ، لم تكلف المتداعين شيئاً ، وقامت المحكمة بدفع جميع نفقاتها ، ومنها بدل اتعاب المحامين .

٢ ــ محكمة التمييز العليا .

في الفاتيكان ، محكمة اخرى، غير الروتا، هي محكمة التمييز العليــا Suprême Tribunal de la Signature Apostolique ، مؤلفة من عشرة كرادلة ، مهمتها عادةً القيام بدور محكمة التمييز بالنسبة الى المحاكم الكنسية . وفي حوادث جد نادرة ، قد تكسر هذه المحكمة احكام الروتا وتقبل الشكاوى ضد قضاة هذه المحكمة .

٣ ــ محكمة التوبة .

تجري اعمال هذه المحكمة في الخفية . فقضاتها لا يعرفون على الاطلاق هوية المتهمين . والوقائع تعرض امامها دائماً تحت ستار كتمان الاسماء الصحيحة . ومن اغرب ما لا يصدق ان الكردينال كنالي ، المشترك في ادارة الكرسي الرسولي الزمنية ، هو هو القيّم على هذه المحكمة ، محكمة الضمائر .

ان محكمة التوبة تحل من الخطايا « المحفوظة » أعني الخطايا الثقيلة جداً التي لا يحق للمعرّف العادي ان يحــل منها ، فيحيل امرها الى هذه المحكمة ، او الى الحبر الاعظم بالذات .

ولهذه المحكمة ان ترفع العقوبات او التأديبــات المنزلة باحد المؤمنين لمجرد اقترافه بعض ذنوب ثقيــلة ، معينة في الحق القانوني على درجات : اربع منها « محفوظة بنوع خاص جــداً » ، واثنتا عشرة « محفوظة بنوع خاص » ، الخ ...

فالمحكمة تدرس الذنوب التي ادت الى انزال هذه العقوبات ، وترفع التأديبات المفروضة عليها . وقد يضطر المعرّف احياناً ، في ظروف استثنائية ، كما في حالة خطر الموت ، ان يحل من الخطايا المفروضة عليها تأديبات ، ثم يعرض ما حدث لمحكمة التوبة ، فتصدر حكماً لاحقاً ، به تثبت ما اجراه المعرّف . على ان هذه الخطايا وعقوباتها هي دائماً من الحوادث الاستثنائية . ومن النادر ان تتجاوز الخطايا ، التي يقترفها التائب « العاديّ » ، السلطات الواسعة التي تمنح لكل معرّف .

والى محكمة التوبة يعود كل ما يلامس « منبر الضمير » ، اعني كل ما يلحق بضمير المؤمن ، بدون ان يشيع في الخارج ، او يبدّل الحياة الاجتماعية . فمحكمة التوبة لا تعنى إلا بالخطايا الداخلية ، بعلاقات النفس بالله . من ذلك اذا نذر احد نذراً في قرارة ضميره ، ولا قدرة له على ايفائه ، فمحكمة التوبة تعفيه منه . وكذلك « اذا قبل احد النـــاس ارثاً مرهقاً بشروط شفوية وخفية ، فرأى ذاته غير قادر على اتمام هذه الشروط التي ارتضاها بضميره ، بدون الحاق اضرار جسيمة بنفسه وبذويه » . فمحكمة التوبة ، بعد درس ظروف الحال ، تستطيع ان تبرىء ذمته ، وتعيد الطمأنينة الى نفسه .

كل كثوليكي يستطيع الاتصال مباشرة بمحكمة التوبة ، فيكتب الى نيافة الكردينال رئيسها . على ان المعرّف نفسه يكتب اليه عادةً ، مورداً ، في عرضه الحادث ،

اسماء مستعارة ، فيرد اليه الجواب في غلاف باسمه ، وطيه غلاف مختوم مع شارة محكمة التوبة ، وعليه هذه العبارة : « الى المعرّف الذي يختاره التائب بين الكهنة الذين نالوا الولاية من الاسقف المكاني » . فالمؤمن التائب يختار معرّفه الشخصي او كاهناً آخر ذا ولاية ، فيحدّثه من وراء شبكة كرسي الاعتراف ، ويدفع اليه الغلاف المختوم الصادر عن محكمة التوبة ، فيفضه المعرّف ويقرأه عليه ، وهكذا تحفظ الى النهاية حرية الضمير وسر الاعتراف .

ان الالتجاء الى محكمة التوبة لا يكلف شيئاً ؛ فاعمالها مجانية وتقوم بها بكل سرعة بخلاف سائر المجامع الرومانية ، « لان التوبة الصادقة لا شك فيها ، ومن المهمّ الاسراع في العمل لكي تعاد الى التائب طمأنينة القلب » .

القسم الرابع

نظرات الى المستقبل

الفصل الاول

الشرق والغرب

١ - نظرة اجمالية .

للمسيحيين الشرقيين اهميةٌ عظيمـــة في نظر الكنيسة الكثوليكية ، بالرغم من قلة عـدد المتحدين منهم برومية . فالكنيسة الجامعة ليست على الاطـلاق محصورة في الكنيسة الغربية . فبينا تعلن هذه ان في حوزتها وديعة العقيـــدة الموحى بها ، تحسّ في قرارة ضميرها وفي عمق نفسها انها قد اصيبت ببترٍ في جسمها ، حين انفصلت عنها اقسامٌ ضخمة من الجماعة المسيحية .

إلا ان الكنيسة الشرقية لم تنفصل عن روميـة الا بسبب خلافات على السلطة والولاية ، لا على العقيدة . وهي تواصل ، الى جانب الكنيسة الرومـانية ، حياة غنية بثمار الاسرار المقدسة ، ومتصلة رأساً بالمسيحية في اصلها الرسولي . ولكنها رفضت الاعتراف للبابا بسلطة الرئيس الاعلى المطلق ، على اثر سلسلة طويلة من المجادلات اللاهوتية والمشاحنات السياسية ، فاصبحت منشقة في نظر رومية .

ولكن ليس من ينكر عليها انهـا ، على شاكلة الكنيسة الرومانية ، تنعم بحيازة ملء الكهنوت المتصل بها بوضع اليد من جيل الى جيل ، وتمارس الاسرار صحيحةً وتوزّعها على المؤمنين مفيدة ذات فـاعلية تامة . ولهذا كان الجرح الذي ينزو في جنب الكنيسة ، بانفصال الارثوذكسيين عنها ، مما يوليها فقراً بالدرجة الاولى .

قال البابا بندِكتُس الخامس عشر : « ان كنيسة يسوع المسيح هي كثوليكية اي جامعة : لا لاتينية ، ولا يونانية ، ولا صقلبية . وليس ثمة فرق بين الواحد والآخر من بنيها ». لهذا السبب ، كانت الاقليات الموالية للبابا ، من غير الطقس اللاتيني ، تمثّل ، في نظر الكنيسة ، قيمة تفوق اهميتُها عددها ، بما لا حدّ له .

وليس تفوّق الطقس اللاتيني في الكنيسة الكثوليكية ، في الزمن الحاضر ، سوى ظاهرة عرضية ، تستمر منـذ تسعماية سنة تقريباً . ولكن الكنيسة لا تقيس الزمان بحياة الانسان . فاي شأن لقرن ما في وجودها ؟ كتب الاب دِفريس De Vries احد المعلّمين في المعهد الحـبري الشرقي برومية : « على الكنيسة الكثوليكية في المستقبل ان تضم الكنائس الشرقية اليها كاعضاء فيها ، وعلى مبدإ المساواة في الحقوق ، كما كان الامر قبل الانفصال ، وان تتخذ بكليتها شكلاً روحيـاً ، كنسياً ، يختلف عن شكلها الحاضر الذي هو لاتيني قبل كل

شيء آخر .

٢ – نظرة في الحاضر .

لا شك في ان الشقـاق نتج ، في الاصل ، عن قسمة الامبراطورية الرومانية الى غربية وشرقية ، عـاصمة الاولى رومية ، وعاصمة الاخرى القسطنطينية اي بيزنطة . فاساسه اذاً قائم على واقع سياسي . ثم اشتدت المنـافسة بين اللاتينيين واليونانيين . ورغب الاباطرة البيزنطيـون ان يجمعوا في قبضتهم ، وفقاً للتقـاليد الوثنية القديمة ، السلطتين الزمنية والروحيـة ، فانبرى بطريرك القسطنطينية يقاوم اسقف رومية الذي كان يطـالب لنفسه بخلافة بطرس رئيس الرسل . فكانت النتيجة ان وقع البطريرك تحت ولاية الامبراطور . ومنذ تسعة قرون ، سنة ١٠٥٤ ، اصدر البابا مرسوماً به يحرم ميخايل كيرولاريُس Cérullaire بطريرك القسطنطينية ، فتم بذلك انشقاق الشرق . وفيما بعد سارت المملكة الروسية الشاسعة الاطراف ، التي كانت القسطنطينية قد هدتها الى الدين المسيحي ، في اعقاب اليونانيين وتبعتهم في الخروج على رومية .

ولكن بين الكنيستين اكثر من نزاع سياسي . فان لكل منهما تقليداً خاصاً ، وروحانية ذاتية ، وتفسيراً متبايناً للرسالة المسيحية الواحدة .

ففي الشرق ، كلما زاد رؤساء الكنيسة خضوعاً مباشراً للسلطة الزمنية (ولما ينتهِ ذلك بعـــد !) كان المؤمنون ينضمّون جسماً واحداً في كنيسة باطنية منصرفـــة الى التـأمُل . على ان هذه الشقة بين الرؤساء الكنسيين السياسيين والمسيحيين الروحـانيين لم تنل بشيءٍ حيوية الايمان وعمقه . ولكن هؤلاء المسيحيــين كانوا يبعـدون عن العـالم ليصلـّوا ، وكانت عبادتهم مرتكزة على شعورهم بان الحياة الروحية لا تتفق وحياة العالم .

اما في الغرب فولـّت الكنيسة وجهها شيئاً فشيئاً شطر الامور العملية الواقعيـة ، واختصرت الطقوس ، ووضعت لها نصوصاً لاتينية ، وجنّدت من بنيها جيشاً دفعته الى مختلف الاقطـــار ليهدي البشر الى المسيحية ؛ وكانت تعمل ، بموجب خطط ومناهج اصولية ، على تركـــيز شؤونها وتنظيم السلطات الدينية في تسلسلها ، وفقاً لمـا ورثته من تقاليد الحق الرومـاني ، بينا كانت الكنيسة الشرقية تغرق في اللامبالاة بمجازفات رؤسائها السياسية .

على ان الافراط في تحديد هذه الخصائص الفـارقة بين الكنيستين ، ليس دائماً واقعياً ، بل نتيجة نظريات شخصية . ففي الغرب حياة روحية متعمقة في التأمل على مثـــال ما في الشرق . فنحن امام اتجاهين حالت الحواجز المفتعلة دون تلاقيها ؛ ولولا ذلك لكان احدهمـــا يتمّ الآخر ،

فينشأ كيان واحد متلائم . فاذا حصل الآن هـذا الاتحاد ، كانت المسيحية الجسر بين الغرب والشرق .

٣ – نظرة الى المستقبل .

لنتصور المدى الذي تبلغـــه الكنيـسة ، اذا عاد مسيحيو روسيا وسائر المشرق عن جديد فأووا تحت كنف السلطة المركزية الرومانية . ان المسيحيين الخارجين على ولاية البابا يعدون اليوم نحواً من مـائة وخمسين مليوناً ، ومنهم طوائف كثيرة تسام الاضطهـــاد في الاراضي الخاضعة للحكومات الشيوعيـة ، ومنهم طوائف اخرى مشتتة بين شعوب مختلفة الاديان في الشرقين الادنى والاقصى . وهكذا من روسيا الى مصر ، ومن بلغاريا الى فلسطين ، ومن رومانيا الى لبنـان وسوريا ، ومن ايران الى الحبشة ، تملك الكنيسة بعض رقبات جسر وبعض فرق استطلاعية قلائل ، مفصولة الواحدة عن الاخرى ، صامدة منذ قرون طويلة .

ولا ينبغي لنا اهمال ناحية اخرى من الدور الذي يستطيع الارثوذكسيون ان يمثلوه في معضلة اتحـاد الكنائس . فالكنائس الشرقية صلة بين الكنائس البروتسطنتية والكثلكة على الصعيد السيكولوجي اكثر منها على الصعيد اللاهوتي . ومن الراهن ان الارثوذكسيين والبرتسطنتيين يشتركون

معاً في حذرهم من البابا . إلا ان الارثوذكسيين قد استبقوا ما فقـــده البروتسطنتيون ولا يزال بعضهم وخاصة في انكلترا يحن اليه حنين الغريب الى وطنه ، اعني التقليد الرسولي في ايلاء الكهنوت ومنح الاسرار بصورة صحيحة .

في الازمنة المتأخرة اقيمت ، بين حين وآخر ، اجتماعات شُبّهت « بمجامع عامة » ضمت معاً البروتسطنتيين والشرقيين . ولكن الكنيسة الكثوليكية لم تشترك فيها بالفعل كمفاوضة ، بل ارسلت اليها مراقبين من قبلها . على انها تشجع حركة تدعى « الاتحاد » Unitas قام بها منذ سنين الاب شارل بوييّه Boyer احد الرهبان اليسوعيين في رومية ، ولا يزال يتعهدها بكل دراية وفطنة .

ومن زمـــان بعيد ما عادت الكنيسة الكثوليكية دعت الى عقد مجمع عامٍ . فالبابا هو وحـده حالياً مصدر التعليم بكليته وقد يكون في ظروف الزمان الحالي ما يلائم عقد جمعية من اساقفة الكنيسة العامة ومعلمي اللاهوت فيها . والسبب في ذلك ليس فقط الخطر الذي يهدّد العالم كل ساعة بكوارث سياسية واجتماعية ، ولكنه كذلك شعور الكنيسة بانها خسرت كثيراً بسبب الانشقاقات ، فلم يعد في وسعها ان تعقد مجمعاً عاماً بما يليق من السناء والفائدة . ثم ان علم اللاهوت ، على ما يظهر ، يجتـــاز اليوم ازمة . فالمعلمون في الجامعات والمدارس الاكليريكية يقصرون همهم

على ترديد تعابير قديمة مستقاة من تعاليم مار توما الاكويني ، ما خلا نفراً قليلاً تطوعوا لمحاولة تطبيق الفلسفة العصرية على تعليم الكنيسة التقليدي .

ويخال لنا انه لا بد من ارتقاب يوم ، ربما كان حدساً ، او هو بدون شك بعيد جداً ، يلتئم فيه مجمع عظيم يضم اهم الكنائس المسيحية التي احتفظت ، على درجات متفاوتة ، بمعظم معطيات الوديعة المسيحية في الغرب والشرق .

الفصل الثاني

الكنيسة والشيوعية

١ ـ نظرة اجمالية .

سنة ١٩٥٣ ، ما كنتَ ترى في رومية سوى ابتسامات ولا تسمع إلا تهانىء لمناسبة انعقاد مجمع الكرادلة الذي دعا اليه البابا ورأسه ، وهو احد اهم المجامع في زماننا ، وفيه سمّى عدداً كبيراً من الكرادلة الجدد. على ان جريدة الاوسرفاتوري رومانو ، لسان حال الفاتيكان شبه الرسمي ، نشرت ، وسط هذه الغمرة من السرور ، النص الكامل للرسائل التي تبادلها الكرسي الرسولي ويوغوسلافيا ، قبل قطع العلاقات الدبلُماسية بينهما . ومنها رسالة من وزارة الدولة الى حكومة المرشال تيتو Tito ، تبسط باختصار ووضوح خطة البلدان الشيوعية في محاربة الكنيسة الكثوليكية

فما ان اطّلع عليها الاحبار والزوّار والسيّاح في رومية ، حتى انتقلوا من جو الاعياد البهجة الى حضيض الحقيقة الراهنة ، وعاد الى مجمع الكرادلة طابعه الحق ، اي كونه مجلساً حربياً بقدر ما هو عيد عائلي .

ولا يزال ذكر الغائبين من الكرادلة يقلق البال ، وهم : الكردينال مِندزنتي Mindszenty الهنغاري المستقرّ في الحبس ، بعد ان عُذّب في جسمه وفي نفسه ؛ والكردينال ويزنسكي Wisynesky البولوني المسجون ؛ والكردينال استبيناك Stepinac اليوغوسلافي المحكوم عليه بالاقامة الجبرية .

وتقوم حول رومية منطقة تدعى الزنار او السور الاحمر Ceinture Rouge ، لا تبعد عن الفاتيكان سوى بضع مئات من الامتار ، هي همُّ البابا المقعد المقيم . فهناك مدينة من اكواخ خشبية ، قامت في اثناء الحرب ، تعيش فيها بفقر مُدقع عائلات عديدة من الشعب الكادح ، مُكرهة على البطالة ، قانطة من وجود عمل . وفي بقايا القنوات الرومانية الخربة ، تقيم على الحضيض عائلات اخرى تفوق تلك بشقائها . وهؤلاء واولئك قطعان مهيأة لان تسلم قيادها لاقلية من الشيوعيين المجاهدين المدرّبين المتعطشين الى الهجوم والقتال .

وقد اسفرت الانتخابات البلدية الاخيرة ، في رومية ، عن فوز الشيوعيين برئاسة المجلس البلدي ، واحتفاظ الحزب الدمقراطي المسيحي لانصاره بوظائفهم الادارية فيه .

هذا في اوروبا . اما في الصين فكم من المطارنة والاساقفة والكهنة والرهبان والراهبات ، يفدون الى رومية ، فيبسطون المأساة الكثوليكية في بلاد ماو تسي تُونغ Maw Tsé Tong ؛ كما

يصف الكردينال الهندي الجديد في بومباي فالريو جراثياس Valerio Gratias الخطر الشيوعي المتفاقم الذي يهدد وطنه .

وفي كوريا الشمالية ، قوّضت الحرب جهود الكثوليكيين ، وقُتل الكثير من الكهنة والمرسلين والمؤمنين .

وفي الجملة ، تتعالى الاصوات ، من كل الجهات ، وخصوصاً من اعماق آسيا ، داعية رومية الى الاحتراز والحذر .

٢ – في الصين .

كان شهر كانون الثاني ١٩٥٣ ، كثير المطر في رومية . فاستقبلني المطران روميه Romier في غرفته الباردة ضمن بيت الرسالات الدولي Maison Internationale des Missions ؛ وكان قد قضى اربعين سنة في الصين ؛ ومن سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩٥٣ ، لم يرجع الى موطنه فرنسا الا مرتين فقط لمشاهدة ذويه . فترى وجهه قد استعار قسمات الصينيين ، وعينيه قد استطالت مآقيهما وضاقت ، ولحيته الطويلة الضئيلة كاطار تبرز منه وجنتاه الناتئتان ، ولهجته تذكرك بلهجة اهل بوردو في فرنسا ، وروسيا ، وانكلترا ، والصين ، وكلامه قد اضحى مزيجاً من الفرنسية والانكليزية ، ومنه ما هو دائر ، ومنه ما هو سوقي .

ان هذا الحبر مطران في الصين ، فطردته حكومة ماو تسي تونغ ، بعد ان سامته اصناف الجور واسرته زماناً

طويلًا . وهذا المطران واحد من الالف والثلاثة والخمسين حبراً ومرسلًا وراهباً وراهبة الذين ابعدتهم السلطات الصينية عن بلادها في السنة الاخيرة ، وفق خطة منظمة .

شاهدت عدداً وفيراً من هؤلاء المرسلين الذين اكرهوا على مغادرة الصين ، بعد ان قضوا فيها حياتهم كلها في خدمة المسيحيين . والتقيت الاب إنلدي Enaldi الايطالي الذي كان قد قطع لسانه بنصل موساه ليمتنع عليه افشاء اسماء الكثوليكيين الصينيين الذين كانت الحكومة تجهد في الحصول منه على معرفتها ، باستجوابات لا نهاية لها ، منظمة وفقاً لآخر ما وصل اليه علم التعذيب والاجهاد السيكولوجي من الاساليب الجهنميّة .

ان هؤلاء المرسلين ينشرون في احاديثهم ويبسطون في تقارير يرفعونها الى مجمع نشر الايمان ، ما يتيح لنا الاطلاع على الخطط التي يلجأ اليها ماو تسي تونغ على الجبهة الصينية من الحرب الطاحنة القائمة بين الشيوعية والكنيسة الكثوليكية . وان لهذه الجبهة اهمية جلى في نظر الفاتيكان ، ليس من حيث عدد الكثوليكيين الذين يخوضونها ، بل من حيث ان الكنائس الصينية ، وفيها الكنائس قديمة جداً ، ضمنت ولا تزال تضمن استمرار الوجود المسيحي في آسيا .

من زمن قديم ، انشأ الكرسي الرسولي في الصين سلطات كنسية متسلسلة من ابناء البلاد . فالاساقفة الاول ، الذين

اختارهم البـــابا بيوس الحـادي عشر ، كانوا صينيين ؛ وكان صينياً اول كردينـــال من غير اللون الابيض ؛ والكنيسة الصينية الجديدة يسوسها عددٌ من الاساقفة والكهنة الصينيين . وهكذا استوطنت الكنيسة الكثوليكية الصين ، مما اثار ردة فعل عنيفة في دوائر الحكومة الشيوعية .

ان خطة هذه الحكومة تشتمل على ثلاث مراحل :

١ – انها تعمد قبل كل شيء الى الحؤول دون اتصال الكنيسة الصينية برومية . فتقوم لهذه الغاية بحملة في الاوساط الشعبية ؛ ثم تطرد ممثل البابا السيد ريبري Riberi ؛ فيصبح الاساقفة « معزولين » في الصين .

٢ – انها تطرد الاساقفـــة والمرسلين الاوروبيين والاميركيين بحجة انهم يقومون « بالتجسس لمصلحة الرجعية الراسمالية » .

٣ – بعد حرمان منطقة ما الاتصال برومية ، وابعاد رؤسائها الكنسيين غير الصينيين عنها ، تضغط ضغطاً عنيفاً على الاكليروس الصيني في سبيل جعل الكنيسة الكثوليكية ذات استقلال ذاتي ، وطنية مستقلة ، عن الفاتيكان ، وتقفل المدارس الاكليريكية او تضعها تحت اشرافها المباشر .

فهذه المراحل الثــلاث : الانفصال عن رومية ، وتنحية الاساقفة ، وانشاء كنيسة وطنية يسهل ازدرادها لقمة سائغة ، تتبعها جميع البلدان التي تشن الشيوعية فيها الحرب على

الكنيسة الكثوليكية .

وليس من لا يذكر تلك الحملة الشعواء التي شنتها السلطات في بلغراد على المنسيور اودي Oddi ، القائم باعمال السفارة البابوية في يوغوسلافيا ، حتى اضطرته الى مغادرة البلاد بعد قطع علاقاتها الدبلماسية بالڤاتيكان .

وفي يوغوسلافيا كما في هنغاريا ورومانيا ، تشجع الحكومة ، بطريقة شبه رسمية ، قيام طوائف اي كنائس كثوليكية « مستقلة » و « وطنية » . وفي سائر بلدان ما وراء الستار الحديدي ، اجبر السفراء البابويون ، من زمن بعيد ، على ترك مناصبهم ، وزج الكنسيون الكاثوليكيون في الحبس ، او وُضعوا في حالة تحول دون مباشرتهم اي عمل .

واحياناً تتخذ المقاومة ضد الاساقفة شكلًا جد عنيف . من ذلك اعدام المنسنيور بوسلكوف Bossilkof في بلغاريا . وفي جميع البلدان الواقعة تحت الرقابة الروسية ، اصبح الاساقفة في المنفى او في الحبس ، مثل الاساقفة المتحدين بروميه في غاليسيا . وفي يوغوسلافيا اخذت الدولة تحت حمايتها « شركات الكهنة الشعبيين » .

ومما كتبته وزارة الدولة في هذا الصدد : « يأتي البوليس الى الاجتماعات الدينية حيث تلقي الخطب التي تشجب ، بطريقة مكشوفة وعلنية ، اعمال الاساقفة ، بل الكنيسة جمعاء . وهذه « الشركات » يشدها تعاون وثيق الى الجبهة الشعبية ،

وبواسطتها الى « اتحاد الشيوعيين في يوغوسلافيا ».

اما انشاء الكنائس الوطنية ، تحت اشراف الحكومة وسهرها الدائم ، فتختلف خططه باختلاف البلدان . وها كم الاطوار الاربعة التي يتمّ بها تأميم الكنائس في الصين .

١ - يتجمع الكثوليكيون ، في كل رعية ، شركات او جمعيات ، منها للرجال ومنها للنساء ؛ وتشترك هذه الجمعيات في التظاهرات العامة الضخمة . وبالاستناد الى آيات من الانجيل او من رسائل مار بولس ، يُشرح لهم كيف ينبغي للمؤمنين « الطاعة للسلطة » او « تأدية ما لقيصر الى قيصر ».

٢ - على المسيحيين ان يترددوا الى « حلقات الدروس » التي يديرها « مسيحيون تقدميون » ، مهمتهم اعادة الديانة الى « نقائها الاولي » . فيُشرح لهم ان الاسقف الفلاني والكاهن الفلاني وزملاءهما يسخّرون طابعهم الديني لغايات سياسية . ثم يلقنون في النهاية مبادىء « العقيدة المركسية » .

٣ - وبعد اعداد قسم لا بأس به من الكثوليكيين ، بواسطة « حلقات الدروس »، على هذا الشكل ، يأخذ العمل بالاتضاح . فتنظم الاجتماعات ضد المرسلين الاجانب ؛ وتتهم علناً منظمة « فرقة أو جيش مريم » ، التي هي فرع من العمل الكثوليكي ، بالتجسس وبقتل الاطفال ، الخ ... وعندئذ تُقدِم حلقات الدروس على تحقيق اصلاح الكنيسة ، فتدعو المؤمنين الى الوقوف في وجه الاسافقة والكهنة للمحافظة ، بافضل

وجه ، على نقاوة الايمان وصفائه .

٤ ـ وبعد انشاء هذه الجمعيات من مسيحيين ومسلمين وبوذيين ، الملقبين جميعاً « بالمستنيرين » بمصباح الدولة ، تعلن حلقات الدروس استعدادها للقيام بادارة الرعية والابرشية على مسؤوليتها ، بدلاً من رعاتهم المترذلين . وعند هذا الحدّ يتحوّل « التطهير » الى محاولة « التوحيد » ؛ فتمتزج هذه الكنائس المُصلحة على الطراز الحديث ، بالرغم من اختلاف مذاهبها ، وتؤلف نوعاً من كنيسة عليا (فوق الكنائس) ، ترتكز على عمد وطنية .

وعندما تدرس الحكومة القضايا الدينية ، تختار الخبراء من هؤلاء « المتفقّهين الكبار » . ويؤلف البروتسطنتيون والمسلمون والبوذيون والكثوليكيون ، وجميعهم تقدميون وتحت اشراف الحكومة ، جماعات دينية بدون رؤساء ، بينما الاساقفة والكهنة والمؤمنون ، الذين يحرصون على سلامة ايمانهم واستمرارهم فيه ، يعتبرون معارضين للعهد الجديد .

اما رومية ، وقد بذلت اقصى جهودها ومعظمها في الصين ، فترى ، والحزن يحزّ في نفسها ، ان كهنتها يقل عددهم فيها ، ويزيد في قلقها ان معيناً يجود عليها بجنود جدد قد نضب .

٣ – « البابا الاحمر » ينشىء الكنائس الجديدة .

منذ ثلاثة قرون ، بدأت السلطـــة الكنسية المركزية تعمل بعزم ثابت على التوسع ، والقت هذه المهمة الى مجمع خاص هو مجمع نشر الايمان . وقبل ربط جهود المرسلين ، على هذا الشكل ، بمركزٍ واحد ، كان التبشير قائماً على نشاط كبار الرحّالة الذين كانوا يقتحمون الاسفار الطويلة في سبيل اكتشاف عوالم جدد . وعلى مـــدى زمان طويل ، كانت الرسالات وقفاً على البرتغال واسبانيا . وكان لعمل المرسلين ناحية سياسية ، هي خدمة اوطـــانهم الاصلية في منافعها الاقتصادية ، وزيادة ثروتها ، وبسط سيطرتها على اراض جديدة.

فبعد انشاء مجمع نشر الايمان ، اتخذ الباباوات من قصر روماني قديم ، قـــائم على ساحة اسبانيا في رومية ، مقراً عاماً للجنود الكثوليكيين المروضين المرشحين لافتتاح الامصار الوثنية وهدي شعوبها الى دين المسيح . فالكردينال رئيس المجمع ، ويلقب بالبابا الاحمر بسبب الثوب القرمزي الذي يلبسه ، يقود في الوقت الحالي جيشاً من اثني عشر الف كاهن بلدي ، وستة عشر الف مرسل . ويبلـــغ عدد الكثوليكيين الخاضعين لولايته نحواً من ثمـــانية وعشرين مليوناً . على ان غالبية هؤلاء المؤمنـــين ليسوا سوى شبه رقبات جسر في اراضٍ شاسعة واسعة من افريقيـــا وآسيا ، تعنى رومية بكل اناةٍ ببذر الزرع الانجيلي في تربتها .

وبالرغم من الصعوبات الجمة التي تصطدم بها الكنيسة في بعض البلدان ذات الطابع الشيوعي ، فان عدد هذه الجماعات الفتية يزداد على التوالي . فسنة ١٩٢٧ ، كان تحت ولاية مجمع نشر الايمان ثلاثة ملايين كثوليكي في افريقيا ، فاصبحوا احد عشر مليوناً سنة ١٩٤٩ ؛ وكانوا ستة ملايين في آسيا ، فصاروا تسعة . ان هذه الارقام تخمينية وتقريبية لاسباب عديدة . ولكن يبقى من الاكيد ان الكنيسة تعلّق آمالاً واسعة على انتشارها بين هؤلاء الشعوب الذين حققوا تحررهم او اقتربوا منه ، وهم الآن على اهبة القيام بخدمة بلادهم في اعقاب الاجيال الذين تقدموهم .

وتعنى الكنيسة في ايامنا اكثر من ذي قبل بانشاء كنائس محلية ، وبرسامة اساقفة وكهنة من السكان الاصليين البلديين في اراضي الرسالات . وهذه العناية تعود بقدمها الى زمن الجهود الاولى في سبيل التبشير . ولكن رومية لم تقرّر ، الا في عهد بيوس الحادي عشر ، ان ترفع ، بكل جرأة وليس بدون خطر ، الى مقام رؤساء عاملين في سياسة الكنيسة ، بعض المؤمنين الذين هداهم المرسلون الى الدين المسيحي من زمن بعيد .

وفي الوقت الحاضر ، يكتفي مجمع نشر الايمان ، في كثير من هذه البلدان ، بوضع المعالم الاولى للتبشير ، تاركاً للكنائس المحلية الفتية ان تربو وتنمو شيئاً فشيئاً ، بينا يواصل

هو امدادها بالمساعدات .

وهنـــاك قوة اخرى ، كنيسة اخرى ، تجهد في بسط سيطرتها على شعوب افريقيا وآسيا ، عنينا بها الشيوعية . وهذا الواقع الاساسي هو الذي جعل مجمع نشر الايمان يعدّل خططه ومناهجه تعديلاً عميقاً . فعادت ادارة الرسالات مباشرة الى البابا ووزارة دولته ،لان المرسلين اصبحوا يجابهون صعوبات اجتماعية ناتجة عن تحرّر تلك الشعوب ، ويتعرضون لدعايات وطنية متطرفة ، ولحملات عنيفة من جانب المركسية الجامحة .

وما عدا ذلك ، فـــان في كثير من البلدان الاوروبية القديمة حاجة ملحّة الى ايقاف تيار الفتور الديني ، بل تيار الانحراف حتى العدول عن الدين الى الالحاد والكفر . فانشأت الكنيسة ما سموه « الرسالة في فرنسا » و « الرسالة في باريس » لمعالجة هذه الحالة . فاغار الكهنة على المصانع في المدن الكبيرة بالروح عينه الذي دفع المرسلين الى ركوب البحار صوب اراضٍ مجهولة .

وفي افريقيا ، جعل الاب شارل دو فوكو Ch. de Foucaud ذاته شبيهاً باتعس فقراء السكان الرحّل ليحمل رسالة السيد المسيح الى هذا العالم بمثَله وباستقراره بينهم ، يعطف عليهم بروح المحبة المسيحية ، حتى اصبح بعد وفاته ينبوع الوحي الاول والشفيع الاكبر للحركات الرسولية التي ينتظر منها ان تعظم في العالم القديم ، وتكمل العمل الذي

بدأه « الكهنة العمال » أو الذين خلفوهم .

ان امتزاج الكنيسة الرومانية ، على هذا النحو الحميم ، بالجماعات المسيحية القائمة في آسيا وافريقيا ، يمثل عنصراً جديداً في حياة هذه الكنيسة . فقد اقيمت في الغرب معارض كبيرة للرسالات رأينا فيها صوراً ورسوماً للسيد المسيح ولمريم العذراء والقديسين تمثلهم وفق عقلية هؤلاء المسيحيين الجدد ، ولكنها تبدو لنا غريبة . وقد نشأ عندهم فن معماري كنسي وفقاً لعادات بلادهم ، ولا تخلو بعض محاولاته من كونها عوجاء خرقاء . على ان من الراجح ان يتم شيئاً فشيئاً تمازجٌ اعمق بين روحانية هؤلاء الشعوب والكنيسة .

وحتى الآن كان الاهتداء الى الكثلكة يقتضي اعتناق الطقس اللاتيني والتفكير والصلاة على الطريقة الغربية . ولكن الكنيسة اخذت تميل اكثر فاكثر الى اجتناب فرض ما كان غربياً بحتاً على مسيحيي بلدان الرسالات . انها تفتش على مهل عن تعابير تقوية جديدة . وقد يجيء يوم تغني فيه طقوسها بعناصر بلدية محلية . وهذه القضية طرحها لاول مرة على بساط البحث المرسلون اليسوعيون في الصين منذ اربعة قرون . وكان قصدهم ان يدمجوا في الطقس الكثوليكي العبادة التي يؤديها الصينيون الى امواتهم . وبعد جدل طويل ، بدا الامر لرومية غير خالٍ من الخطر ، اذ رأت فيه تصويباً لعبادة وثنية وتشجيعاً لها . ولكن الكنيسة عادت

فدرست القضية من جديد بعد مهلة اربعماية سنة ، فاصدرت ، منذ ثلاثين عاماً على التقريب ، قراراً به تجيز للكثوليكيين الصينيين ان يعبّروا بعلامات خارجية عن تكريمهم لقدامائهم . فاعتبر هذا التكريم ، اليوم ، كأنه على اتم وفاق والعقيدة الكثوليكية .

يتمتع رئيس مجمع نشر الايمان بسلطات واسعة على الكنائس الكثوليكية الموضوعة تحت ولايته . فمنها ما جُعلت ابرشيات يسوسها الاساقفة ولا يؤدي « البابا الاحمر » اليها سوى مساعدات واعانات . ومنها ما هي تحت سلطة نواب رسوليين ، او وكلاء رسوليين ، او رؤساء رسالات مستقلين . وفي الهند واليابان والصين، وفي نواحي افريقيا الشاسعة، اصبحت الكنائس الكثوليكية ذات سلطات متسلسلة ذاتية . ومن آلاسكا الى جزر الانتيل ، ومن ليبيريا والتوجو الى باووندا ونياسا والزنجبار ، ومن بور لويس الى مدراس ، ومن كولمبو الى بنجكوك ، ومن سيوونتز الى هيروشيما ، وضع مجمع نشر الايمان المعالم ليهدي خطوات المرسلين الاولين ، والقى رقبات جسر ، ولا يزال يشمل بعنايته اعمال هؤلاء الرسل ، ويدوّن ، بتدقيق ونظام ، في سجل شهدائه الضخم ، اسماء الشهود الاخيرين .

الفصل الثالث

البابا يعبىء جيش الرهبان

١ - ازمة في الاديرة .

بالقرب من مـــار بطرس يمتدّ احد الشوارع التجارية المعروف بـ « كولادي رَينزو » Cola di Rienzo ، رأيت فيه يوماً راهبتين تشقان طريقهما وسط جمهور من النساء المسارعـــات باكراً لشترى اللازم لمعاش بيوتهنّ ، احداهما مُسنّة قاربت الستين من سنيها ، قسمات وجههـــا مستقيمة وقاسية كأنها تمثال من الطراز القوطي ، وعلى شعر رأسها المقصوص حتى جذوره شبه خوذة من قماش مُنشّأ ، وعلى منكبيهـا يتدلى ازار اسود ثقيل ينحدر حتى خصرها ، وبزنارها علقت سبحة غليظة الحبات ، وثوبها الاسود الفضفاض يكاد يمسّ الارض .

اما رفيقتها ، وهي لم تزل في عهد الصبـــا ، فسافرة الوجه ؛ وعلى مثال الممرضات ، يضم شعرها غشاء خفيف عند مؤخر الرأس ويهبط الى ما تحت نقرتهـــا بقليل ، ولباسها رداء قصير ، وطوق ابيض ضيّق ، وفسطـــان اسود يعلو عن الارض خمسة عشر سنتيمتراً .

هاتان الراهبتان تنتميان الى دير سيدة الناصرة : احداهما تلبس الثوب القديم ، والاخرى الثوب الجديد الذي أقره البابا ، فلبسته الراهبات الفتيات ومرنَ به امامه .

لقد هاجت الراهبـــات وماجت مذ ان اعتزم مجمع الرهبانيات تحوير بزة الراهبات وفقـــاً لمقتضيات العصرية . واشتد النزاع في كل مكان بين القديم والحديث . وقام صراع الاجيال في الاديرة . ان مشايعي الحديث يعانون عراكاً شاقاً ، ولكن مناصريهم كثرٌ ، ومنهم البابا . هبّت ريح الاصلاح على الاديرة فـــيما يلامس الثوب الخارجي ، فتركها الفاتيكان تسير سيرها البطيء ، لانه لا يريد ان يفرض الاصلاح فرضاً على الرهبانيات ، مراعاة لحرمة استقلالها الذاتي .

قال لي احدهم : أتعرف ان اسكوبرث Schuberth ، الخيّاط الذي تزود محلاته كبيرات نجوم الغناء ، قـــد أعد سلسلة من تصاميم لثياب الراهبات الجديدة ، وعرضها على قداسة الحبر الاعظم ليأمر بتصديقها ؟ ولكن لا نصيب له كبيراً في النجاح .

كان محدثي احد الخياطين الكنسيين . وكان الحديث في ردهة مخزنه القريب من البنتيون وكنيسة القديس لويس للفرنسيين . وهذا الحي من المدينة الخالدة اشبه شيء بحي سان سُلبيس في باريس ، يجد فيه الاكليرس ما يحتاج اليه من ثياب واوانٍ وحلل كنسية . ان وراء واجهة من البلور قبّعة

كردينالية جداً جميلة . وهنا وهناك طيالسة من حرير بنفسجي زاهٍ او خمري او احمر ، وفراءٌ بيضاء ، واقمشة بالوان مختلفة ومتموجة ومطرزة ، مما يُشيع في الجو شيئاً من الحلاوة والعذوبة والنعومة . ولكن يا لضيـــاع الحرير ! يا لخسارة الفراء ! فمنذ مجمع الكرادلة الاخير ، امر البابا بتقصير ذيول الاردية الكردينالية ، وبتحريم الاقمشة الفاخرة .

على ان هذا الاصلاح الخارجي في الملبس يعكس ازمة عميقة يتخبط فيها عالم الرهبانيات على اتساعه وتنوعه واختلاف قوانينه . وما هذه الازمة سوى وضع الرهبان والراهبات في المجتمع العصري .

٢ ـ الرهبانيات والتجدد.

قال لي راهب فرنسيسي : تامل اننـــا في غمرة العصر الذري ما زلنا نلبس الثوب الصوفي الخشن الاربد على مثال مؤسسنا القديس فرنسيس .

كنت ذات يوم في مطـار شمبينو Ciampino بالقرب من رومية ؛ وكان البرد قارساً ، ولباسي رداء من وبر الابل ؛ وكان مخاطبي يحتذي نعلين بدون جـــلد ، وليس في قدميه جوارب طويلة ولا قصيرة ؛ وكانت الريح التي تجتـــاح الريف الروماني عاصفة من وراء الجبال تدخل الى جسمه من طوق ثوبه المفتوح واسعاً . انه راهب فرنسيسي ، لا

يبالي بالهواء الصاقع . فقال لي مبتسماً ، تبديداً لدهشتي : اني منذ سبعة قرون اتمرن واتدرّب ...

يتساءل الكثيرون من اخوة هذا الراهب ، على اختلاف قوانينهم : هل من الموافق ان نحتفظ بثياب من القرون المتوسطة ، ونحن نمارس رسالتنا في عالم عصري ، في عهد الثوب القصير Short والطائرة الزارقة كالنجم المذنب ؟ وبعبارة اخرى هل يلائمنا ان نظهر في وسط هذا العالم كأننا لسنا منه ، كأننا من زمان آخر ، نابون عن زماننا ، منعزلون حتى بثوبنا عن معاصرينا ؟

ان اديرة عديدة قد بتّت هذه القضية على الصعيد الفكري ، فدفعت بجندها الهجومي الى احتلال المواقع الامامية في الفنّ والعلم . ولكنها تنتظر قرار السلطة المركزية ، في رومية ، في ما يعود الى تحوير نظام الحياة الخارجي . وهذه ليس من دأبها التسرّع على ما قال خياط الفاتيكان ، خصوصاً بعد ان رأت الاجيال الفتية من الرهبان والراهبات يحاولون دفع الكنيسة في الركب العصري ، مما يقلق السلطة ويحدوها الى القبض على الامور بيد شديدة خشية السقوط في الورطات والهوات .

٣ ـ الرهبانيات القانتة .

للرهبان وللراهبات جمعيات لا عديد لها ، يعيشون فيها

بموجب قوانين يختلف واحدها عن الآخر . على ان حدوداً واضحة تفصل بين المنصرفين منهم الى العمل Actifs ، او الى التأمل Contemplatifs (وقد دعونا هؤلاء « القانتين ») . فبينا يعمل اولئك في معترك الحياة : في المدارس والمستشفيات ومعاهد الاصلاح والرسالات ومحاربة الدعارة ، يعتبر هؤلاء مدفونين احياء ، فحياتهم ليست سوى صلاة وممارسات تصوفية لا غير . على ان اديرتهم تخرج ، من وقت الى آخر ، شخصيات فذة يستمرّ اثرهـا اعواماً بل قروناً ، كالقديسة تريزيا الطفل يسوع ، وكانت فتاة مختبئة في دير الكرمل في ليزيو Lisieux ، المدينة النرمندية الصغيرة في فرنسا ، فاصبحت في القرن العشرين احد كبار الاشخاص اللامعين في الكنيسة .

ان الحياة في اديرة « القانتين » من الرهبان والراهبات لشاقة للغاية . فالترابيون Trappistes ، مثلاً ، محظور عليهم التحدث على الدوام ؛ فيعبّرون عن افكارهم ، على شكل بدائي ، ببعض حركات يتعلمها المبتدئون ، وبواسطتها يستطيع الآباء التفاهم ؛ ويبلغ الصوم عندهم حدّ الافراط في شدته ؛ وتستمر تلاوة الصلوات الفرضية ساعات طوالاً ؛ ويُقطع الرقاد ، في منتصف الليل ، بصلاة عامة في كنيسة غالباً ما تكون صاقعة . ويخضع الرهبان لنظام عقلي وروحي جدّ قاسٍ ، يقضي عليهم بالطاعة المطلقة للرؤساء ،

كما يقضي عليهم ، مدى الحياة ، بمساكنة اشخاص لا يد لهم في اختيارهم ، وقد لا يحبّونهم في بعض الاحيان إلا على كره منهم .

قال الاب جمس Jammes الترابّي ، رئيس دير الينابيع السبعة Sept - Fons : « ان رهباننا لا يهدفون الأ الى ان يظهروا للعالم وجه الكنيسة الاولية المنسيّ ، واخوّة الجماعة المسيحية الاولية ، حين كان كل شيء للكل . قد يبدو هذا الامر بسيطاً جداً . ولكن ما اصعبه في الواقع ! فكّروا اننا لا نكون ابداً وحدنا ، إلا وقت التأمل الذي نخلو فيه الى الله ، لاننا نشتغل ، ونأكل ، ونرقد ، ونخدم الله دائماً معاً . قد تخالون ان هذا ليس بالامر الجلل . فجرّبوا ! اجمعوا نحو مئة رجل ، والزموهم بان يعيشوا بدون انقطاع بعضهم مع البعض الآخر ، في منزلٍ واحد ، منصرفين الى اشغال واحدة ، مجتمعين في ساعات معيّنة في محل واحد لتناول الطعام ، وفي محل واحد آخر للرقاد ، واخلاقهم ، وان صلحت ، لا تخلو من بعض شراسة ومن بعض انحراف واعوجاج ، واجسامهم تثقلها غالباً الاسقام والعلل . فلن تتوصلوا الى ان تنالوا منهم ان يحتمل بعضهم البعض الآخر ، وبالاحرى ان يحبه ؛ ولا ان يجهدوا انفسهم في ان يخدم بعضهم بعضاً بنشاط ولطف ، بدون ادنى كراهية وملل ، وبدون شعور اناني ولا توبيخ او عتاب صامت . على ان ذلك هو ما ينتظره المسيح منا ويطلبه

فينا ، بحق ، حين يذكّرنا بان شريعة الله هي ان نحب قريبنا كنفسنا » .

هذه حياة الترابّيين يقضونها معاً مشتركة على الدوام . اما الكرتوزيون Chartreux فيقضون حياتهم في خلوة مستمرة . لكلٍ منهم مقره ، لا يتركه إلا للذهاب الى كنيسة الدير والاشتراك في الصلوات الفرضية . طعامه يقدمه اليه ، كل يوم مرتين ، عبر نافذة صغيرة ، احدُ الاخوة المساعدين . وليس له اتصالات الا بهذا الاخ الذي يمر عليه ، وباخوته الآباء الرهبان الذين يلتقيهم اضطراراً ، بدون ان يتبادل واياهم الكلام ، بمناسبة اقامة الصلوات الفرضية . انه منقطع الى الصلاة والتأمل طوال حياته .

قال لي بعضهم : « ان الراهب الكرتوزي يرقد الساعة السابعة ، وينهض الساعة الحادية عشرة ليلًا ، فيجثو في غرفته امام المصلوب ، يتلو صلاة الليل وصلاة الصبح من فرض العذراء مريم . وقبيل منتصف الليل ، يتوجه ماشياً بدون ضجيج بحذائه الصوفي الابيض ، ماراً بالرواق الكبير حيث تنساب اشباح اخرى الى الكنيسة ، فيمكث فيها حتى الساعة الثانية والنصف في مقعده الخشبي ، يرتّل مع اخوته صلاة الليل القانونية ، ثم يعود الى قلأيته حيث يتلو صلاة الساعة الاولى من الفرض الصغير ، ولا يأوي الى فراشه إلا عندما تدق الساعة الثالثة . وقبيل الساعة السابعة ينهض مرة اخرى

من رقاده ، فيرتل بصوت خافت صلاة الساعة الاولى من الفرض القانوني ، والساعة الثالثة من فرض السيدة العذراء . ولا تازف الساعة الثامنة حتى يكون قد انهى تأمله الصباحي . فيسرع مرة ثانية الى الكنيسة ، عبر الرواق حيث تتلاعب اشعة الشمس ، ويحضر القداس الديري مع جمهور الرهبان والاخوة ، قبل ان يحتفل بقداسه الخاص على انفراد . ولا يعود الى مقره الا الساعة العاشرة . فيستريح قليلاً ، ثم ينصرف الى الممارسات والقراءات الروحية ، وينهيها بتلاوة الساعتين السادسة والتاسعة من فرض السيدة العذراء . وقبل الظهر بنصف ساعة ، يذهب الى حيث الحطب ليشققه ، او الى طاولة النجارة ليقوم ببعض الاشغال ، او الى بستانه فيعشّبه . وعندما تدق ساعة الظهر ، يصعد الى مقره ، فيتلو صلاة التاسعة من الفرض القانوني . ثم ينزل ليأخذ عن النافذة الصغيرة غذاءه اليومي الوحيد ، وهو دائماً من الطعام القاطع ، بدون لحم ولا دهن . والساعة الثانية بعد الظهر ، بعد ان يُتم تنظيف غرفته ، يفتح كتاباً يجد فيه موضوع التأمل الذي يدوم ساعة . والساعة الثالثة يعود الى محل شغله ، حطّاباً او نجاراً او بستانياً ، حتى الثالثة والنصف ، فيتلو صلاة المساء من الفرض الصغير . والساعة الرابعة الا الربع ، يتوجه الى الكنيسة للمرة الاخيرة حيث يرتل صلاة المساء القانونية بالاشتراك مع اخوته الرهبان . ثم يصعد الى

قلايته ولا يتركها حتى المساء . وهنا يدرس نحو ساعة . وعند الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة ، يجد على النافذة الصغيرة قطعة خبز وبعض خمر ممزوج ماءً ، وبهذا كل عشائه. واخيراً يفحص ضميره الساعة السادسة ، ويباشر تأملاً طويلاً حتى صلاة النوم التي يتلوها الرهبان جميعاً في وقت واحد ، كلٌ في قعر قلايته . وينتهي يومه الساعة السابعة . فيرقد وينام .

« ذلك هو مسلك الراهب الكرتوزي ، يدوم طوال حياة كاملة . وغالباً ما تكون حياة الراهب الكرتوزي طويلة جداً قبل ان يرقد رقاده الاخير في مقبرة ترتفع فوقها صلبان خشبية صغيرة ، لا نجد على واحد منها اسم الراهب الذي يرقد في ظله » .

اما الراهبات المنضويات تحت قانون الرهبانيات الكبيرة القديمة ، فانهنّ ، في كل بلدان العالم ، يعشن بموجب قوانين يختلف بعضها عن البعض الآخر ، ولكنها متساوية في الشدة والقساوة ، وتفوق بها قوانين الرهبان . وينشأ احياناً عن الرهبانيات الكبيرة ، التي تقرن العمل بالتأمل كالبندِكتين والدومنكيين ، فروع نسائية تتفرغ للصلاة والتأمل . ومن وقت الى آخر ، تصدر عن هذه الاديرة نشرات مغفلة تنقل اخبار رؤى روحانية ومزاولات تصوفية عميقة نستطيع بها سبر غور الحياة الروحية الداخلية التي يتأجج

سعيرها ضمن هذه الجدران الصامتة الخفية . واحيانا تكتشف الكنيسة ،بين الراهبات المحصنات، قديسة جديدة لا تبدأ رسالتها إلا زمناً طويلاً بعد دفنها في مقبرة ديرها .

٤ – الرهبانيات العاملة .

الى جانب هــذا الجيش الصامت من الرهبان والراهبات القانتين ، جيوشٌ اخرى من الرهبان والراهبـات الذين ينشدون العمل ، والعمل وسط العالم . فاليسوعيون ، منذ تـأسيسهم ، ألغوا الاديرة ، والصلاة الفرضية المشتركة ، وعدلوا عن التقيد بثوب خاص يتميزون به من سائر الكهنـة . اما في ايامنا فقد باتت حياة الاديرة نابية عن الحياة الحقيقية وشاقـة جداً ، وتطغي عليها الشكليات . وبعض الكثوليكيين ، اصحاب الدعوة ، يشعرون في داخلهم بوجوب اقتحام العالم . فكانت النتيجة نشوء جمعيات تختفي فيها نوعاً مـا الحياة الرهبانية ، ويلبس اعضاؤها ثياباً لا يختلفون بها عن سائر النـاس ، ولا يستنكفون من ركوب القطارات السائرة تحت الارض في المدن الكبيرة Métro ، والاتكاء الى حافة طاولة في حانة شأن جميع البشر . فبموجب الوصية الانجيلية ، ينبغي للمسيحي ان يكون « في » العالم ، وليس « من » العالم . على ان هؤلاء الرهبان والراهبات المتخفين يقومون بكل ورع وحرارة

بالممارسات التقوية عينهـــا التي تفرضها قوانينهم على غرار من تقدموهم .

٥ – ضرورة التجدد في الاديرة: مؤتمر الرهبان في رومية .

بينا كانت الكنيسة تدرس معضلات التبشير ، وغايتها من ذلك جعله مطابقاً لمقتضيات العصر الحاضر ، التأم في رومية (وهذا حادث ذو شأن كبير في تاريخ الكنيسة) مؤتمرٌ عالمي حضره مندوبون يمثلون جميع الرهبان الذين دعاهم البابا الى « تطبيق حالتهم على مقتضيات الحياة في الازمنة الحاضرة » .

فلله ما كان اظرف القاعة الفسيحة في قصر « دائرة الختم الرسولي » Chancellerie ، حين عقد المؤتمرون فيها جلسات سرية ، حُظر حضورها على غير الرهبان ، يتداولون شؤونهم الخاصة ! فقد أمَّ رومية رهبان من اقصى البلدان ، ومن الاديرة المتحصنة تحصيناً شديداً ، بثيـــابهم المختلفة الازياء والالوان . فضمَّ هذا المؤتمر (والمؤتمر الآخر الذي اجتمعت فيه الراهبات) ممثلي مليون ومايتي الف رجل وامرأة ، يستمدون قوامهم كل دقيقة من حفظ القانون والنظام ، بكل انضباط وامانة ، ومن الممارسات التصوفية القاسية التي يمكننا اختصارها بالنذور الثلاثة القانونية : العفة ، والفقر ، والطاعة .

انصرف الرهبان في البدء الى فحص ضمير دقيق وطويل.

وكانت لغة المؤتمر اللاتينية وأهمّ اللغات الاوروبية. قال البعض: « من الخطل الاحتفاظ بثيابنا التقليدية وكيفية قص شعرنا في العصر الحاضر؛ ـ اننا مشتّتون ومنقسمون الى حدٍّ مفرط؛ ـ على الرؤساء ان يحترموا شخصية المرؤوسين اكثر مما يصنعون؛ ـ ان وكلاء الدخل والخرج في الاديرة يجهلون اصول الادارة ومبادىء مسك الحساب؛ ـ تُبذل جهود قصيّة لكي تحافظ كل رهبانية على مكانتها؛ ـ لسنا نُعير الجبهة الكثوليكية بالاجمال ما تستحقه من الاهتمام والعناية؛ ـ تنقصنا روح الاقدام والابتكار، واننا نعمل كل شيء في حياتنا على سبيل العادة بصورة آلية ».

وما خلا هذه النظرات التي تبادلها الرهبان، وهذا النقد لحالتهم الداخلية، فان البابا نفسه دعاهم الى تجدّدٍ لازم لازب. وكان ما حداه الى ذلك شعوره بالخطر الذي يهدد الكنيسة من جهة اعدائها، ولا سيما اعضاء الكنيسة الدجالة الشيوعية. فوجّه كلامه الى الرهبان، مذكراً اياهم، شأنه في ظروف اخرى عديدة، باننا نعيش في ازمنة تنذر بخطر رهيب. فقد كتب البابا بيوس الثاني عشر في رسالته الجامعة الصادرة في ٢٣ ايلول ١٩٥٠:

« بعد الحوادث المريعة التي اتّسمت بها الحرب الاخيرة، لم يعد عدد الكهنة كافياً للحاجات الماسة المتزايدة على الدوام، سواء في البلدان الكثوليكية او في بلاد الرسالات ».

لهذا امر البابا بعقد هذا المؤتمر ليعلن انرهبان انه سيدعوهم الى الانخـــراط في الفرق العامــلة من جيش الاكليرس الكثوليكي . ولم يستثنِ البابا من هذه الدعوة حتى الرهبان القانتين انفسهم ، فقال : « ينبغي لجميع الرهبــان ، حتى العائشين منهم في الخلوة والصمت ، ان يجعلوا تبشير الكهنـة ذا فاعلية بصلواتهم وتضحياتهم ، واذا كان الامر مستطاعاً فبأعمالهم كذلك » .

وقد شرح كلمات البابا هذه الكردينال بياتزا Piazza ، احد معاونيه الاقربين في محاولة تنظيم رهباني مجدّد ، فخطب في المؤتمرين قائلاً : « يبين لنا ان كلمـة الحبر الاعظم هي ان : اخرجوا من الدير ، يوجهها كشعارٍ الى جميع الرهبان الذين لا تمنعهم قوانين ناطقة صريحاً بالتحصُن ، او تعهدات اخرى توازيها اهمية وتتنافى مع العمل الرسولي . فعندما يحترق البيت ، على الجميع ان يسرعوا الى إخماد النار . أوليس هذا الامر ضرورة الساعة ؟ » واضاف الكردينـال : « هل تنطبق حالة الرهبانيات ، كما تظهر اليوم في حقيقة وجودها ، على مقتضيات التبشير العصري والمساعدة الاجتماعية ؟ هــذا هو السؤال التمهيدي الموجه الى هذا المؤتمر . وجواباً عنه ، ينبغي لكم مباشرة فحص ضمير جدي ، واعـادة النظر في الاسس والخطط والمناهج ، وربمــا القيام ببعض اصلاحاتٍ جريئة » .

٦ – آراء بعض الرهبان .

وتلبية لهذا النداء ، عرض بعض الآباء المرموقين آراءهم للكرسي الرسولي في شأن التجدد الرهباني . فقال الاب بطرس باسّه Basset ، رئيس دير ليجوجيه Ligugé ، في فرنسا :
« ان تقهقر النظام الراسمالي لما يدفع بكثير من الجمعيات الرهبانية الى تبديل تركيزها الاقتصادي ؛ – ان اضمحلال حماية السلطات الرسمية وشيوع التكتلات الاجتماعية يجعلان انعزال الاديرة في خطر اكيد ؛ – لم تبق المظاهر الخارجية التقليدية في الحياة الرهبانية رمز الشهادة تجاه عالم مقسوم في الحاضر فئتين ، الواحدة تتطلّب المزيد من الرخاء ، والاخرى تعاني مرّ الشقاء بدون ذنبٍ اقترفته ... »

وحلّل الاب اسفوبودا Svoboda ، من جهة ، عوامل العداء للاكليرس الذي ينتشر في حضن الكنيسة ، ومن جهة اخرى ، موقف الرهبان المعارضين بكل تصلب لقبول اي عمل اصلاحي في داخل الرهبانيات » .

وادلى الاب كلي Kelly بان « الانسان العصري يميل الى نبذ ما كان رهبانياً ، الا ان يراه قريباً اليه فيقدره على صعيد انساني بحت . وانه لامر مرغوب فيه وضروري ان تأخذ الرهبانيات بتطبيق هذه النظرية ومجاراة هذه العقلية ، لانه لا يحقُّ لها ان تعرّض عملها

للعقم . ومن ضروب هذا التطبيق : لبس ثوب رهبـــاني خاص او عدم لبسه ، والاشتراك ، على مـــدى اوسع ، في المنظمات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ».

اما الاب وليم اسكاموني Schamoni فاطلع المؤتمرين على الاختبارات التي تسنى له اجراؤها في معتقل داشو Dachau في المانيا حيث كان مبعداً مدة الحرب الاخيرة . فقد انصرف الى تحقيـق عميق لحالة الكهنة الموجودين فيه ، وللانحرافات والضلالات العديدة التي استثبت من وجودها في دعوتهم ، وكان الرهبان الذين اتصل بهم فيه يُعدّون بالآلاف ، وهم من جمعيات وابرشيات مختلفة . فاحسّ جلياً بأن « كثيراً من الكهنة لم يشعروا ، وهم بعد في المدارس الاكليريـــة وفي الاديرة ، بان معضلة الحياة الروحية الاساسية انما هي في تعرّي الانسان من ذاته تعرّياً كلياً ».

٧ – مؤتمر الراهبات .

ان مؤتمر رومية الذي جدّ بدون شفقة في كشف المخبأ من النقص الداخلي في الاكليريكيات والاديرة ، عقبته سلسلة اجتماعات اقليمية او وطنية ، بنـــاءً على دعوة صريحة من مجمع الرهبانيـات . فعُقدت ، في السنـوات الاخيرة ، مؤتمـرات في الولايات المتحدة ، وايطاليـــا ، وبوليفيا ، والبرازيـــل ، والارجنتين ، وفرنسا ، وكندا ، وافريقيـــا

الجنوبية . وكانت جهودها الاولية مبذولة في سبيل تجديد الجمعيات الرهبانية النسائية .

ان عدداً مدهشاً من اديرة الراهبات القانتات يخيّم عليه الشقاء وقد يشكو المجاعة ؛ وفي كثيرٍ منها ليس الخبز اليومي مضموناً الا نادراً ؛ والتدفئة بذخ مجهول ، والابنية فريسة العوامل الجوية . وليس من تفسير لهذا الانهيار المادي في معظمها الا ما طرأ من تبدل في الاحوال الاقتصادية ، وفي عدول المؤمنين عن انشاء اوقافٍ جديدة ، وفي ما جرّته الحرب من تهديم الابنية وتبديل عادات المحسنين والمحسنات وامكاناتهم . في هذه الاديرة ، كانت الراهبات يعشن في الغالب من ثمرة اشغال الاخوات المساعدات اللواتي لسن ملزماتٍ بتلاوة الفروض الطويلة وممارسة التأملات المتواصلة . ولكن هذا الشغل المهني لم يعُد يدرّ كسباً ذا شأن كما في السابق ، فضلاً عن ان الراهبات ، في اديرة عديدة ، بسبب نقص الغذاء « المزمن » ، لم يعُد في وسعهنّ القيام بجهدٍ مضنٍ تقتضيه الحياة الحاضرة . وبالرغم من ذلك لا يزال عدد هذه الاديرة المحصّنة على ازدياد مطرد في بلدان عديدة .

ومن الراهن ان مجمع الرهبانيات لا يشجع بعد اليوم على انشاء اديرة جديدة ، ولكنه يعنى ، بامرٍ من البابا ، بان تندمج في اتحاد رهباني جمعياتٌ قوانينها متماثلة ، لان

هذا الاندماج يساعدها على تحسين حالتهـــا المادية ، وتطبيق قوانينها على مقتضيات الزمن الحاضر .

وقد اكبّ مؤتمر الراهبـــات ، تحت اشراف مجمع الرهبانيات ، على درس عميق للمعضلات التي تعانيها اديرة النساء في ايامنـــا . فالراهبات والكهنـــة الموجلون استماع اعترافهنّ قاموا بتحقيق دقيق في سيكولوجية الفتـــاة الكثوليكية التي تشعر « بالدعوة » الى الحيـــاة الرهبانية . وشدّد الخطبـــاء في بسط الاخطار التي تهدد المبتدئات ، ونقص تدريبهنّ الروحي ، والجهل المستولي على غالب الاديرة . حتى ان المؤتمر اقترح ان يُنشأ في رومية « معهد للرئيسات » ترسل اليه الرهبانيات مَن ترشحّهن لادارة الاديرة .

وقد تنازل الحبر الاعظم شخصياً فمحض المؤتمِرات نصائح ثمينة ، غير مستنكفٍ من ايراد بعض تفاصيل عائـــدة الى ثيابهنّ ، قال : « امـــا الثوب الرهباني فيجب ان يختار بنوع ان يعبّر عن البساطة الداخليـــة وعن الحشمة الرهبانية . فيكون له عندئذٍ احسن وقع لدى الجميع ، بدون استثناء الشبيبة العصرية ... » وامـــا القوانين ، اذا ما فُسّرت بحسب الحرف والروح معاً ، فتسهل للراهبة القيام بمهمة معلمة ومهذّبة فضلى في ايامنا . لننظر في ذلك عـــلى الصعيد الآلي البحت : في كثير من البلدان ، مثلاً ، تستخدم الراهبات الدرّاجة عند الضرورة بنوعٍ جدّ لائق . اما في

البدء فكان هذا الامر مستهجنا بالرغم من انه غير مضادّ للقوانين . ومن المستطاع الآن تطبيق بعض امور ثانوية على مقتضيات العصر مثل : نظام توزيع الشغل اليومي ، وبعض تفسيرات للقوانين ، وبعض عادات وليدة ظروفٍ زالت ، وشد ما كانت تعيق رسالة التعليم والتهذيب » .

ولم يهمل المؤتمر معالجة كل معضلة تتعلق بالفتاة الحديثة الترهب من مثل : قيمة العفة والدعوة الرهبانية ؛ ـ الاتزان النفساني والادبي في الراهبة الفتية التي لا تصير عالمة علماً محققاً بما ينطوي عليه نذرها العفة الدائمة الا بعد فترة من الزمن ؛ ـ مقاومة الوسواس ؛ ـ الصداقات الخاصة ؛ ـ اعطاء ملء الحرية للاطلاع على تطور العالم العصري (احتج احد المؤتمرين الاب ليافين Liévain على تحريم بعض الافلام السينمائية ، او قطع اجزاءٍ منها او اجراء مراقبة عليها) ؛ ـ تعديل الممارسات التقوية (هل من المناسب الاحتفاظ ببعض انواع تقليدية من الزهد كاذلال الراهبات) ؛ ـ التغذية ؛ ـ عدد ساعات الرقاد ؛ ـ الفحص الطبي ؛ ـ التدفئة ؛ ـ الاغتسال وما اليه (« يجب ان تعطى الراهبات ملء الحرية في الاعتناء بنظافتهنّ الشخصية في الدير ، بمقدار ما كنّ يصنعنه في العالم » .)

ليس من يشك في انتشار هذه الاصلاحات شيئاً فشيئاً في الاديرة ، بالرغم من حذر القدماء رهباناً كانوا او راهبات .

لكننا نتساءل : الى اي حدٍّ يستطيع مجمع الرهبانيات تحقيق ما اوعز به البابا في شأن تطبيق حالة الراهبات القانتات على مقتضيات الحياة العصرية . ذلك ان النشء الطالع يتجاذبه عاملان : من جهة روح الاندفاع والوثوب ، ومن جهة اخرى نزعة حميمة الى تجديد الحياة الروحية . فالممارسات الصوفية ، الصحيحة منها والمزعومة ، لم تكن قط تستهوي الجميع على ما هي اليوم . فالى جانب العديد من الاكليروسين النازعين الى الخروج من الاديرة الى العالم لاجل الجهاد والصراع ، تتجاوب في حضن الكنيسة دعوة الى اعتناق حياة التصوف في انواعها الاكثر قساوةً .

اننا نشهد اليوم في داخل الكنيسة اعادة نظر في القيم ، فاشتراك العلمانيين في صميم حياة الكنيسة يسير جنباً الى جنب وتجدّد التصوف الكثوليكي .

الفصل الرابع

القوى الجديدة : العمل للكثوليكي

١ – المنظمات الكثوليكية الدولية .

نظم السيد فيتورينو ڤيرونيزي Veronese مؤتمراً للعمل الكثوليكي في افريقيا المتوسطة ، حضرته وفود بلدان عديدة ؛ وكان احد المجاهدين البارزين فيه رجل جاء من بلاد المومَو Mau-Mau .

والسيد ڤيرونيزي هذا محام جد لطيف ، يشغل بضع غرف من القصر الفسيح القائم بالقرب من كنيسة السيدة عبر نهر التيبر ، والتابع لحاضرة الڤاتيكان ، هو قصر سان كاليست Caliste حيث جعل مكاتبه . وقد اطلق على دائرته اسم « اللجنة الدائمة للمؤتمرات »، ووضعها تحت اشراف وزارة الدولة مباشرة . فكانت هذه اللجنة النواة الاولى لمنظمة العمل الكثوليكي الدولي .

ولا يطمح هذا الرجل المعتدل الفطن الا الى ان يزاول ، على اوسع مدى ، سياسة الوجود والحضور ، فلا شأن لديه للحدود بين البلدان ، ويقضي حياته اما في الطائرة او

في القطار : من الاونسكو الى المؤتمرات الاوخرستية الدولية ، ومن « السلام الرومـاني» Pax Romana ، وهي منظمة دولية للجامعيين الكثوليكيين ، الى « منظمة التغـذية والزراعة » في الامم المتحدة . وليس ثمة مؤسسة دولية كبيرة ، كثوليكية او غير كثوليكية ، الا يحضر اجتماعاتها ، فهو يعتبر انه يجب احصاء القوى وجمعها ثم ضمّها الى الحياة الدولية ودمجها فيها قبـل الاقدام على تنظيم ينطلق من مؤسسة مركزية . وليس في نية وزارة الدولة توحيد حركات العمل الكثوليكي توحيداً مفرطاً ، لان فروعها متنوعة للغاية ، واحوالها جد مختلفة ، وكذلك الظروف التي تعمل فيها .

وخلال السنة المقدسة الاخيرة (١٩٥٠) نُظم لاول مرة في تاريخ الكنيسة « مؤتمر عالمي لرسالة العلمـانيين »، وكان الفضل في تنظيمه للسيد ڤيرونيزي ومعاونيه . التـأم هذا المؤتمر في رومية ، واستعرض منظمات العمـل الكثوليكي التي تعد بالآلاف ، على اختلاف انواعها ، ووضع بياناً ، لاول مرة ، بالمنظمات الدولية التي تمتد من « المجلس الدولي للرسالة المريمية » الى الجمعية « الكثوليكية الدولية لحماية الفتاة » ، ومن « المكتب الكثوليكي الدولي للاطفـال » الى « المكتب الدولي للشبيبة الكثوليكية » ، ومن المكتب الدولي للسينما » الى « المركز الدولي لدروس التربية الدينية »، ومن « الاتحاد الدولي لجمعيات ارباب العمل الكثوليكيين » الى « الاتحـاد الدولي للنقابات

الكثوليكية »، ومن « الجمعيـــة الكثوليكية الدولية للاذاعة والتلفزة » الى « الشبيبة العاملة الكثوليكية الدولية » ، ومن « الاتحاد العالمي للجمعيات الكثوليكية للفلسفة » الى « الاتحـاد الاميركي المشترك للعمل الكثوليكي » . وقد تمثل في هذا المؤتمر « المركز (الكثوليكي) الدولي الدائم للاخبـــار » في جنيف ، المعترف به لدى الامم المتحدة ، و « مكتب المؤتمر الوطني الكثوليكي للترفيه » (العمل الكثوليـــكي الاميركي) لاجل شؤون الامم المتحدة ، الخ ...

وقبل هذا المؤتمر العالمي لرسالة العلمانيين ، كان لهذه الجمعيات الكثوليكية الدولية العديدة وثاقات ضئيلة تربط الواحدة منها بالاخرى بواسطة « مؤتمر الرؤساء » Présidents الذي صبح سنة ١٩٥٢ « مؤتمر المنظمات الدولية الكثوليكية ». وقد اضاف اليه الفاتيكان « اللجنة الدائمة للمؤتمرات » التي تُعنى باعداد المؤتمرات الكبيرة للعلمانيين من عالمية واقليمية ، وبجمع الوثائق عن اعمال المنظمات الكثوليكية ، وبانشاء مكتب دروس لبحث هذه الوثائق . وفي الجملة ، ان مهمة السيد فيرونيزي الرئيسة هي ان يضمن الاتصال بين هذه المنظمات العاملة هنا وهناك وبين وزارة الدولة البابوية .

وقد بلغ العمل الكثوليكي الدولي شأواً كبيراً بعد الحرب الاخيرة بسبب المدى الذي وصلت اليه المؤسسات الدولية التي ترغب الكنيسة في التعاون معها تعاوناً فعلياً . فقد جاء

في جملة مقررات المؤتمر العالمي للعلمانيين ، الذي تمثل فيه ٧٤ بلداً و٣٨ منظمة كثوليكية دولية ، ما يلي : « على الكثوليكيين ان يشتركوا في حياة المنظمات والمنشآت القائمة ، لكي يحملوا اليها بحضورهم الخير المسيحي ».

ان كلًا من المنظمات الكثوليكية مستقلة عن الاخرى بادارتها وماليتها . ولكن التنظيم الواسع ، الذي اخذ السيد ڤيرونيزي على عاتقه انجازه ، يقتضي مبالغ باهظة لم يكن في استطاعة الڤاتيكان ان يؤديها . لهذا انشئت منظمة جديدة ، دعيت « وقفية بيوس الثاني عشر »، للتغلب على هذه الصعوبة . فجعل الكرسي الرسولي تحت تصرفها مبلغاً من المال ، على ان يجمع الكثوليكيون في العالم ما به الكفاية . وانشىء مجلس ادارة لهذه الوقفية مؤلف من خمسة اعضاء تسميهم وزارة الدولة .

٢ – العمل الكثوليكي والسلطة الكنسية .

رأينا فيما سلف كيف عُني الاحبار الاعظمون بان يقبضوا على زمام السلطات الكنسية الكثوليكية . ولكن معضلة اخرى كانت تعترضهم هي قيادة الحركات العلمانية .

ان نظام السلطات الكثوليكية ، على تنوع فروعه وتعدد درجاته ، لم يعد كافياً للاضطلاع بكل المهام التي تواجهها الكنيسة في الازمنة الحاضرة . وقد نادى البابوات المتأخرون ،

مراراً كثيرة ، بوجوب الاستعانة بالعلمانيين .

على ان الكنيسة لا تُقدِم على تحقيق هذا التعاون الا بدراية بالغة ، لان المقصود هو دمج عمل العلمانيين دمجاً صميماً في الكنيسة . وقديماً حاول البروتستنتيون ذلك ، فتوصلوا الى تقويض هيكل السلطة الكنسية والى تسلط الحاكم المدني على الكنيسة . وفي ايامنا ، قامت قضية الكهنة العمال (ولا شك في انها مستوحاة نوعاً ما من عمل الكثوليكيين الغُير في المعامل) ، فكادت تفضي الى علمنة الكنيسة . لهذا صرف الباباوات همّهم منذ البدء للحؤول دون تراخي السلطة الكنسية في اشرافها على تنظيم العمل الكثوليكي ، تحت سلطة الاساقفة مباشرة في ابرشياتهم ، وتحت سلطة البابا في الكنيسة باسرها ؛ وحتموا بان يعين مساعد اكليرسي الى جانب الرئيس او المدير في كل فرع من العمل الكثوليكي ، لان هذا العمل ، كما اعلنه البابا بيوس الثاني عشر في المؤتمر العالمي للعلمانيين : « اداة بيد السلطة ، كأنه امتداد لساعدها ...»

وتختلف حدود العمل الكثوليكي باختلاف البلدان القائم فيها . الا ان هدفه هو الرسالة والتبشير . ولا ينى بيوس الثاني عشر في التذكير بما تنطوي عليه الازمنة الحاضرة من اخطار تهدد الكنيسة ، وبضرورة تعبئة القوى الكثوليكية جمعاء لدرئها . ولهذا يدعى العلمانيون ، وخاصة في بلدان ما وراء

الستار الحديدي ، الى القيام مقام الكهنة الغائبين في تعليم الاحداث مبادىء الدين وفي المحافظة على « التفكير الكثوليكي الصائب » ، فضلاً عن مواصلة الدفاع في كل ميادين الحياة السياسية والاجتماعية .

ومما قاله البابا بيوس الثاني عشر في مؤتمر العلمانيين :
« ان حياة الانسان الشخصية والاجتماعية تتصل حتماً ودوماً بشريعة المسيح وروحه . فينجم عن ذلك ، بطبيعة الحال ، تداخل الرسالة الدينية والعمل السياسيّ . فالسياسة ، بمعنى الكلمة السامي ، ليست سوى التعاون لاجل الخير العام ، ولكن هذا الخير يمتد الى مدى واسع . وبالنتيجة فالشرائع ذات الشأن الخطير ، كالتي تعود الى الزواج والعائلة والولد والمدرسة ، انما تفحص وتبتّ وتقرّر على الصعيد السياسي . أوليست هذه القضايا مما يهمّ الكنيسة في الدرجة الاولى ؟ في خطبة سابقة (٣ ايار ١٩٥١) رسمنا الحدود بين العمل الكثوليكي والعمل السياسي ، فلا ينبغي لاعضاء العمل الكثوليكي ان يخوضوا غمار السياسة الحزبية . ولكن كما انه لعملٌ يستوجب الثناء ان يبقى الانسان فوق المماحكات العرضية الزائلة التي تسم المنازعات ، كذلك انه لعملٌ مسترذل ان نُخلي الميدان ونترك المجال حراً ، في ادارة شؤون الدولة ، لاناس غير ذوي استحقاق ولا كفاية . على انه من الصعب ، في هذا

الموضوع ، تعيين الحـــد الذي يحتم على الوصول بان يقف عنده ، او فرض سُنَّة وحيدة للجميع . فالاحوال والعقليات ليست هي اياها في كل مكان » .

٣ – دور العلمانيين .

بلغ العمل الكثوليكي الذروة في عهد البـــابا بيوس الحادي عشر . اما في ايام خليفته بيوس الثاني عشر ، فقـد اتّسم بحدث هام يمتّ اليه بصلة ، ألا وهو اشتراك العلمانيين في حياة الكنيسة الداخلية اكثر من ذي قبل .

ان السلطات الكنسية (البابا والاساقفة وسائر الاكليرس) وجدت في العمل الكثوليكي اداة « تمدّد ساعدها » . قد كان للمؤمنين دور المساعدين . إلا ان تعلقهم بالسلطة على هذا الشكل الذي يجعلهم مرؤوسيها ، تحت امرتها ، لم يخلُ من ان يولّد فيهم بعض قلق واضطراب . فقـد أحسّوا ، خاصة في أبان الحرب الاخيرة ، بمشقاتٍ وُجد الكهنة والعلمانيون فيها جنباً الى جنب ، معرّضين لاخطار واحدة ، ومتمرسين بتبعات متماثلة .

وعندئذٍ وتدريجياً ، شعر الكثوليكيون ، الذين طبقوا حياتهم على ايمانهم في عالم فككت البغضاء اوصاله تفككاً عميقاً ، بالدور الذي يجب عليهم القيام به في حياة الكنيسة العامة . شعروا بذلك لان كثيرين منهـــم كانوا مدعوين

الى الاعتراف بايمانهم حتى سفك الدم ، في بلدان كثيرة كانت الكنيسة مضطهدة فيها (ولا تزال حتى اليوم) ، ولان افضل حركة يأتونها كانت لها قيمة الشهادة ، ولأن العمل الذي كان يُطلب منهم ان يقوموا به يفوق جداً تصميم عمل اجتماعي وسياسي ، ويشمل الانسان برمّته . هؤلاء العلمانيون ، والحق يقال ، لم يبقوا عناصر سلبية بحتة ، بل اخذوا يشتركون فعلياً في بناء الكنيسة ، اذ بدا لهم انه يجب تجديد كل شيء ، كما في عهد المسيحية الاولية . ففطنوا الى انهم بدون منازع جزءٌ من جسم الكنيسة السري الذي يحدّث عنه اللاهوتيون باسهاب ، وان هذه الكنيسة مؤلفة من عنصرين متميّزين الواحد من الآخر ، هما الاكليرس والمؤمنون ، وان الجماعة المسيحية لا تكون كاملة الا اذا كان العلمانيون ، بقدر الاكليرس ، جزءاً منها .

وفي هذه الاثناء ، ظهر في فرنسا كتاب ضخم ، وكان ظهوره في وقته ، وضعه الاب الدومنكي ايف كنغار Congar ، وعنوانه « معالم لاهوت العلمانيين » . فما كاد يصدر حتى أثار حركات عميقة في الاوساط الكثوليكية . وها كم ملخص القضايا المبسوطة فيه .

يتذكر العالم الكثوليكي شيئاً فشيئاً ان العلمانيين « درجة » ، وانه من الصواب اضافتها الى « درجة » الاكليرس . فالدعوة ، من حيث انها نداءٌ من الله ، لا تعني

بالحصر الدعوة الكهنوتية او الرهبانيـــة . فيمكن تلبية الدعوة مع البقاء في العالم . فالعلمانيون يشعرون بانهم « من العالم ومن الكنيسة » ، بينا الاكليروسيون والرهبان ليسوا الا من الكنيسة . فالعهد الذي يرتبط به العلمانيون يتمم رسالة السلطة الكنسية . فبدونهم لا وجود للكنيسة ، او تكون الكنيسة في حالة نقصان .

ولدينا دلائل عديدة على هذه الروح الجديدة ، او بالحري على هذا العود الى القديم ، تبشر بهذا التطور العلماني من زمن طويل . ومن هذه الدلائل ، على سبيل المثل ، الحركة الطقسية : فمن زمن بعيد شرعت تحدث ردة فعل قوية في الكنيسة ضد ابتعاد المؤمنين عن الحفلات الطقسية .

في الكنيسة اللاتينية ، نتيجةً لتطور قديم العهد ، يدير الكاهن ظهره الى الشعب في الحفـــلات الطقسية ، ويتلو كثيراً من الصلوات بصوت خافت ، وبلغة لم يعد يفهمها الحاضرون ، ويتمم حركاته في اقامة ذبيحة القداس اتماماً لا يكاد يُرى ولا يفهم احد مغزاه . اما الفكرة السائدة الآن فهي ان هـذه الانحرافات يجب ان تزول . وقـد بدأ بعض الكنائس (التقدمية منها على الاقل) يصوّب المذابح من جديد نحو الشعب ، واخذ الحضور يتلون معاً وجهراً الجوابات الموضوعة لبعض كلمات الكاهن . وقد تبدّل « اسلوب » الاحتفال عينه بالطقوس . فالحركات اصبحت منبسطة ومتزّنة ، والكلمات

متميّزة ومفهومة . وغدا الراديو والتلفزة يُبرزان للناس اجمعين دقائق الطقس ، فيسهلان عليهم ادراكه ، فيرغبون في الاشتراك فيه . ومن ذلك انهم باتوا يفقهون المدلول الرمزي لهذه القاعدة التي منّتها الكنيسة ، وبها يمنع الكهنة من اقامة ذبيحة القداس اذا لم يكن من يحضره من الشعب ، فالقداس موضوع للمؤمنين .

ولهذا التحسّس الجديد بدور العلمانيين مرحلة اخرى ، علامتها ادراك اعمق واوسع للزواج . فالزواج يبدو كأنه « خليّة كنسية » اولية . وهو عند المسيحيين سرّ . والذين يتممون هذا السر انما هم المتزوجون انفسهم ، وما الكاهن سوى شاهد رسمي منتدب من قبل الكنيسة . فالزوجان اذاً يشتركان ، بعقد الزواج ، في احدى الخدمات السرية التي تقوم بها الكنيسة . فحين يعبران عن رضاهما المتبادل بالزواج فانهما ينشئان عائلة جديدة ، جماعة جديدة ، موسومة بشعار المسيح . واللاهوتيون يعتبرون اقترانهما بالزواج كرمز لاتحاد الكنيسة بالمسيح رأسها . فهذا السر اذاً علمانيٌ بجوهره ، يظهر به شرف الدور الذي يعود الى المؤمنين القيام به في الكنيسة .

٤ – العمل الكثوليكي واخطاره.

ان الكنيسة توجّه نداء ملحاً الى العلمانيين ، وكذلك

الى الرهبان . وانما يدعوها الى هذه التعبئة العامة ما تقتضيه المهام الخطيرة الملقاة على عاتقها ، وما تنطوي عليه الحقبة الحاضرة من اخطار . فالبابا ، في العديد من خطبه ، يعلن ان عدد الكهنة اصبح لا يفي بالمراد . ولا سبيل الى تدارك المضارّ الا بنزول الرهبان والعلمانيين ، كل حسب درجته ومقدرته ، الى ميدان العمل في مجالاته كافةً ، والى الدفاع على جبهات القتال كلها .

وقد كان لهذا الكلام الحبري الكريم صدى تجاوبَ في الجمعية العمومية التي عقدها اساقفة فرنسا سنة ١٩٥٤ ، فادلوا ببيانٍ يلامس العقيدة جاء فيه : « يجب الاتصال بغير المؤمنين ، في الاوساط المنقطعة عن الكنيسة ، بواسطة حضور علمانيين مسيحيين مقيمين في العالم وبواسطة عملهم ، فيحملون اليهم رسالة المسيح ، ويؤدون ما بينهم شهادة المحبة المسيحية ، ويقيمون اكثر فأكثر برسالة التبشير بالانجيل التي تكلها الكنيسة اليهم » .

بهذه الطريقة تستعيد الكنيسة طابعها الجماعي ، وتزيد الجسم السري ، الذي تمثله في عيون المؤمنين ، تجربة جديدة كلها حياة . ولكن هذا التطور الذي يشعر به الكثير من الكهنة والعلمانيين ، على السواء ، لا يخلو احياناً من اخطار تهدد الكنيسة ، بدليل ما اسلفنا قوله من ان محاولة الكهنة العمال ، مثلاً ، كادت تنحرف الى علمنة

الكهنوت ، او هي انحرفت فعلاً .

فكما انهم ما عادوا فلبسوا ثوبهم الاكليريسي لكي يمتزجوا على افضل وجه بالبيئة العاملين فيها ، كذلك توصلوا احياناً الى التفكير في ان الاحتفال بالقداس وتلاوة صلوات الفرض قد يصبحان عناصر تحول بينهم وبين العمال ، لان العامل لا يحتفل بقداس .

ومن الواضح ان هذا الامر لم يكن في نظرهم من الامور المستحيلة بطبعها ، ولكنهم قالوا به كمبدإ لا تستطيع رومية الا رذله . فطابع الكاهن ووسمه الخاص به انما هما من الامور المكرسة التي يجب ألاّ تمس . فالناحية الكهنوتية تفوق سائر النواحي في حياة الكاهن ، فلا يقدر الكاهن ان يعدل ، بدون ذنب ، عما هو جوهر رسالته ، اي الاحتفال بذبيحة القداس .

لهذا ترآى للمحققين الرومانيين ان الكهنة العمال ، بتنازلهم عن بعض نقاط جوهرية في حياتهم الخارجية ، قد تعرّضوا لخطر الانحراف الى اهمال عناصر جذرية من العقيدة التي يقصدون التبشير بها ، لان رغبتهم في توحيد تام يضمهم الى العمال كانت تدفعهم الى الابتعاد عن رسالتهم التبشيرية البحت للالتحاق بالعمال على الصعيد الاجتماعي والنقابي والسياسي . ناهيك بان في ترك الكهنة العمال للاولية التي يفرضها طابعهم ووسمهم الكهنوتي ،

وفي اهمالهم ما لخدمتهم الاسرار المقدسة من ضرورة ماسة ، لخطراً يهدد بعضهم بالانزلاق الى فرع من فروع البروتسطنتية بدون ان يشعروا .

على ان هذا الخطر لم يقع الا في حالات استثنائيـة . فالسلطة الكثوليكية جد حريصة على التمسك بالامتيازات التي وصلت اليها « بتقليد رسولي » ، وجمهور المؤمنين يغـــار على هذه الامتيـــازات بكل حميّة وتشدد . فانطلاق العلمانيين في الاشتراك باعمال الكنيسة لن « يعلمنها » ، بل ينفخ فيها روحاً جديدة ويوليها قوى جديـدة .

ان هذه الفكرة الجماعية او المسكونية œcuménique قريبة جـــداً من الفكرة التي لا تزال حية بدون انقطاع لدى المؤمنين في الكنائس الشرقية المنفصلة ، وما هو مطابق الى الغاية للتقليد المسيحي لدى كثـــير من الكنائس البروتسطنتية .

وعليه فقد يكون في تطور العلمانيين الكثوليكيين في الوقت الحاضر ما يخلق بعون الله جواً مؤاتياً للمحاولات العاملة على التقرب بين الكنائس المسيحية .

القسم الخامس

وفاة البابا وانتخاب خلفه

الفصل الاول

وفاة البابا

١ – الساعات الاخيرة .

هوذا مرة اخرى المعبد السيستي بفخامته وزخرفه ، تتألق روائع ميكال انج في صدره وسقفه وعلى جدرانه . لا بد للكنيسة من العود اليه في ايامها الحافلة بالسرور او بالكدر . فحين يموت البابا ، يلتئم فيه مجمع الكرادلة الانتخابي Conclave ليقوموا بوظيفتهم السامية التي يحرزون بها مرتبتهم كامراء العائلة المالكة في نظام التشريفات البشرية . فهم جميعاً ينتخبون رأس الكنيسة نائب المسيح ؛ وكلٌّ منهم قد يكون البابا المنتخَب .

الحبر الاعظم يلفظ النفس الاخير ، محاطاً بما تفرضه الطقوس من الابهة . ولا عجب ، ففي حياة الباباوات ، كثيراً ما تتوافق الاضداد . ومنها ما نراه ، في هذه المناسبة ، من الضعة البالغة والرفعة الرائعة . فان البابا ، بسبب المرض وانحطاط القوى الناتج عن اعمال مرهقة تفوق الطبيعة ، وعن جهود مضنية تشتد كل ساعة ، لا يستطيع ان يغادر غرفته ، ولا ان

ينهض من سريره . وليس في غرفته شيء من فخفخة الردهات الرسمية ، فهي قلاّية راهب في النزع تملأهـا آثار المرض الزرية .

في هذه الغرفة، يستمع اخصاء البابا القليلون ، وهم جاثون، الى الطلبات التي يرفعها الى الله ، بصوت قويّ ، كاهنُ معبد قداسته الذي يعود اليه تلاوة صلوات المحتضرين :

« يا يسوع الرؤوف ، يا محبّ النفوس ، نسألك ، بنزع قلبك الاقدس ، وباوجاع والدتك البريئة من الدنس ، ان تغسل بدمك جميع خطأة العالم بأسره ، الذين هم في ساعة النزع وسيعبرون اليوم الى الحياة الابدية . يا قلب يسوع المحتضر ، ارحم المشرفين على الموت » .

وهذا الكاهن عينه يولي البابا سرّ المسحة الاخيرة . ولا يحضر هذه الحفلة سوى ذوي قربى البابا ، واعضـاء غرفته الاخصاء ، والاطباء ، ومعاونيه الادنين ، وغالباً بعض كرادلة ورؤساء رهبانيات .

فاذا ما اسلم البابا الروح ، يتقدم الطبيب الخاص ليتحقق الوفـاة ، وعندئذ يجثو الاحياء الموجودون في الغرفة ، ويتلون اولى صلوات الموتى . ثم يلثمون يمين الحبر الاعظم الارفع منهم رتبة فالارفع .

ولا يلبث النعي ان يتسلل الى القصور الرسولية ، فيثير فيها فجأة القلق والاضطراب . ويُفتح باب الغرفة على

مصراعيه، ويسجّي احدُ الاحبار وجه البابا الراحل بنسيج ابيض. ويحضر الكهنة القانونيون الذين يستمعون الى اعتراف المؤمنين في الكنائس الباسيلية الرومانية، لانهم، في طليعة الذين يحيون الليل بالصلاة الى جانب الجثمان، بقوة انعام عريق في القدم.

وفي معبد البابا الخاص به، او امام مذبح نقّال ينصب في غرفته نفسها، يحتفل احد الاحبار بالقداس الاول لراحة نفس رئيس الكنيسة. وتتوالى القداسات، على مدى الساعات، يقيمها بصوت خافت كبار اصحاب المقامات العليا في الكنيسة، وكذلك اخصاء البابا.

وفي الغرفة، يباشر غسل الجثمان، والابواب موصدة. ثم يُفاض عليه غنباز من حرير ابيض بذيله الطويل؛ وعلى كتفيه رداءٌ نصفي من مخمل قرمزي محشّى بفروة بيضاء؛ وعلى رأسه قلنسوة مخملية من اللون عينه؛ ثم يلف النعش بكامله بنسيجٍ من حرير احمر يستر الجثمان حتى الذقن، وتبقى الذراعان فوقه، وفي الاصبع الخاتم رمز السلطة.

وتشعل حول النعش اربع شمعات. ويدخل الغرفة اثنان من حرس الاشراف بسلاحهما المقمقع، ويقفان عن جانبيه وقد اصلتا سيفيهما. وبين هذين العملاقين، تعلو رأسيهما الخوذة المذهّبة، يبدو البابا الراقد كشبحٍ واهٍ وضيع يثير

فينا الاشفاق .

ويأتي دور الكردينال رئيس الغرفة البابوية Camerlingue ، وهو اعلى سلطة في الكنيسة لمدة بضعة ايام ؛ وفي حال شغور هذه الوظيفة ، يقوم بها عميد مجمع الكرادلة ؛ فيتوجه الى غرفة البابا ، تواكبه فصيلة من الحرس السويسري حاملي الرماح ، دلالة على الرتبة الجديدة التي ارتقاها . ويباشر رسمياً تحقق هوية جثمان الحبر الاعظم بمعونة نائبه وممثلي الغرفة الرسولية .

وكانت الغرفة الرسولية عظيمة الشأن في الماضي ، ولكنها تكاد تفقد اهميتها اليوم ؛ غير انها تسترجعها لمدة ايام قلائل في ابان وفاة البابا ، اذ يعود اليها السهر على ممتلكات الكرسي الرسولي وحقوقه الزمنية .

يجثو الكردينال رئيس الغرفة – او عميد المجمع – امام الجثمان الهامد ، ويتلو المزمور : « من الاعماق » ، ثم يدنو من النعش ، ويرفع الستر الملقى على وجه البابا ويتحقق الوفاة . وسابقاً كان يأخذ مطرقةً من عاج يطرق بها ثلاثـــاً جبهة الحبر الاعظم وهو يناديه باسمه .

وبعد اثبات الوفاة على هذه الصورة الرسمية ، يُنتزع من اصبع البابا خاتم الصيّاد . والى الآن كان البابا ، ولو ميتاً ، يعتبر متمرساً بسلطته ، وبعد ايام يُكسر هذا الخاتم في احدى « الجمعيات الكردينالية العامة » . ويحرّر احد كتبة

الغرفة الرسولية محضراً بهذه الاعمال كلها ، وهي ذات اهمية في قضية خلافة البابا الشرعية .

وفي هذه الاثناء ، يضج البلاط الرسولي وباسيلية مار بطرس وجماهير المؤمنين بطلب جثمان الحبر الراحل .

٢ – الى المعبد السيستي .

ويوم وفاة البابا بالذات ، ينظم موكب حافل لنقل جثمانه الى المعبد السيستي . فيتم تأليفه عند العشيـــة ، ويتقدمه احـد افراد الحرس الـويـسري بدرعـه اللماعة ، ووراءه الخدام بلباسهم الحريري الموشّى ، فالضبّـــاط ، فالحجاب الـسرّيون ، فكبار رجال البلاط ، فـامراء ضباط حرس الاشراف ببزتهم الكاملة ، واخـــيراً البابا على نعش يحمله ثمـانية من حرس الاشراف . ومن كلا الجـانبين احبـار يحمـلون شموعـــاً كبـيرة صفراء . ثم الكرادلة بارديتهم البنفسجية ، فاعضاء السلك الدبلماسي بكامله . وفي مؤخرة الموكب يبرز العديد من ابناء الرهبانيات الكبيرة باجسامهم النحيلة وثيابهم الخشنة القاتمة ، فيبدون كاشباح انسلخت من التصاوير التي يغرقها الليل شيئاً فشيئاً في ظلاله الحالكة .

ويتجه الموكب في الصمت الى المعبد الـسيـــتي الذي تضيئه شموع عديـدة . وفي صدره ، حيث رسم ميكال انج مشهد

الدينونة الاخيرة ، يظهر السيد المسيح نقطة وضاءة وسط الابرار والهالكين . وتقام امام المذبح منصة مجللة بالحرير الاحمر فيوضع الجثمان فوقها مطلاً على الجماهير التي تتسابق فتدخل المعبد ، وتبدأ تمزج صلوات تتمتمها بالمزامير التي تنشد بالتناوب طوال العشية .

ويأتي الليل ، فيخرج المؤمنون من المعبد ، وتوصد ابوابه . ويأخذ الكهنة قانونيو مار بطرس باعداد الجثمان لدخول الحبر الاعظم ، للمرة الاخيرة ، الى كنيسته الباسيلية حيث تؤدى له مراسم التكريم الاخيرة . وهذه المرة تفرغ على البابا حلته الحبرية الكاملة ويدفن بها .

توضع على الغنباز قميص بيضاء طويلة تصل حتى القدمين. وعلى القميص يركز القانونيون قميصاً حمراء خاصة بالشمامسة ، وفوقها بدلة حمراء مذهبة . وتغطّى الكتفان برداء فضفاض من الحرير الابيض ، محبّك بخيوط من ذهب ، يدعى بيفيال Piviale . ويلفّ العنق بعصابة من صوف ابيض ، تتخللها صلبان سود منحدرة على الصدر والظهر ، وهي ما يسمّونه الباليوم Pallium الذي لا يحق الاتشاح بهِ الا للبابا والبطاركة وكبار مطارنة الغرب . وهذه العصائب تنسجها راهبات (بقوة انعام قديم يحرصن عليه كل الحرص) من صوف حملان تبارك في كنيسة القديسة اغنيسيا العريقة في

القدم برومية ، وتوضع ليلة بكاملها على ضريح القديس مار بطرس ، ثم ترسل الى البابا ، فيمنحها الاحبارَ الذين ينوي ان يوليهم بها « ملء » استعمال السلطة الاسقفية ، بعد ان يكونوا قد سبقوا فالتمسوها بالحاح . ثم يُلبس البابا ما يسمونه « الفانون » Fanon ، وهو كناية عن شعار خاص بالاحبار الاعظمين وحدهم ، منسوج من حرير احمر ومن خيوط حمراء وذهبية يرتدونه عند احتفالهم بالقداس الالهي ، رمزاً الى اتحاد الكنيسة الغربية بالكنيسة الشرقية . ويوضع على رأس الحبر الاعظم تاج عالٍ من الذهب . وتغطى يداه بقفازين احمرين ، يشع خاتمه فوق احدهما . وتنعل قدماه بخفين احمرين مزدانين بصليبين من ذهب ومطرزين بخيوط من ذهب .

ان هذه الحلل التي تفرغ على الحبر الراقد لا ترمز الى الرتبة البابوية وحسب ، بل الى جميع السلطات الكهنوتية في الكنيسة ، وبها يؤهب لحفلة التمجيد البالغ التي تنتظره غداً . اما هذه الليلة ، فيقضيها في المعبد السيستي ، امام مشهد الدينونة الاخيرة . وامامه يحيي الليل بالصلاة لاجله الكهنةُ القانونيون مع حرس الاشراف الذين لا يفارقون الجثمان لحظة واحدة ، منذ ان أُستودعوه ، بعد ان لفظ رأس الكنيسة انفاسه الاخيرة .

وفي اليوم التالي ، يتألف موكب عظيم آخر امام المعبد

السيستي لنقل الجثمان الى مار بطرس .

٣ – الى مار بطرس .

تجتمع السلطات الكنسية باسرها : مجمع الكرادلة ، والاساقفة ، والرؤساء العامون للرهبانيات ، والكهنة القانونيون ، واصحاب الوظائف العالية في الدواوين ، وفصائل من الجيش البابوي على تنوع فئاته ، وممثلو جميع البلدان ذات العلاقات الدبلماسية بالكرسي الرسولي .

ويتقدم الموكب حملة العرش Sedarii بالبستهم الحمراء ، وبايديهم مشاعل ينيرون بها القاعة الفسيحة التي يمرّ بها الموكب متجهاً الى السلّم الملوكي الذي ينحدر الى مار بطرس .

ويتحرك الموكب في صمتٍ لا يكاد يقطعه سوى همس المصلّين الذين يتلون المزمور : « من الاعماق » . وبغتةً تبرز ، من خلال الظلام ، فصائل من الحرس البلاطي ومن الحرس السويسري ، وتحيّي بصليل اسلحتها الجثمان الذي يتقدّم على مهل ، وعن جانبيه حراس سويسريون عمالقة ، متدرعون الحديد ، معتمون الخوذ ، مسلحون بالرماح . وعلى فولاذ الاسلحة والدروع ، تنعكس انوار صفراء تشعُ من الشموع التي يحملها الكهنة القانونيون .

واما السلّم فمن الرخام ، وهو واسعٌ ، يرجّع وطء الاقدام .

فحين يصل اليه حاملو النعش ، يجعلون الجثمان يظهر كأنه مستقيم على الفراش الاحمر ، ويأخذ التاج الذهبي العالي يشع في الظلام ، وتبدو الحلة الحمراء كنقطة غبراء وسط الملابس البنفسجية والدروع الفولاذية .

واخيراً هوذا البابا يدخل كنيسته الباسيلية . ولاول مرة ، لا يرافق هذا الدخول تحيةُ الابواق الفضية ، ولا هتاف الجماهير . فالكنيسة الفسيحة الارجاء خالية ، يخيّم فيها الحداد .

وحسب العادة المألوفة ، قبل ان يتابع الحبر الاعظم سيره الى ضريح امير الرسل ، يعرّج على معبد القربان الاقدس حيث يُعرض جثمانه ثلاثة ايام كاملة وراء الدرابزون النحاسي العالي . ويجعل النعش على شكل مسطح منحدر بحيث يستطيع المؤمنون ان يروا من بعيد رأس البابا واعلى جسمه . ويحول الدرابزون دون وصول المؤمنين الى الحبر الراحل ليلثموا قدميه بحسب عادة ايطالية قديمة .

ومنذ الساعات الاولى من اليوم التالي ، تسرع المدينة برمتها ، لتلقي النظرة الاخيرة على اسقفها . ان الرومانيين ، وان ألفوا ابهة الحفلات الفاتيكانية فملوها ، لا يمكنهم كبت ما يجيش في صدورهم من الحزن والاسى . فالابنية الضخمة ، التي قامت حول ساحة مار بطرس

حدوداً تفصل بين ايطاليا وحاضرة الفاتيكان ، مزدانة بالاعلام البابوية البيضاء والصفراء ، منكّسة حداداً على الحبر الاعظم . ويسير الكهنة والرهبان والراهبات والمؤمنون ببطء ، بايديهم السبحات يصلون بها لاجل ابيهم المتوفى . وتتجه الانظار الى الدور الثالث من القصر البابوي ، فاذا نوافذه مقفلة علامة الحداد .

في الرواق الايمن ، يقفل الباب النحاسي ، والى جانبه ، على الجدار ، اعلانٌ كبير ابيض ، في اطار اسود ، ينعي البابا الى الرومانيين . ويقوم الحرس السويسري ، ببزاتهم البسيطة ، بالسهر على حدود الفاتيكان الاكثر شهرة .

ليلَ نهارَ ، مشاعل كبيرة تحف بالنعش وتنيره ، وحرس الاشراف ، بسيوفهم المصلتة وبزاتهم الكاملة ذات الالوان الحمراء والفضية ، يداومون الحراسة ، ووراءهم ، على بعدٍ ما ، الحرس السويسري بدروعهم وخوذهم المجنّحة بالريش .

اما على المذبح الكبير ، الذي تظلله قبة البرنان Le Bernin ، فتتوالى القدّاسات ، طوال ثلاثة ايام ، لراحة نفس رأس الكنيسة . وتنصب امامه منصة كبيرة على شكل نعش عالٍ جداً ومن فوقها التاج البابوي المثلث الطبقات ومن حولها اربعة وعشرون مشعلاً وسبعون شمعةً .

وطوال ثلاثة ايام ، يظلّ المؤمنون يمرون امام البابا

ويصلّون لاجله. وبانتهاء اليوم الثالث، تقفل ابواب الكنيسة الباسيلية. ويبدأ الحبر الاعظم المرحلة الاخيرة من سفره الطويل نحو القبر. فها هو يُنقل الى معبدٍ آخر. وبحضور رجال السلك الدبلماسي، واشراف الرومانيين، واصحاب المقامات العليا في الكنيسة، واخصّاء الراحل، يلفّ جثمانه، على ما يرتديه من الحلل الحبرية، بالنسيج الحريري الاحمر الذي كان مفروشاً على النعش، فيصبح كفناً له. وعند قدميه، تلقى صرّة مخملية حمراء أودِعت جميع الانواط والقطع النقدية المضروبة على عهده. ويودع انبوباً معدنياً رقّ سجلت فيه اهمّ الاعمال التي اتاها، شهادة ناطقة بها ترافقه الى القبر.

وبعد ذلك يوضع الجثمان في تابوت مثلث: الاول من خشب السرو مبطن بحرير احمر، والثاني ملبّس بالرصاص، والثالث من خشب السنديان. وبعد ان تتلى على هذه التوابيت الثلاثة صلاة أخيرة، تودع مدفناً موقتاً في سراديب Souterrains كنيسة مار بطرس.

من المعتاد ان يعين الباباوات بدقة واسهاب المكان الذي يختارونه لدفنهم، فينتقون، وفق رغباتهم وميولهم، مدفناً بالقرب من احد اسلافهم. على انهم يؤثرون الآن الدفنة على هضبة الفاتيكان، حيث كان يقوم، في رومية الوثنية، ملعبٌ روماني، صُلب فيه الاول من

اسلافهم ، مار بطرس ، منكس الرأس ، ولا يزال قبره مكرماً تحت القبة الفسحية المنيرة التي شادها ميكال انجلو .

الفصل الثاني

انتخاب البابا الجديد

١ – قبل الانتخاب .

على اثر وفاة البابا ، يجمع عميد الكرادلة ، كل يوم ، زملاءه الموجودين في رومية ، ويروحون يتلون معاً « دستور الانتخاب الذي اصلحه البابا بيوس الثاني عشر سنة ١٩٥٤ ، وبه رسم طريقة انتخاب الحبر الاعظم باسهاب لم يترك شاردة ولا واردة . ثم يؤدي كل كردينال القسم المفروض . وبعدئذٍ يعين الكرادلة يوم نقل الجثمان الى مار بطرس ، ويقررون كيفية الاحتفال بالجنازة طوال تسعة ايام ، ويختارون خطيبين من الاكليرس يكلفون احدهما تأبين الحبر المتوفى ، والآخر ارشاد الكرادلة استعداداً لانتخاب خلفه . ويترتب عليهم اقامة حفلة استقبال عامٍّ لرجال السلك الدبلماسي وجمعيات الفرسان ، وتأليف لجان من عدة كرادلة لمعاونة الذين سيُدعون الى الاشتراك في اعداد المجمع الكردينالي الانتخابي .

ثم يدقق الكرادلة في تخمين نفقات الانتخاب .

وتتلى عليهم رسائل الملوك ورؤساء الدول وتقارير السفراء البابويين . واذا كان البابا المتوفى قد ترك رسائل موجهة الى الكرادلة ، فيأخذون علماً بها . وامامهم يفضّ خاتم الصيّاد الذي كان يلبسه الحبر الراحل والمزدان بنقشٍ يمثل مار بطرس . ويتلف الخاتم الذي كان يستعمل حتى ذاك الوقت في دائرة الختم الرسولي . وتُعين لكل كردينال بطريقة القرعة القلاّية التي يقيم فيها وقت التئام المجمع الانتخابي . ويحدّد يوم التئام هذا المجمع وساعته .

وعند وفاة البابا بندكتس الخامس عشر ، كانت المهل المحددة لالتئام المجمع قصيرة جداً ، فلم يستطع بعض الكرادلة الاميركيين الحضور للاشتراك في الانتخاب في الوقت المعين . فحوّر بيوس الحادي عشر ، عقيب انتخابه ، هذا البند من دستور الانتخاب ، محرّماً التئام المجمع قبل اليوم الثامن عشر او الخامس عشر بعد وفاة البابا . على ان سرعة المواصلات في ايامنا قد تقضي قريباً بتحوير جديد بمعنى معكوس ، لئلا يتعرض الكرادلة ، بعد وصولهم الى رومية ، للتضجر من البطالة اياماً طويلة بانتظار الانتخاب .

وبينا تجرى في الفاتيكان وفي كنيسة مار بطرس حفلات المأتم الحبري ، يتأهب الكرادلة امراء الكنيسة للسفر من مختلف اقطار العالم الى رومية بأسرع ما يكون من الوقت . وقد يسفر الاصلاح الهام ، الذي قام بهِ بيوس الثاني عشر ، عن

ان تكون اكثرية ناخبي البابا من غير الايطاليين للمرة الاولى ، وكرادلة الدواوين الرومانية اقلية ضئيلة ، ويكون بين الناخبين ممثلون لكنائس بعيدة ، منهم بطاركة شرقيون ، ومطرانان احدهما صيني والآخر هندي .

ويتتابع وصول الكرادلة الى رومية للاهتمام بالانتخاب قبل ان يـنزووا في الفاتيكان . فيجرون فيما بينهم الاتصالات والاجتماعات وتبادل الآراء . ومن الطبيعي ان تستيقظ القومية في نفوس بعض الكرادلة فيتداعون الى التقارب والتكتل ، بينا تنشط كلٌ من الدول الكبيرة ـ فرنسا واسبانيا والولايات المتحدة ـ الى لعب دورها .

وفي رومية ، تروج سوق التكهنات . فالرومانيون ، بالرغم من انهم سئموا فخفخة البابوية ، يتحمسون بغتةً في سبيل الانتخاب ، فيرددون القول المأثور : « من يدخل المجمع الانتخابي بابا يخرج منه كردينالاً » ، والمقصود به ان الكرادلة الذين يُظنّ انهم الاجدر بالبابوية هم الاقل حظاً بالفوز بها . على ان هـذا القول الشعبي ليس من الامور المحققة . فسنة ١٩٣٩ ، لم يك احد الكرادلة اقرب من الكردينال باتشلي الى ارتقاء العرش البابوي ، فلم يحل ذلك دون انتخابه . اما سلفه بيوس الحادي عشر فكان ابعد ما يكون عنه بين الذين كان يُقدّر لهم الحظ الاوفر بالبابوية .

وبقطع النظر عن النفوذ الشخصي والشعبية اللذين ينعم بها بعض الكرادلة ، يلهج الناس باسمهم وحظهم بارتقاء العرش البابوي ، لكن الجدل يدور بينهم على افضلية انتخاب بابا من « الاحبار الرعاة » او بابا من اهل السياسة . فيصرح بعضهم بميلهم الى انتخاب مطران ابرشية كبيرة ، عجن الدهر وخبزه ، فيحمل معه الى عرش مار بطرس اختباره الحيّ لحاجات الانسانية الحاضرة ؛ ويؤثر الآخرون ، ممن خبروا ما في حياة الدواوين من معاثر ومهاوٍ ، كردينالاً حاذقاً بشؤونها وعالماً باسرارها ، شبّ وهرم في البلاط ، ومارس ادارة الكنيسة ، وتعاطى امور العالم . وفي الواقع يتتابع البابوات ، لكنهم قليلاً ما يتشابهون ، فكل منهم يجابه احوالاً مختلفة ويحمل رسالة شخصية خاصة .

٢ – المجمع الكردينالي الانتخابي Conclave .

طُليت الرواقات ذات الواجهات الزجاجية بدهان كثيف منعاً لارسال اشارات من الخارج الى الكرادلة . واقيمت « حصون » امام المعابر المؤدّية الى المربّع الارضي القائم عليه المعبد السيستي ودارات الفاتيكان ، حيث يعقد المجمع الانتخابي . وفتحت نوافذ صغيرة دوّارة تدعى ابراجاً Tours في هذه الحصون ، كما في اديرة الراهبات المحصنات ، تدفع بها المؤن الى الداخل . ذلك ان

الكرادلة ومعاونيهم ينعزلون عن العالم الخارجي ما دام المجمع الانتخابي ملتئماً .

ولكن من حق كل كردينال ان يصطحب الى المجمع اثنين من الاكليروس او احدهما اكليرسي والآخر علماني ، بعد ان يتحقق حسن سلوكهما ودرايتهما واخلاصهما للكرسي الرسولي . وما عدا الكرادلة ومعاونيهم ، يلزم العزلة في المجمع طول مدة انعقاده : سكرتير مجمع الكرادلة ، وكاهن المعبد البابوي ، ورئيس الاحتفالات الرسولية ، وراهب للاستماع الى الاعترافات ، وطبيبان ، وجرّاح ، واجزائي ، مع بعض معاونين ، والعدد الكافي من الخدّام .

رتب بيوس الثاني عشر سلسلة قاعات كقلايات للكرادلة المجتمعين ، وكل منها دارة صغيرة تتألف من غرفة للكردينال ، ومكتب له ، ومنزل لمعاونيه ، وجعلها افضل جداً مما كانت عليه قبلاً من حيث اسباب الراحة . وهناك ، في دارات آل بورجيا ، ردهة فسيحة كانت للحرس ، فتحولت الى قاعة للاكل ، يتناول فيها الكرادلة طعامهم معاً ، حول مائدة على شكل نصف دائرة . وقد اعدت مذابح للقداس في غرف اخرى من الفاتيكان .

اما القرعة فتجري ، بحسب العادة القديمة ، في المعبد السيستي . ولهذا اقيمت فيه منصات صغيرة ، جنباً الى جنب ، على طول جدرانه ، تتسع الواحدة منها لكرسي وطاولة

صغيرة ، تعلوها مظلة من الجوخ الاخضر ، فيجلس كل من الكرادلة على منصته .

وقبل الذهاب الى المعبد السيستي ، يجتمع الكرادلة في كنيسة مار بطرس ، حيث يحتفل عميدهم بالقداس استمطاراً لنعم الروح القدس . وفي اثناء القداس ، يلقى عليهم ارشاد يدعون به (كما جاء في « دستور » بيوس الثاني عشر الذي عدّل القوانين السابقة) الى انتخاب راعٍ ذي جدارة للكنيسة الرومانية الجامعة المقدسة في اقصر وقت وببالغ الغيرة ، متناسين كل ميل بشري ، وواضعين الله وحده نصب عيونهم .

وبعد انتهــــاء القداس في الباسيلية ، يدخل الكرادلة المجمع الانتخابي فوراً او قبل المساء على الاكثر حسب ما يرى الآباء . فيتقدم موكبهم مدير الاحتفالات حاملاً الصليب البابوي ، يتبعه الكرادلة بملابسهم الصوفية البنفسجيــة ، وزناناريهم الحريرية من اللون عينـــه ، وكتوناتهم القصيرة . ويمشي وراء الصليب المرتلون منشدين : « هلم ايها الروح الخالق » .

وعند دخولهم المعبد السيستي ، تتلى صلوات اخرى ، ثم يصرخ رئيس الاحتفالات الرسوليــة : « فليخرج الجميع » ، يقصد بهم من لا حق لهم في البقــاء داخل المجمع مــع الكرادلة . وحينئـــذ يتلى مرة اخرى دستور الانتخاب ،

ويُقسم الكرادلة اليمين على حفظ حرمة هذا الدستور ، قـــائلين : « نعد ونصرح ونُقسم ان الذي سينتخب من بيننا حبراً رومانياً بارادة الله لن يني ابداً عن المطالبة والمناداة بكل حزم وعزم بكامل حقوق الحبر الاعظم ، بدون استثناء الحقوق الزمنية ، وكذلك بحرية الكرسي الرسولي . وعليه ، فور ارتقائه عرش الحبرية ، ان يجدد هذا الوعد معززاً بالقسم » .

« نعِد ونُقسم قسماً حافلاً اننا ، نحـــن وخدامنا او معاونونا ، نحفظ السر في كل ما يلامس ، بأي نوع كان ، انتخاب الحبر الروماني ، وفي كل مـا يجري في المجمع الانتخابي ، ونتعهد بعدم افشاء هذا السر ، لا في وقت قيام المجمع ، ولا بعد انتخاب الحبر الجديد ، الا اذا اعفانا هو منه . ولا نقبل على الاطلاق ، من اية دولة كانت ولا باية حجة كانت ، مهمة نقل الحظر Veto او المنع Exclusive، ولو بشكل تمنٍّ ، ولا نُعطي علماً بهذا الحظر والمنع ، لا الى مجمع الكرادلة ولا الى كردينال بنوع خاص ، لا كتابة ولا مشافهة ، لا مباشرة ولا بالواسطة ، لا بالعلامة ولا بأي وسيلة اخرى ، لا قبل المجمع الانتخابي ولا في اثنائه . ولن نسهل اي تدخل او توسل من اي نوع كان قد تتذرع بهما السلطة المدنية للتدخل في انتخاب الحبر الاعظم » .

وبعد ارشاد اخير يلقيه عميد الكرادلة ، يتقدم حاكم المجمع ، والمرشال الدائم للكنيسة الرومانية المقدسة حافظ المجمع ، والمطارنة المساندون للعرش الحبري الذين عليهم مراقبة ابراج الحصون ، وسائر الاحبار ، فيقسمون امام الكرادلة انهم يقومون بمهامهم حسب القوانين المفروضة .

ويتابع بيوس الثاني عشر الكلام في هذه المقررات الدقيقة على الوجه التالي : « تضاءُ المصابيح . فيقوم الكرادلة الثلاثة رؤساء المراتب الكردينالية الثلاث ، والكردينال رئيس الغرفة يرافقهم سكرتير المجمع الانتخابي ، ورئيس الاحتفالات الرسولية ومعاونوه ، ومهندس المجمع الانتخابي ، بتفتيش حثيث ليتحققوا عدم وجود غريب او جاسوس في الداخل . ثم تقفل ابواب المجمع وتسلم مفاتيحها الى الكردينال رئيس الغرفة والى رئيس الاحتفالات الرسولية » ... وعندئذ يدعى جميع المشتركين في اعمال الانتخاب الى الاجتماع في المعبد السيستي حيث يُستعرضون واحداً فواحداً .

ثم يقفل الكردينال رئيس الغرفة المجمع الانتخابي من الداخل ، ويقفله المرشال ومعاونوه من الخارج ، وتسلم المفاتيح الخارجية الى المرشال حافظ المجمع ، ويحرر بكل ذلك محضر في الداخل ، وآخر في الخارج .

وبينا تجرى اعمال المجمع الانتخابي ، يترتب على الكرادلة

المكلفين مراقبة « الحصن » ان يترددوا بتواتر الى قلاّيات زملائهم لكي يتحققوا عدم خرق الحصن . ويرسم بيوس الثاني عشر ألاّ يُرسل شيء من الخارج الى الكرادلة : لا جرائد ولا نشرات دورية ؛ وألاّ يُرسِل الكرادلة شيئاً من الداخل كذلك ، باستثناء الكردينال الموكول اليه ايلاء الحل من الخطايا المحفوظة ، فيدوم اتصاله بديوانه ، لان قضايا الضمير لا تقبل التأجيل . اما من تجاسر على ايصال آلات تصوير او اذاعة او تلفزة او سينما الى داخل المجمع ، فينزل فيه الحرم الاكبر .

٣ ـ القرعة والانتخاب .

في هذه الاثناء ، يكون احد الخيّاطين قد فصّل بكل سرعة ثلاثة غنابيز بيضاء بثلاثة قياسات مختلفة ، ليكون كل شيء معداً للبابا الجديد . وفي موهف المعبد السيستي ، ينصرف الخدّام الى تهيئة كانون قديم من حديد الصب لتحرق فيه اوراق القرعة بعد كل دورة اقتراع . فاذا لم تحصل الاكثرية ، يضاف الى هذه الاوراق قليل من تبنٍ رطب وتحرق معاً ، فيتصاعد من المدخنة فوق الفاتيكان دخان اسود ، فيعرف الرومانيون ، وقد غشوا ساحة مار بطرس ، من هذه العلامة ، ان « البابا لم ينتخب بعد » . وتعد غرفة موقتة

ليشغلها الحبر الاعظم اذا تم انتخابه مساء اليوم الاول بالذات .

وفي صباح اليوم الذي يلي التئام المجمع الانتخابي ، يحضر الكرادلة الى المعبد السيستي ، ما عدا المرضى الذين يبقون في قلأّياتهم . ويبدأ الانتخاب . فيعطى كل منهم تذكرتين او ثلاثاً ، طبع عليها باللاتينية : « انتخب حبراً اعظم سيدي الوافر الاحترام الكردينال ... »

وعلى طاولة امام لوحة « مشهد الدينونة الاخيرة » ، توضع كأس مغطاة بصينيتها . وبعد ان يملأ كل مقترع رقعته بخط مصطنع يخفي به هويته على فاحصي القرعة ، يتقدم من الطاولة ، ويجثو مصلياً ، ثم ينهض ويصرخ بصوت جهوريّ : « يشهد السيد المسيح ، الذي سيديني ، اني انتخب الذي ارى ، امام الله ، من واجبي انتخابه » . ويرمي الرقعة على الصينية ويدفعها فتقع في الكأس . ثم ينحني امام المذبح ، ويرجع الى مقعده . اما الكرادلة المرضى فيقصد ثلاثة كرادلة اليهم حاملين حُقّة يرمي فيها المرضى رقع اقتراعهم .

فاذا كان الفراغ من الاقتراع ، يحرك الكأس اول الكرادلة فاحصي القرعة ، ويباشر اخيرهم نشر الرقاع ، ويحصي الاصوات كلٌ من الناخبين على ورقة معدة لذلك .

قبل « الدستور » الذي عدله بيوس الثاني عشر ، كانت اكثرية ثلثي الاصوات كافيــة لانتخاب البابا . اما الآن فيقتضي حصول اكثرية الثلثين وزيادة صوت عليها ، لئلا يُفسح في مجال القول ان المنتخَب اقترع لنفسه خلافاً للقانون .

ويرسم بيوس الثاني عشر ان يمتنع الكرادلة عــن كل تواطؤ ووعود ومواثيق ، ولكنه يرخص ان تتم اتفاقات بينهم لمصلحة هذا او ذاك من المرشحين . واخيراً يوجه نداء حاراً الى المنتخَب كيلا يهاب قبول العبء الذي يلقى على عاتقه .

فاذا توفرت الاكثرية القانونية ، واعلن اسم المنتخب ، يضغط كلُ كردينــال جهازاً ازاء منصته ، فتسقط القبة المرفوعة فوقها ، وتبقى مظلة المنتخب قائمـة ، علامة لسلطانه المطلق . وعندئذ يسأله الكردينال العميد ، باسم مجمع الكرادلة ، عما اذا كان يقبل بالانتخاب . واذ يجيب بالقبول ، يسأله عن الاسم الذي يود ان يدعى به كحبر اعظم .

وبعد ان يقدّم امراء الكنيسة مراسم الاحترام الاولى الى البابا الجديد ، يذهب احدهم الى الشرفة التي تطل من كنيسة مار بطرس على الساحة العظيمة ، حيث تألبت جماهير كثيفة منتظرة اعلان اسمه ، وقد علمت بانتخابه ،

بدون ان تعرف اسمه ، من لون الدخان الذي تصاعد آخر مرة من كانون الموهف ، وكان ابيض لعدم اضافة تبن رطب اليه ، فيذيع الحبر قائلاً :

« اني ابشركم بفرح عظيم انه صار لنا بابا السيد الوافر الاحترام الكردينال ... » . ولا شك في ان مكبرات الصوت ، في انتخاب البابا الآتي ، ستنقل هذه البشرى حتى ضفاف نهر التيبر .

٤ – حفلة التتويج .

بعد ايام قلائل ، يدخل البابا الجديد كنيسة مار بطرس ، متّبعاً الطريق الذي سلكه جثمان سلفه ، من المعبد السيستي الى معبد القربان الاقدس ، فالى ضريح مار بطرس رأس الرسل ؛ ويجلس على العرش المحمول ، تحيط به المراوح الكبيرة Flabelli التي ورثها البلاط البابوي من الفراعنة بطريقة غير مباشرة . وتتألق الكنيسة الباسيلية بالانوار وتدوّي بالهتاف ، وتوجّه الابواق الفضية اناشيدها نحو التمثال الحيّ الذي يلتفت ذات اليمين وذات اليسار ويبارك المؤمنين . ثم تبدأ جوقة المعبد السيستي تراتيلها ، ويرتفع البخور ضباباً فيعبق في قبة ميكال انجلو حيث تتخلله اشعة الصباح .

ويتقدم الموكب البابوي في غمرة من الترتيل والهتاف

والدعاء والنور والطيب . وامام العرش المحمول يسير مدير الاحتفالات ، يحمل قضيباً طويلاً من فضة ، في قمته فتيل صغير ينبعث منه دخان لاذع خفيف ، ومن وقت الى آخر يوجّه الى البابا هذا القول : « ايها الاب الاقدس ، هكذا يزول مجد العالم ».

هذا المجد سيعرفه البابا بعد ساعات ، عندما يتوّج ، من على شرفة مار بطرس ، امام الجماهير المتسـألبة من رومانيين وسواهم . فيعتمّ تاجه الخاص الثلاثي الطبقات Tiare الذي كان يلبسه في القديم ملوك فارس . على ان البابا لا يلبسه مطلقاً في الحفلات الدينية البحتة .

وعليه ، فحفلة التتويج التي تتم بحضور ممثلي امم الارض قاطبة ، وعلى مشهد من الزوّار الذين تراهم كأنهم البنيان المرصوص في ساحة مار بطرس وعلى ضفـاف نهر التيبر ، لا تزيد شيئاً في مرتبة الحبر الاعظم . فالبابا قد حاز ملء الحبرية مذ قبل بانتخاب انـداده الكرادلة اياه ، في جوّ المعبد السيستي الصامت الهادىء .

وعلى الشرفة ، تتدلى راية حمراء مزدانة بمفتاحين هما شعـار السلطة البطرسية البابوية ، ومنها يُطلّ الاساقفة بالعشرات ، والتيجان على رؤوسهم ، ليروا ، على افضل وجه ، جمهور الرومانيين وضيوفهم يهتفون للحبر الاعظم الجديد .

واخيراً يُطل البابا ، بعد ان اخذ بعض الراحـــة في

غرفة صغيرة وراء الشرفة ، عقيب الاحتفالات المضنكة التي جرت في الكنيسة ، ويجمع يديه الواحدة الى الاخرى ، منتظراً . فيلتفت اليه احد الكرادلة الشمامسة ، وبينها على وسادة حمراء التاجُ الثلاثي الطبقات يتلألأ بالحجارة الكريمة ، وقد كان في الموكب يسترعي الانظار كأنه دعوة صامتة مشوّقة الى العيد . فيرفع الكردينال التاج بكل تؤدة ويضعه على رأس البابا .

وعندئذ ينتصب الحبر الاعظم ويبسط ذراعيه ما استطاع صوب الجماهير ، ويعطي بركته الرسولية الاولى الى سكان رومية وسائر شعوب المسكونة « الى المدينة والعالم » . Urbi et Orbi

الخاتمة

نفس الكنيسة

قلنا في مقدمة هذا الكتاب اننا لا نهدف فيه الى التحدث عن الكنيسة ، بل عن الفاتيكان والدواوين والمجامع والكرادلة ووزارة الدولة . وجلنا جولة صحافي فضولي بين اجهزة حاضرة الفاتيكان ودوائرها الكنسية . وحاولنا ان نرى الى اية آفاق جديدة تتجه رويداً رويداً سفينة مار بطرس : الاراضي الجديدة التي يكتشفها مرسلوها ، والمهام الجديدة التي تنتظر العلمانيين . ولكن الكنيسة ، بحصر المعنى ، هي غير ذلك .

الكنيسة ، على حدّ قول اللاهوتيين ، هي جسم المسيح السرّي . وتشترك بهذه الصفة في طبيعة المسيح البشرية والفائقة الطبيعة من حيث ان المسيح للمؤمنين به هو ابن الله . فاذا فقدت الكنيسة هذه الميزة التي قلدها اياها الله ، هذا الاتحاد الحميم بالله الذي يشبّهه اللاهوتيون باتحاد الزوجين ، تصبح على الحضيض ؛ وتضحي متداعية زائلة ، كجسم لا يحيا الأ اذا اتحدت به نفس ، جميع المنشآت البشرية التي تحدثنا عنها في فصول هذا الكتاب . وهذه القوة المحيية يسميها

اللاهوتيون النعمة الالهية .

ولكن اذا كانت هذه المنشآت لا تحيا الا بالنعمة ، فوظيفتها لا تبطل ان تكون جوهرية . فالسلطة الكنسية بمراتبها – البابا والاساقفة والكهنة والمؤمنون – ملتصقة بطبيعة الكنيسة . فلا سبيل الى ان نتصور الكنيسة بدون سلطانها . فهي جماعة منظورة ، وُجِدت لاجل البشر ، مؤسسها السيد المسيح ، جاء فافتدى بآلامه وموته البشر الموصومين بالخطيئة الاصلية . وسلّم الوديعة – العهد الجديد والاسرار المقدسة – الى تلاميذه وجعل منهم جمعية كاملة بشرية والهية معاً ، هي الكنيسة . ودعا اناساً اتخذهم رسله ، واختار احدهم وكلفه ان يحفظ الوديعة سالمة . وهؤلاء الرسل وسموا بوضع اليد كهنةً لخدمة الاسرار المقدسة . فانضمّت اليهم جماعة المؤمنين ، مرتبطة رباطاً وثيقاً بحياة هذه الكنيسة الاولية . وفي الزمن الحاضر ، لا تزال كنيسة العصر الذرّي ، بالرغم من تفرعاتها وتكاثر خلاياها الحيوية الى حدٍّ خنّاق ، قائمة بهذه العناصر الاساسية : البابا والاساقفة والكهنة والشعب المؤمن .

ان اصحاب السلطات الكنسية يتولون اذاً ، قبل كل شيء آخر ، وظيفة القيّمين على الوديعة . وهذه الوديعة لا تتأثر البتة بقيمتهم الشخصية . انها ثروة دعوا الى توزيعها ، سواء كانوا متّصفين بالجدارة والقداسة ام لا . فرجال الكنيسة

بشر معرّضون لكل ضعف . والكاهن الذي يكرّس القربان قد يكون لا سمح الله زانياً او قاتلًا . فالذبيحة التي يقدمها وهو بهذه الحالة تزيد خطيئة على خطاياه ، ولكنها صحيحة مقبولة ، والسر الذي يُتمّه يظل طوع ارادته بوصفه انساناً مختاراً وموسوماً ، لان الشخص تحجبه وظيفته . والبابا هو رأس الكنيسة المنظور ولو كان اسكندر بُرجيا Borgia . وقد وجد المدافعون عن المسيحية ، في هذه الحالة ، برهاناً على حيويتها ، لان الباباوات الذين كانوا اقل جدارة واكثر انحطاطاً ، لم يستفد احدهم قط من سلطته ليلحق وصمة ما بوديعة الايمان والاسرار التي تسلمتها الكنيسة .

تقضي الكنيسة حياتها ، نوعاً ما ، على صعيدين : الصعيد البشري وصعيد النعمة . على ان الواحد لا وجود له بدون الآخر ، كالانسان لا يستطيع ان يكون جسماً فقط او نفساً فقط . ومع كل ذلك ، فحيث تكثر النعمة فهناك تتجلى حيوية الكنيسة الفضلى . وتمنى هذه الحيوية بالهزال والزوال حيث النعمة لا تروي العناصر المنظورة . فالكنيسة اذاً تشعّ وتتألق بازدياد حيث تتجلى القداسة الحقيقية ، احياناً في رعية ريفية ، او في كوخ خشبي في ظاهر المدن ، لا تحت مظلة احد الكرادلة . والكنيسة بنوع عام هي مجموع كل اعضائها الذين يرتبطون بدون شك بالرأس

وبالسلطات ، ولكنهم يحيون هم انفسهم حيــاة ذات فاعلية ضرورية للمجموع بقدر ضرورة الاساقفة والكهنة .

واكثر من ذلك ، فالكنيسة ، التي تعلن نفسهــا بشرية وفائقة الطبيعة معاً ، لا تنتهي حدودها في مواطن الاحياء . فالجسم السري المتألف منها يتجاوز الموت الجسدي . فالاحياء والاموات – وهؤلاء في عينها احياء حقيقةً اكثر من اولئك – يؤلفون كياناً واحداً ، ويرتبطون بعضهم ببعض ارتبـاط العضو بالعضو ، وهم بنوع ما مسؤولون بعضهم عن بعض . وهذا مـا يسميه اللاهوتيون شركة القديسين ، وهي عقيدة تعلمنا ان الفرد ، كل فرد ، يشترك في حياة المجموع ، وان الجميع يحيون بعضهم ببعض ، وانهم يغرفون من فيض كنز مشترك ، وانهم جميعاً ينمونه او يبذرونه .

فشركة القديسين تشمـل اذاً ، في نظر الكنيسة ، كل اولئك الذين تحييهم النعمة ، ولكن هل يعني ذلك ان هذه « الشركة » مقصورة على الاقلية التابعة للكنيسة الرومانية ، والآخرين محرومون منها ؟

لا ، وايمُ الحقّ ! لان نطاق النعمة هو نطاق الحرية . فالنعمة ، بحسب مشيئة الله ، تمس من تشاء ، ولا يُحرمها من يتطلبها بخلوص وتعمق ؛ انها لا تتقاعس ابداً عن انعاش جميع « ذوي الارادة الصالحة » ، كالشمس تدرك ، حتى عن بعد سحيق ، كل الذين يفتحون عيونهم صوبها ، او يجــدّون في محاولة

اكتشافها بدافع من فطرتهم ، وبدون علم منهم .

فبحسب تعليم الكنيسة ، يستطيع اذاً جميع البشر الاشتراك في نفس الكنيسة ، سواء كانوا كثوليكيين ، ارثوذكسيين ، بروتسطنتيين ، يهوداً او مسلمين ، وحتى من يجاهرون بانهم « لا مذهب لهم » . فامر انتسابهم الى نفس الكنيسة منوط بهم . وتلك قضية شخصية تعود الى الصميم من نفسهم . ولن يُعلم ما زادوه على الكنز العام في شركة القديسين ، الا في الدينونة الاخيرة ، حيث تُصدر الاحكام النهائية في قيمة اعمال البشر جميعاً .

ان النعمة تولي الحرية مع الحياة ، وتعمل عملها بواسطة الاسرار التي رسمها السيد المسيح ، واعظمها سر القربان الاقدس الذي به يتكرر تجسد المسيح في القداس بدون انتهاء . وهكذا يتجدد دوماً طابع الكنيسة الفائق الطبيعة . فالنعمة تبدل حالة كل انسان ، و « تقدّسه » كما يقول اللاهوتيون ، وترفعه من مستواه البشري الى مستوى الهي . فانتسابه الى الكنيسة يبطل ان يكون ذا شكلٍ شرعي ، انه يشترك فيها بانتفاضة حبّ . فالنعمة والمحبة في منزلة واحدة ، ولكليهما نظام واحد .

عندئذٍ لا تبقى العقيدة حقيقةً نظرية مفروضة تحت طائل التأديبات والقصاص ، بل تصبح تمرساً مشتركاً بالحقيقة الموحى بها . وليست مراتب السلطة الكنسية « نظاماً قسرياً »،

بل ارتفاعـــا طبيعيا وسويـاً الى القمة . وما القمة هذه ، على مستوى الحرية والمحبة والنعمة ، إلا المسيح عينه مؤسس الكنيسة . وهكذا فالكنيسة ، في نظر الكثوليكيين ، مع منشآتها الموكولة الى القوى البشرية المتطورة ، انما يُنعشها ويجدّدها على الدوام ذلك الذي نضعه في بداية مسيرها ونهايته .

فهرست

تصويب

ص	س	خطأ	صواب
٣٠	١٠	على قدامة	على اعلان قدامة
٣٣	٩	سيلدون	سيتلدون
٤٥	٩	فانه يصبح	فانه لا يصبح
٥٥	٢٠	تقريراً اضافياً	تقريراً ضافياً
٥٦	١٣	تثقيفه	تسقيفه
٦٠	.	وهم غالبهم	والرهبان غالبهم
٦٠	١٥	فمن البديه ان لكل	فمن البدء لكل
٦٥	٤	الشيخ الواعي	الشيخ الواهي
٦٧	٣	لدرّاجات	الدرّاجات
٨٤	١٦	عقدها	كان عقدها
٩١	١٣	على يده	على يد
١٣٤	١١	جمع كبار	جميع كبار
١٤٦	١٦	عن عيونهم	على عيونهم
١٤٧	١٤	ويصنفوا	لكي يصنفوا
١٥١	٤	الضئيل	بضوئها الضئيل
١٨٧	١٨	وفيها الكنائس	ومنها كنائس
٢١٨	١١	الذي صبح	الذي اصبح
٢٢١	١٨	التي تسم	التي تسمُ
٢٢٢	١٩	تفككاً	تفكيكاً
٢٥٨	١٢	الرسل	ـ والاساقفة خلفاؤهم ـ